2020
3.1.2020

سفر هارون

جيم شيبارد

ترجمة أمينة الحسن

الأبواب كلّها تُفتح أمام الجياع

جيم شيبارد

سِفْر هارون

ترجمة أمينة الحسن

سِفْر هارون

هذا الكتاب بدعم من:

مبادرة 1001 عنوان

سِفْر هارون

تأليف: جيم شيبارد
ترجمة: أمينة الحسن
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-088-1

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2019

الفصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2019
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع:MC-02-01-6217784

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Book of Aron ā Jim Shepard.
This translation published by arrangement with Alfred A. Knopf, an imprint of The Knopf Doubleday Group, a division of Penguin Random House, LLC.

الإهداء

إلى آيدا.

أمّي وأبي أسمياني هارون، لكنّ أبي استمرّ يقول إنّه كان يجب عليهما تسميتي (ماذا فعلت!) ويحكي خالي للجميع أنه كان ينبغي أن يُطلقا عليّ اسم (ما الذي دهاك!) فلم أتورّع يومًا عن تهشيم زجاجات الدواء بعضها ببعض، ولا عن إطلاق حيوانات الجيران من حظائرها لتسرح. لطالما قالت أمي إنه لا يجدر بوالدي ضرب ولد صغير مثلي، لكنّه يعتقد أن استمرار حظّي السيّء هو ما يدفعه لتأديبي، فالضربة الأولى لم تكن كافية قطّ! بينما يظن خالي أنّه لا تفسير لجنوني سوى أن والدتي قد سرقَت خصلة الجنون من أفراد عائلتنا جميعًا، وراكمَتها فيّ.

حين أشكو لها ألمي من مرضي وما يتداولونه عنّي، تذكّرني أنّه لا أحد هناك ليُنصت إليّ سوى نفسي... أن أقرّع نفسي هو علاجي، وهذا يتوافق مع عادات عائلتنا القائلة إن علاج ألم الضرس الممضّ يكون بصفع الخد المقابل له. أخي الأكبر كان كثير التذمّر فيما مضى، قائلًا إننا سنفنى دون أن نحظى بسرير يسند ظهورنا، وبوسائد نريح عليها رؤوسنا. هيّا، لماذا لا تتذمّر أكثر؟ تقول له أمي، ثم تستزيده لتتهكّم منه، إنها ربما ستكنس شكاواه الكثيرة حول فقر بيتنا وتجمعها لتستفيد منها في إشعال الموقد!

خالي هو أوّل من راح يناديني شمايا[1]، لأنّي قمت بأمور كثيرة جعلته

(1) شمايا هو حكيم ربّانيّ عاش في الفترة التي تسبق ظهور المسيح. اعتنق اليهوديّة، وهو سليل الملك سنخريب الذي دمّر مملكة إسرائيل الشمالية. المترجم.

يرفع سبّابته إلى أنفه محذّرًا إيّاي: "إن الله يسمع!" حينها كنّا نتشارك العيش في منزلٍ مع عائلة أخرى في بانيفزيس، بالقرب من الحدود اللتوانيّة. عشنا في الغرفة الأمامية التي احتوت على نافذة مصلّبة، وموقد كبير تغطّيه صفائح قصدير. كان أبي على الدوام مشغولًا بالبحث عن مصادر لجني المال لإعالتنا؛ حتى أنه عمل لفترة قصيرة بائعًا لجلود الحيوانات. حثّته والدتي على العمل في مجال آخر، لكنه كان يردّد على مسامعها أن لبابا الفاتيكان وظيفته، وللمُزارع وظيفته أيضًا. تعمل أمي في تنظيف المنازل، وما إن تغادر إلى عملها حتى يقوم مُساكنونا بالإساءة إلينا كيفما شاؤوا: يسرقون طعامنا، ويرمون أغراضنا في الشارع. لهذا كان عليها، حين تعود إلى البيت منهكةً من العمل، أن تصيح بهم وتعنّفهم، بينما أختبئ خلف كومة قُمامة في الفناء. حين يعود أخوتي الكبار إلى المنزل فإنهم يشاركون أمي صياحها. وبعد أن ينتهي كل شيء، يلتفتون متسائلين: أين شمايا؟ فأكون ما أزال خلف كومة القمامة، أختبئ حتى وإن كانت الريح عاصفة وتقذف القذى في عينيّ.

"شمايا لا يهتمّ إلا بنفسه"، هذا ما يكرّره خالي، لكنّي لم أرغب أن أصير كذلك. لقد وبّختُ نفسي، وعلّمتها أثناء ساعات السّير الطويلة، ووضعت قائمة بالطّرق التي تمكّنني من التحسّن. لكن ما أكثر السنين التي مضت على هذه الحال، وكأنها يوم واحد عاثر.

لطالما حاولت أمي تعليمي الأبجديّة دون نجاح يُذكَر. استخدمَت جدولًا مثبّتًا إلى لوح، رُسمت عليه بعض الحروف تقابلها بعض الصور: هيئة طائر، أو شكل رجل مصغّر، أو حقيبة... ترفع الجدول لتشير إلى صورة ما، ثم تحدّد الحرف المرتبط بها. كنا نقضي اليوم

بأكمله في محاولة رسم الخط المستقيم والخطوط المقوّسة التي تشكّل حرف الألف. غير أني كنت كمن وُلد في البريّة وترعرع فيها؛ لم أتمكن من معرفة أسماء الأشياء. حادثني المعلّمون بهذا الشأن، غير أنّي أبقى أحدّق في وجوههم دون إجابة. ألف، بيت، جيمال، داليت، هيه، فاف، زاين[2].

إن تقرير نتائج الخيدر[3] الأخير، قبل انتقالنا من البيت، يقول إن مستواي في مادّة الإدارة غير مقبول، وفي مادة الدين غير مقبول، وفي مادة الحساب غير مقبول. بل حتى في أعمال النجارة والأشغال اليدوية، غير مقبول. لقد قال أبي عن شهادتي إنها أكثر ما رآه تعاسة من بين ما رأى من تقارير في حياته... ثم دعانا جميعاً بسخرية لنتخيل كيف تمكّنتُ من تحقيق درجات على ذاك القدر من البؤس! أمّا والدتي فبقيت مؤمنة أنّي في تحسّن مستمر. على الأقل في بعض الجوانب الدراسيّة، لكن والدي ردّ عليها بأن الله لو وهبني حياة ثانية، أو حتى ثالثة، فإنني سأبقى على القدر ذاته من الحماقة! يعتقد والدي أن الإنسان ذا الشخصية القوية قادر على تصحيح مساره والبدء من جديد، أمّا الجبان فليس بمستطاعه ذلك. لقد تساءلت دومًا: هل هناك آخرون مثلي، يجدون صعوبةً في التعلّم المدرسيّ؟ عشتُ في قلق لا ينقطع بشأن مصيري، إذ ماذا سأغدو وأنا لا أبرع شيئًا! ما أتعس أن تضطرّ إلى أن تصبحَ الشّخص الذي كنتُه أنا.

قضيت هذه الأيام الماطرة أصنع حواجزَ في الشارع لتحويل مجرى المياه الراكضة. وعلى برك الماء الضحلة، دفعتُ بالعصيّ بعضَ الألواح للسائرين. جذبتني أمي من وسط العاصفة، قائلةً إنها،

(2) الحروف باللغة العبريّة، الأبجدية الحديثة. (م)

(3) غرفة لتعليم الأولاد اليهود. (م)

عندما وجدتني، كنت أجلس مداعبًا خيالاتي المليئة بأطباق السّمك والفطائر. وبعد أن أضجعتني في فراشي إلى جانب المدفأة، قالت إنّي لا أقاوم أيّ مرض يأتيني! من جُدَريّ الماء وحتى الحصبة، ومن الحمّى القرمزيّة إلى السعال الديكي، ولهذا السبب قضيتُ تسعة وتسعين بالمائة من حياتي ميتًا.

حين أتى المساء، استلقيت على فراشي في انتظار النعاس، مثل جرو جيراننا حال انتظاره عربات القطار التي تعبر إزاءنا دون أن تقف. وحينما تناهى إلى والدتي ما يشي بأنني مستيقظ، أتت تنام إلى جواري، رغم إعيائها وتعبها البالغين أشدّهما، لتساعدني على النوم. قالت لي إنّي إذا ما أطبقتُ جفنيّ بشدّة، فستتراءى لي داخلهما أضواء وكواكب تطفو. غير أنّي لن أتمكن من عدّها قبل أن تتلاشى. قالت إن جدّها أخبرها أن الله يحرّك تلك الكواكب والأنوار بأصبعه الصغيرة. قلت لها إنّي آسف على كل ما بدر مني، لكنها أخبرتني أنّها ليست قلقة بشأن المدرسة، وأن ما يهمّها فقط هو علاقتي بأفراد عائلتي وجيراننا. قالت لي إنّ لساني، في أحيان كثيرة، ينطلق دون الرجوع لعقلي؛ أو أن عقلي يعمل لكن دون استشارة قلبي.

إلى ذلك، حين وُلد أخي الأصغر، أخبرتُ والدتي أنّي أريده أن يُرمى في قنّ الدجاج. كنت كالح الوجه طوال العام حين كنت في الرابعة من عمري، وذلك بسبب جرعة لقاح ملوّثة حُقنَت بها ذراعي. أخبرتني والدتي أنّي كنت ألعب وحيدًا على الرغم من تواجد الأطفال حولي. انقضى عامان دون أن أتعلّم شيئًا يُذكر، لا أعرف كيف أسبح ولا

كيف أقود درّاجة. لم أعرف ليّ جدًّا ولا عمّة، ولا آباء روحيّين... وعندما تساءلت لماذا، أخبرني والدي أن السبب هو مجتمعنا الذي يتغذّى فيه الأغنياء جيّدًا بينما مستحقّو المعونة يشربون مياهًا وسخة. أمّا والدتي فقالت إن السبب هو توالي الأمراض عليهم حتى أفنتهم. لم أنقطع عن الدراسة في الخيدر حتى عاد والدي من إحدى رحلاته يومًا، وقال لأمي إننا نعيش في العام 1936! ولهذا فإن الوقت حان كي أتلقّى تعليمًا حديثًا. سُعدت بذلك التغيير، فمعلّم الخيدر دائمًا ما يترك بقايا الطعام على لحيته، ويضع عصاةً من القصب بين أصابعنا ويضغطها بشدّة حين نجيب إجابات خاطئة، وتنتشر في بيته الرائحة نفسها التي لمأوى الكلاب. أمّا البديل فهي مدرسة عامة، والتي كانت مرافقها كلها شديدة النظافة. أُعجب والدي بمعلّمي الجديد الذي يرتدي زيًّا أوروبيًّا، إذ بعد أن نجح في تعليمي كيف أقرأ، رحتُ بدافعٍ ذاتيّ أعلّم نفسي بنفسي. ولأنني بتُّ أشعر بالملل، فلم أتعرّف على أحد بعد، أصبحت قارئًا نهمًا للكتب.

إن أوّل صديق لي في المدرسة العامة كان اسمه يدل. إنه يُعجبني، فهو يشبهني؛ لا مستقبل أمامه، ويركض في كل مكان بأنفٍ راشحة. كنا نصنع زوارقَ ورقيّة كي نلقي بها في النهر، وتدرّبنا معًا على البصق من مسافات طويلة. وهو يناديني شمايا أيضًا، بينما أناديه بشر. وعندما يُسيء التصرّف يغدو ذكيًّا بما يكفي لمنع المعلّم من اكتشافه. وصلنا باكرًا في أحد الصباحات قبل الجميع، فلعبنا لعبة المقلاء[4] بعنف

(4) والقُلةُ والمِقْلَى والمِقْلاء، على مِفعالٍ، كلهُ: عودانِ يَلعب بهما الصبيان، فالمِقْلَى العود الكبير الذي يضرب به، والقُلةُ الخَشبة الصغيرة التي تنصب وهي قدر ذراع. قال الأزهري: والقالي الذي يَلعب فيَضرب القُلةَ بالمِقْلَى. (لسان العرب)

حتى كسرنا بعض نوافذ الفصول. لقد أفزعْنا الأولاد الذين يحملون حقائب لطيفة ولم يجرّبوا أن يمشوا حُفاة الأقدام قط. لطالما عانيت من المشاكل في منزلي بسبب يدل؛ لقد ضُربت في أحد أيّام السّبت لأنني قمت بتفكيك مقصّ البيت إلى جزأين، كي أحصل على سيفَين صغيرين، واحد لي والآخر له.

لم تعلّمه والدته شيئًا غير الأغاني الحزينة، من بينها أغنية عن ملك سيبيريا، وذلك قبل أن تموت من مرضٍ أصاب أسنانها. جاء ليبحث عني بعد موتها مباشرة، لكنني اختبأت عنه. أخبَرني في اليوم التالي أنه ما إن رأى رجلين يحملان والدته على لوح إلى خارج البيت، حتى أسرع والده وأبعده عن مشاهدة ما يحدث.

في ذلك الصّيف استلم والدي بطاقة بريديّة من ابن عمه في وارسو، أخبره فيها أن هناك فرصة عمل متاحة في مصنعه، حيث يقومون بصنع الأنسجة القطنيّة. فسافر مستقلًّا شاحنة مليئة بالأوزّ إلى المدينة، ثم أرسل إلينا لنلحق به. انتقلنا للعيش في مبنى 21 على شارع زامنخوفا، شقة رقم 6. وطلبت منا والدتي أن نحفظ العنوان جيّدًا كي نتمكن من العودة إذا ما تُهنا. قضى أخي الأصغر، صاحب الرّئة السيّئة، أيّامه وهو ينظر إلى صناديق القمامة من النافذة الخلفية، واعتقدَ كلانا أن أفضل مكاسبنا جرّاء انتقالنا هو وجود محلّ خياطة بالقرب منّا على الجانب الآخر من الميدان؛ كان يصمّم الملابس الرسمية للجيش، ويعرض في واجهته الأمامية ثلاثة مانيكانات صغيرة بحجم الذّراع، ترتدي زيّ الجيش بأحجام مصغّرة، وأحببنا أكثر ما أحببنا فيها الأشرطة الصغيرة والميداليات. ولأنه وقت الصّيف فقد

كان متوقّعًا منّي أن أعمل في المصنع، وبما أنّه بعيد جدًّا فقد بات لزامًا عليّ أن أستقلّ التّرام[5]. كنت ألتزم الصّمت في تلك الغرفة الصغيرة المُفتقرة للنوافذ مع أربعة أولاد يكبروني، حتى أنتهي من النسيج. وكان عليّ أيضًا كشط لُفافات النّسيج حتى تحصُل على سطح جافّ مستو كالّتي نجدها في جوارب الشتاء. يستغرق كشط كل واحد منها ساعات طويلة، وبالنسبة لولد صغير مثلي فقد كنت بحاجة إلى الانكفاء على صدري كي أستطيع الضغط بما يكفي من القوّة. وخلال الأيام الحارة كنت أتصبب عرقا كالمطر المتساقط من السطح. الأولاد الآخرون كانوا يُسمعونني كلامًا مثل "يا له من ولد يافع من الرّيف بات بيننا الآن! من الواضح أنه سيكون "فُرْجَةَ" أهل المدينة!" وفكّرت أنّي وحدي ولذلك يستطيعون أن يسخروا منّي، ولذا رفضت العودة إلى المصنع. قال أبي إنّه سيبرّحني ضربًا لن أستطيع معه أن أحرّك حتى حاجبي من الألم. لكنّ أمي، بينما أتكوّر كالفأر تحت المكنسة في يده، أوقفته وأخبرته أنّ هناك كثيرًا ممّا يُمكن لي عمله في المنزل، وستبدأ المدرسة في غضون بضعة أسابيع على كل حال. قال لي والدي إنّي مُنحتُ مخبأً مؤقّتًا يُنجيني منه، فقالت له أمي إن ذلك كافٍ في الوقت الرّاهن. وفي تلك الليلة، حالما تنامى شخيره إلى سمعي، تسلّلت إلى فراشهما وقبّلت أمي قُبلة الليل، ثم سحبت البطانية كاشفًا عن قدمَي أبي آملًا أن يُصاب بنزلة برد!

لأنّي لم أستطع النوم، ساعدت أمي في أوّل الأعمال المنزلية اليومية. وقد أخبرت الجميع أنها محظوظة لأن لديها ابن لا يمانع من الاستيقاظ باكرًا جدًّا. لقد عملتُ بجدّ وبقيتُ محاطًا بصحبتها. كنت أفرغ لها

(5) Trolley: وسيلة نقل عام وهي مثل القطار الخفيف. تعمل داخل المدينة فقط وهي أخف وأبطأ من المترو. (م)

دلاء الغسل، وأجلب الكمّادات الساخنة من أجل صدر أخي. قالت لي أليس ذلك أفضل من تهشيم القناني والوقوع في المشاكل؟ فأجبتها بنعم، إنه كذلك. كنت ما أزال صغيرًا إلى درجة أنه في مقدوري أن أجلس معتليًا مكنسة التنظيف الطويلة ذات الشعر الخشن والتي تستعملها أمي لتلميع الأرضيات.

عندما أخبرَتْ أبي أنّ الأطفال باتوا يُحسنون التصرّف، على الأقل الآن، أجابها أنّه لا أحد منّا تبدو عليه سيماء التغذية الجيدة أو المزاج اللطيف. ومازحها أبي على العشاء قائلا إنها تطبخ كامرأة غاسلة، "اذهب إلى المطعم!" ردّت عليه أمي. ثم أخبرتني لاحقًا أنها حينما كانت شابة لم تكن تشتكي أبدًا، لكن والدتها كانت تعرف أنها الطفلة الأفضل فتُبقيها بالقرب منها. ولذلك، كنتُ أعود إلى نفسي الحقيقية حالما تُطفَأ الأنوار، وفي الصباح أعود للتظاهر أنّ كل شيء على ما يرام.

في المدرسة الجديدة لم نكن نجلس على طاولة واحدة قذرة، بل على مقاعد مدرسيّة حقيقية. أردتُ مزيدًا من الكتب لكن لا يتوفّر لديّ المال، وحين حاولت استعارتها من زملائي في الصف رفضوا إعارتي. أدرتُ علاقتي مع المشاغبين دون عراك إلى حين يوشك جرس الحصة أن يُقرع.

اشتكت أمي إلى أستاذي أنّ أحد التلاميذ نعتني باليهوديّ القذر، فأجابها أستاذي "نعم صحيح، إنّه وسخ، أليس كذلك؟" ومنذ ذلك الحين بدأت أمي تدفعني للاستحمام أسبوعيًّا، وبقيتُ في تلك المدرسة إلى أن قام أحد الأساتذة بلَوي أذن فتاة حتى تمزقت، فنقلتني أمي إلى الخيدر مجدّدًا، لكنّه خيدرٌ آخر نتعلّم فيه البولنديّة

أيضا، وثمّة قُربه محطّتان لوقوف سيارَتي نقل. لكنّي لم أزل متجافيًا عن اتّباع التعليمات كالكلب الذي يفرّ من العصا؛ فمعلّمي الجديد سأل أمي ما الذي يمكن لأي امرئ فعله مع ولد مليء بالإجابات. "إنه كالثعلب! هذا الولد" قال المعلّم. "هو في عمر الثمانين بينما هو في الثامنة!" وحينما أخبرتْ أمي أبي عن الذي دار في اجتماعها مع المعلّم، ما كان منه إلا أن لطمَني بيده. في تلك الليلة جاءت أمي إلى ناحية سريري، سألتني "قُل لي من أنت؟ حدّثني عن نفسك." في بادئ الأمر لم أتمكّن من الإجابة، ثم أخيرًا قلت لها: "أحسَبُ أنّ أغلب الناس لا يفهموني، والذين يفهمونني منهم لا يساعدوني." أخواي الكبيران حصلا على وظائف خارج البلدة، ينقلان الماعز إلى المسلخ ولا يعودان حتى حلول الظلام. وهما مثل أبي يعتقدان أنّه يجب على أمّي أن تبقى في المنزل. لكنّها أسرّت لي عن خطتها في توسيع أعمالها التجارية في غسيل الملابس، وقالت إنّ ذلك لن يوفّر لنا منجمًا من الذّهب! لكنه سيكون عَوْنًا عظيمًا لنا، خاصّة في عيد الفصح ورأس السنة. أخبرتني أنها صرفَت بعضًا من المدّخرات لتشتري الصابون ومواد التبييض والبراميل دون عِلم أبي. ولذلك، كلّما مرّ أبي جوار مخبأ المال، يقشعر جسد أمي شعرةً، كأنّ كومةً من الثلج تحت جمجمتها. فسألتُها لماذا عليها ألّا تأخذ من المال؟ فقالت لي وقد كانت سعيدة أنّها ستجعلني شريكًا كاملًا معها عندما أبلغ التاسعة من عمري، وذلك أشعرني بالسعادة أيضًا، فقد عرفت أنّي سأمتلك ما يكفي من المال ذات يوم للهرب بعيدًا إلى فلسطين أو إفريقيا.

قبل أسبوع من عيد الفصح، جمعْنا الصحون كلها ووضعناها في مياه تغلي على الموقد، وجمعنا جميع المفارش والملابس التي أتتنا من زبائن

أمي ورمينا بها في برميلَين ذَوَي حوافّ معدنية. ثمّ أرْغَتْها جميعها بكتلة صفراء من الصابون. وبعد ذلك شطفناها ووضعناها في العصّارة ثم حرّكنا أجنحة التهوية. وأخيرًا حملنا كل ذلك الغسيل الرّطب في سلال إلى العِليّة، فالحبال مُعلّقة هناك في كلّ مكان تحت العوارض الخشبيّة، وحالما فتحنا النوافذ لفحنا النسيم. لم تستقر أمي تلك الليلة، فقد همست لي أنّ هناك عصابات تطوف أسطح المنازل كي تسرق الملابس، لذلك نمت تلك الليلة على السطح كي ترتاح.

"أرأيت؟ ليس صحيحًا أنّك لا تهتمّ إلّا بنفسك وحسب!" همست لي عندما جاءت لتوقظني في الصباح التالي. وضعت شفتيها على جبهتي ويدها على خدي. حين لمستني بتلك الطريقة، شعرت كما لو أنّ الشخص الذي يكرهه الجميع قد رحل. وأثناء غيابه، لم أخبرها أنني استيقظت.

لم أعد بحاجة إلى اللعب مع أي أحد. لذا عند عودتي من المدرسة، أساعد أمي في أعمال المنزل فورًا. وبينما أخي الأصغر في قيلولته، نتحدث أنا وأمي عمّا يجري في أيّامنا. أخبرتها عن الجنديّ الذي كان يمتطيّ حصانه، وناولني بعض النقود من جواربه بالقرب من موقف التّرام في شارع غيشا. فسألَتْني إن كنت شكرته، فأجبتها "بالطبع لم أفعل!"

إنها تتفق معي في أنّ ما قام به أمرٌ غريب، وتساءلَت إن كان وقتها يحنّ إلى ولده الصّغير. تناهى إلى سمعنا صوت جيراننا يتجادلون في القاعة. ثم قالت إن الأب قضى أيامه في الكنيسة كي يحفظ لنفسه مكانًا في الآخرة، بينما استنزفت الأم نفسها في جلب لقمة العيش للجميع! ثم أردفت أنّ تلك الجارة أنجبت أربعة عشر طفلًا، لم ينجُ منهم سوى

ستة أطفال فقط. قلتُ لعلّهم انتهوا من إنجاب الأطفال، فدعَت، من أجل الأم، أن يهبط عليهم ملاك ذو ستة أجنحة بذاك الخبر.
إنني مطيع لأمّي، لكنها دائما ما تجعلني أقوم بكل الأعمال بدلا من أخي الأصغر. كان خائفا من كل شيء، وكانت تضع شمعة مضاءة بجانب سريره لتدفع الظّلال عنه من كل الزوايا بسبب نافذته التي دون مصاريع. فهو خلال الليل يعتقد أنّ أحدًا ما يقف خلف نافذته أو يطرق على حائط الغرفة، فيبكي حتى ينام عند النافذة. ذهبت أمي لتهدئته، فوجدت عينيه وقد امتلأتا رُعبًا. تُفزعني عيناه حين أنظر إليهما. صاح أبي ناحيته كي يكفّ عن ذلك، ما جعل الأمر أكثر سوءًا، وذكّر أخي بأن جميع الآباء في البناية يعرفون (ليس هو فقط) أنّه ليسَ عليهم كبح جماحهم في العقاب، وأنّه يمكنهم أن يعطوا العاصِينَ ما يستحقونه. فكان عليه أن يتدبّر أمره بنفسه. ثم قامت أمي باسترضائه في غرفة أخرى بعد أن أخبرتني بالبقاء معه وأن أفعل ما أستطيعه ليهدأ.
لدى أخي جميع صنوف الأدوية والقطرات والبخاخات على الطاولة بجانب سريره. وقد علمتنا أمي جميعًا كيف نمسك رأسه ونميله في حال عانى من صعوبة في التنفّس أو بدأ يختنق. كان يكره بقاءه الدائم في المنزل، وأخيرًا هرب وترك ملاحظة يقول فيها أنه عاش ما يكفيه في الحياة، ثم فقدناه مُدّة يومين. وحالما عاد، حبسته أمي في الشقة وسحبت كرسيه لصقَ النّافذة كي يتمكن من رؤية ما يحدث في الخارج.
لم أكن أفهمه، لكن أعجبتني طريقته غير المبالية، فهو لا يتشكّى أبدًا. كان يرفض كل علاج يُعطى له في يده، فينظر إليه نظرة خاطفة ثمّ

يُبعده ليعطيه أحدَنا. إذا لم يكن في قيلولته أو يحدّق عبر النافذة، فهو يجلس قرب أمي. وحين يغضب فإنه لا يؤذي أحدًا ولا يصرخ، بل بدلا من ذلك يقضي أيّامًا دون أن يحدّث أحدًا. لوالدتي مقولة عن كيف أصبح أخي هادئًا جدًّا، تقول إنّ حكمته ماتت بداخله، أو شيئًا من ذاك القبيل، وهو ما قالته جدّتي أيضًا عن أمي نفسها. أخبرت الجيران أنّه عندما كان طفلًا وقد بدأ في المشي توًّا، وفي يوم ما همّت بمغادرة البيت لكنّه لم يرِدْها أن تذهب، افترش نفسه مثل نسر يفرد جناحيه على طريق عربات النّقل كي يمنعها من المغادرة. وعندما حملته إلى المنزل وسألته لاحقًا عمّا فعل، وضع يده على فمه متعجّبًا من نفسه.

كان يحب الاستماع إلى الراديو، وبفضله سمعت لأول مرة برنامج **يانوش كورتشاك** الإذاعي. في كل خميس بعد الظهيرة أجلس معه للاستماع إلى الراديو عبر الحائط، وذاك مُمكنٌ لأن زوجة جارنا كانت تعاني صعوبةً في السّمع. لقد كان البرنامج يُدعى الطبيب العجوز، وقد أعجبني لأنه رغم أنه يشتكي كم أصبح وحيدًا، فإنّه يرغب باستمرار في التعرف على الأشخاص الآخرين، وخاصّة الأطفال. ولقد أحببت أيضًا أنّي لا أتمكن من توقّع الآتي، ففي بعض الأحيان يُجري لقاءات مع الأطفال الأيتام في المخيم الصيفي، ومرات يتحدّث عمّا يحبّه في الطائرات، أو يحكي حكاية خرافية، مما يجعل فناءنا يضجّ. عندما سألت أمي لماذا عُنونَ البرنامج بالطبيب العجوز؟ أخبرتني أنه كانت هناك شكاوى حول السماح للمعلّم اليهوديّ بصقل عقول الأطفال البولنديين.

في العام ذاته أيضًا، أكلتُ في مطعم لأوّل مرّة. فقد اصطحبني أبي

للاحتفال بالحظّ السّعيد الذي لم يفسّره لي أبدًا. وكانت المرة الأولى التي أختار فيها طعامي بنفسي. وبينما كنت آكل، أخذ أبي يختبر معلوماتي عن يان هنريك دونبروفسكي[6]، فهو يعتبرُ نفسَه مؤرّخًا هاويًا. وفي أثناء تناولي الحلويات أضحكني وهو يحاول كسر الجوز بأسنانه. في تلك الليلة حلمت أن غرابا يجلس على كتفي بينما الريح تهب بشدة، وعباءة سوداء ترفرف ورائي. وفي الصباح التالي بينما يرتدي أبي ملابسه أحطتُه بذراعيّ، "ما أمر هذا الولد اليوم؟" سأل أمي وهو يهمّ بالمغادرة.

لم أكن أتفاعل مع بقيّة الأطفال الذين يشاركونني الطاولة في اهتماماتهم، وفي أغلب الأحيان يرمونني بالحجارة. ثم أتى صيف آخر وانقضى. وأردت أن أتعلم ركوب الدراجة. فذهبت إلى ولدٍ يمتلك دراجة وقد وافق على أن يعلّمني، وبعدها قد أستطيع أن أقتني واحدة بعد الدرس الأول، لكنه أعطاني درسا واحدا ثم رفض أن يعلمني المزيد. ذات مساء التقيتُ **لوتيك** بينما كنت جالسًا بالقرب من أطفال لا أعرفهم، وقد طلبوا مني المغادرة لكن لم أفعل. كان لوتيك يرتدي قبعة جلد الأرنب وبها غطاء على الجانبَين للأذنين. فسأله أحد الأولاد عن مكان بيع القبعة فردّ عليه: بين ساقي أمهات أولئك الأولاد! لذا بدؤوا يدفعونه من جميع النواحي. بعدها أوقعوه عليّ، فدفعت الصبيّ الذي فعل ذلك، فارتدّ أرضا ووقع رأسه على حجر مرصوف. طاردنا بقية الأطفال لكن لوتيك قادني نحو طريق يؤدي إلى دهليز مخبّأ بكومة من الفحم. فعاد الأطفال أدراجهم. فسألته

(6) جنرال وبطل شعبي في بولندا من عائلة أرستقراطية. تقديرًا لدوره في تاريخ بولندا فإن النشيد الوطني البولندي قد أُسيّ رقصة دونبروفسكي (1755-1818). م.

كيف وجده، فقال ربما وجد هذا المخبأ قبل ولادتي. وبينما كنا نجلس في الظلام طرحت عليه مزيدًا من الأسئلة لكنّه توقّف عن الإجابة، وبقي يستنشق الهواء مثل كلب.

لقد كان حجمه أصغر مني، صغيرًا جدا، ولديه شقيقة واحدة تصغره يظنونها أكبر منه سنّا. قال إن القرية التي كان فيها يُرثى لها، ولا يمكن أن تظهر على الخريطة، فهي مجرّد ثلاثة ممرّات وبضعة بيوت وسور وطين. كان قد ذهب إلى المدرسة مدّة عام في تملود تويرز، على شارع ميوا، المدرسة التي اشتُهرت بتخريج الجهلة. وذكر أنّ والده كان أقوى حمّالٍ في المدينة؛ يجرّ عربة يد يستعملها كحصان له. كان جيدا خاصة مع المكينات الضخمة من ووتش، تلك التي لا يستطيع ثلاثة رجال مجتمعين زحزحتها. ومن ناحية أخرى كان يقضي وقته في حانة حيث كان يعمل في سكّة حديديّة بالقرب من ساحة ياروشفسكي، تلك الجِيرة ترعبني، فالدخان المتراكم يجعل الهواء شديد الدُّكنة في محطّة التحميل.

لقد فرحت أمي لأنني بدأت أكوّن صداقات، لكن بعد حين حزنت حيث لم أعد أبقى بقربهم مراقبًا أخي الصغير منذ أن أصبح لوتيك المسؤول عن تعليمي. علّمني كيف أسرق من عربة الخضار، وكيف يتسبب أحدنا في إحداث فوضى ليغطي على ما يفعله الآخر، حتى عندما كان بعض الباعة المتجولّين يراقبون بضائع بعضهم الآخر. ومن خلال منشور فرنسيّ أخذَه من كشك بيع الكتب، أثبَتَ لي أنّي لا أعرف شيئا عن الفتيات، اكتشفت أنني أعرف قليلًا جدًّا بحيث أنني لم أفهم ما الذي كان يتحدث عنه. وبعدها راح لوتيك يلعن بعض الرّوس القذرين، ثم قال إنني لا أعرف في السياسة شيئًا أيضًا، وكان

ذلك صحيحًا.
علّمني أنّه ليس علينا أن نجعل مشكلة شخصٍ آخر تُعرقل حصولنا على وقت ممتع. فأخبرته عن كل المشاكل التي حدثت بيني وبين يدل، بما فيها النوافذ المكسورة في المدرسة، لكن لم تنُد عنه أيّ ردّة فعل. تنقلت عائلته ثلاث مرات منذ وصولهم إلى وارسو، وفي الحيّ الذي سكنوه ذات مرة، قبضت الشرطة عليه لأنه كسر باب الفتى الذي سرق قبّعته، ومرّة أخرى حين ثقب رأس صبيٍّ بمطرقة الصائغ. ثم ذكر أنّ الصبيّ أصبح بخير بعد مدة قصيرة، رغم أنه بقي يلف الضماد الأبيض حول رأسه حتى صار الجميع ينادونه بالشّيخ.
سألته إن كان والده يضربه جرّاء الجرائم التي يفعلها، فقال إنّه محظوظ جدا بحزام والده منذ أن تعلم كيف يفرك الثوم والبصل على الكدمات. لكنه محظوظ لأن والده كان مستاءً أكثر من اللعثمة في النطق التي تعاني منها أخته. حاول والده علاجها بتقليدها، وتوبيخها كي تتغلب على ذلك. إنها تحبّني لأنني أنتظرها لتنهي كلامها دون أن أفقد صبري. أخبرت لوتيك أنّني لطيف ويجب أن يحضرني عندهم مرارًا. ولذلك كان يتركني أتبادل معها الحديث ريثما يسلب مالا من مخبئها. قال إنها تعرف أنه يسرقها لكنّها لم تشتكِ قط من ذلك. وعندما يحصل على المال الكافي قد نشتري النقانق أو نستقلّ التّرام.

في تلك الأيّام التي كنت أظلّ خلالها قريبًا من البيت، وكان أخي الصّغير يتحسّن، اعتادت أمي أن تطلب منّي اصطحابه إلى الحديقة ليتنفّس هواءً مُنعشًا. إنّه مُولَع دومًا بالذّهاب إلى هناك. ففي الفناء الخلفيّ لا يوجد سوى صناديق القمامة والعتمة المهجورة باستثناء بعض الأوقات

التي تأتي فيها القطط التائهة. وكان لوتيك يجدنا أينما ذهبنا. قال أخي إنّ إصابته بداء السّل ليس نهاية العالم، وإنّنا (أنا ولوتيك) سنجده مُفيدًا دومًا بطريقة ما رغم ذلك، وهكذا دفعناه يومًا لسرقة جرّة مربّى، وفي مرّة أخرى إلى الغناء لشُرطيّ، وفي أحيانٍ أخرى كنّا ننشغل بأمورنا فيتبعنا. كلّما رأى لوتيك نظرة أخي الخاوية، يسأله "إذن كيف هو الطقس في ويلنو؟" وهي مزحة لا يمكن لأخي أن يفهمها أبدًا.

طلبتُ منه، في طريقنا إلى المنزل، ألّا يُخبر والدتنا عن أي شيء حدث اليوم، لكنّها قالت أنّها أجبرته، فقال لها كلّ شيء، ولذلك حرمَتني من العشاء تلك الليلة. وبعد أن يخلد أخي الصغير إلى النوم، تأتي أمي وتجلس على طرف السرير، ونبقى ننظر إلى بعضنا دون أن يبدأ أحدنا الحديث حتى تتكلّم أمّي أخيرًا وتطلب منّي أن أكون إنسانًا صالحًا، ثم تقبّل خدي وتتمنى لي ليلة طيّبة. وكعادتي أفتح جفنيّ، غارقًا في ظلام سقف الغرفة، وأتذكّر أنّي لم أردّ لها ما قدّمته لي، وذلك ما يحدث غالبًا، ثم أبدأ أخطّط يومي المقبل مع لوتيك كأنّ شيئًا لم يكن.

أعدّت لي أمي حفلةً بمناسبة عيد ميلادي التاسع، وفي اليوم الذي تلا الحفلة سألَت لوتيكَ أختُه عن الحفلة، فأخبرها بما كان. تناولنا كعكَ الزّبيب، وكان الضيوف أخي الصغير ولوتيك وحسب. أخي الصغير أهداني كتابًا من رسوماته، بينما أمّي أهدتني حقيبة جلديّة حاكتها بنفسها.
تحسّنت صحّة أخي الأصغر طوال فصل الشّتاء، وفجأة ساءت حالته فأخذناه إلى المستشفى. وقبل أن يمرَض، أُصيبَت أمّي بالتهاب رئويّ

وبقيَت طَريحة الفراش مدّة أسبوع. وأمضى الوقتَ كلّه قابضًا على طرف لحافها يحدّق بها. وحينما تستيقظ تطلب منّي أن أضع عليه سُترة، وحينما أسأله إن كان يشعر بالبرد يجيب بالنفي، رغم أنه بدأ يسعل. نهضت من سريرها لتضع غطاءً حول عنقه ليخفّف صوت سعاله. ثم قالت إنها تشعر بالتحسّن فابتهج أخي كثيرًا وراح يركض في الفناء الخلفي أثناء عاصفة ماطرة، ثم عاد مغطّى بالماء ويرجف.

حاولت أمي بعضَ الوقت الاعتناء بأخي بنفسها في البيت. جعلتني أقرأ له كلّ يوم بعد الظّهيرة. وكان دائمًا يختار كتابًا اسمه "جور Jur" يتناول قصّة شقيقَين، أحدهما مريض وبحاجة لرعاية دائمة والآخر يتمتّع بالصّورة المُثلى للصحّة لكنّه يموت في النهاية. وأخي الأصغر كان يحبّ النهاية على وجه التحديد: حين يقف الأخ المريض على قبر الأخ السّليم الذي مات ويتحدّث عن مدى اشتياقه له.

اتّضح أخيرًا أن أخي يعاني من التهاب رئويّ أيضًا وفي حاجة إلى الدخول للمستشفى، وبعد ذلك كان يجب نقله عبر الشوارع بسيارة إسعاف.

بقينا أنا وأمّي بجانبه قدرَ استطاعتنا. أبي وأخواي الكبيران زاروه مرّة واحدة مع بعضهم فقط، جلبوا له علبة حلويات كبيرة فتحوها وتناولوا بعضها.

لقد كان يكره خروجنا من المستشفى ليلًا فيأخذ يصرخ أثناء مغادرتنا، وتظل أمي تبكي طوال طريقنا إلى المنزل. وبعد ثلاثة أيّام أُصيب بارتفاع شديد في الحرارة فلم يستطع حتى تمييزنا. حاولت الممرضات خفضها بالكمّادات الباردة دون نفع، وجلبن الخبز المنقوع في الحليب وحاولنا أنا وأمي مساعدته ليفتح فمه ويأكل.

في يوم وفاته أخبرتُه أنّه يتصرّف كأخ كبير لي، وشجاع، وقد أحضرته

أمي إلى المنزل وقال إنّه يرغب في أن يشتري لي من محلّ الخياطة ذاك الزيّ المصغّر لكتيبة أوهلانز المفضّلة عندي. كانت أمي في الصيدلية حينما سأل متى ستعود، وكانت قد أخبرته أنه سيكون أفضل حالًا من ذي قبل، لكن صوتها آنذاك بدا غير واثق. في ذلك الوقت كان يتنفس بصعوبة كأنّ أحدهم يجثم على صدره، ولم يكن باستطاعته أن يتحدّث كثيرًا.

عندما عادت أمي رأت سريره خاليًا. كان عند النافذة يرتدي بيجامة النوم، يقف على الكرسي لينظر خارجًا. تحسّسَت أقدامه وأعادته إلى سريره، وأخبرته أنه إذا تطلّع إلى الخارج بعد استيقاظه فورًا فإن أحلامه التي رآها كلّها ستهرب منه. وقد طلبت مني أن أذهب إلى المطبخ لأعدّ له الشّاي، وسألتني إن كنت أعتقد أنني قادر على فعل ذلك جيّدًا. وبينما كنت أملأ الغلّاية كنت أراهما معًا. لقد أمسكَت كفّيه وطلبت منه أن ينظر إليها، وأخبرته أنّها ستحكي له حكاية قد تكون طويلة، لذا فإنه يحتاج إلى أن يكون واعيًا لها. لقد بدا كمن استيقظ من غيبوبة توًّا بينما يبتسم لها. كانت القصّة عن رجل يهوديّ فقير مع السُّلطان. وفي خضمّ الحكاية سألَته عن أحد قرارات السُّلطان "أليس قرارًا مُدهشًا؟" وبينما كانت تسأله، مات.

مكثت أمي في الفراش مدّة أسبوعين. بذلتُ ما يمكنني للقيام بأعمال المنزل. أبي وأخواي يتناولون طعامهم في الحانة، بينما أطهو عشائي كلّ ليلة بنفسي. ولوتيك تركني وحيدًا. وحالما تغرب الشمس تبدأ أمي بالحديث معي وسط الظلمة، ولا تسمح لي بإشعال الضوء حتى يعود أبي وأخواي. وبعدما ينام أخواي يجلس أبي على منضدة المطبخ يشرب

الفودكا ويبكي في صمت.
أخبرتني أنها غفرت لي، وأن لا أحد بذل ما في وسعه كلّه لأخي الأصغر، وأنها ما زالت تتذكر حينما كانت طفلة صغيرة أنّ إحدى المعلمات قالت لها "أتوقّع حقًّا أنّك ستصبحين ذات شأن،" وبأن المعلمة أخبرت الطلبة المفضلين لديها جميعًا "أنتم تعتلون العربة الآن، دعونا نرى إلى أيّ مدى ستذهبون على الطريق!" قالت إنّ تلك المعلمة أهدتها كتابًا كتبت عليه "من أجل حسن سلوكك ومواهبك المتعددة."
قالت أمي إنها فقدَت طاقتها كلّها في العمل، وربما تستعيدها بعد حين. وأن مشاعرها كقطعة نقود في صندوق حديدي ومن الآن فصاعدا أنا وحدي من يملك المفتاح. وقالت إنها تعرف أن أبي قد أنفق المال القليل الذي ادّخرته "دعه يأخذه ويغادر" هكذا قالت، لعلّه يتركها تعيش بسلام.
وقالت إنها حينما كانت في العاشرة من عمرها اضطرت أن ترعى أختها الرضيعة، والتي كانت تصرخ كلّما تبلّلت، وتصرخ كلّما جاعت، وتصرخ حين توسّخ حفّاظها، فتحملها و تدور وتدور في جميع أنحاء المنزل دون أن تعرف ماذا تريد أختها منها! وقالت إنها عاشت على أمل أن يأتي اليوم الذي تعود فيه والدتها لتأخذ أختها فيغدو الجميع سعداء مُقدّرين ما قامت به.
حين أصبح الجوّ أدفأ، عادت أمي لطهي الطعام والقيام ببعض أعمال التنظيف، والخروج أيضًا. انقضى عيد ميلادي العاشر دون كعك زبيب. وفي أحد الصباحات بعد أن شكرتُها على الإفطار الذي أعدّته لي، قالت إنها كلّما كبُرَت، أصبحت طفلة أكثر. فسألتُها إن كانت تشعر بالتحسن وترغب في التنزّه في الحديقة بعد عودتي من المدرسة،

فقالت نعم، وقد ذهبنا حينها. وقالت إنها في بعض الأحيان تشعر أن كل شيء استُلّ منها وأن كل ما تريده هو استعادة بعض ما أُخِذ.

• • •

في صباح اليوم التالي أيقظني أبي "انهض بسرعة فالحرب قد وقعت، والألمان اجتاحوا البلاد". لم أصدقّه. فأشار ناحية شقّة الجيران وقال "هيّا تعال إلى الراديو وستسمع بنفسك."

لقد قضى الناس اليوم السابق في وضع الأشرطة اللاصقة على النوافذ، والرّكض في الشوارع لشراء أكبر كميّة من الطعام. وفي الصّباح، أخبرنا المعلّم أنّ مدرستنا اعتبارًا من الغد مغلقة، وقد زُوِّدَت سطوحها بمضادات الطّائرات، تحت السيطرة العسكرية، وأنه يجب علينا أن نترك دفاتر التسجيل موقّعة في المدرسة، ويأمل أن يرانا بعد انتهاء الحرب. أردنا أن نذهب إلى السطح كي نرى مُضادّات الطائرات لكن الجنديّ منعنا من الصّعود عند بيت الدرج.

حينما عدت إلى المنزل وجدت أبي وأخوَيّ يضعون الأشرطة اللاصقة على النوافذ، وأخذ أحد أخوَيّ يريني مرشّح الضوء الأزرق. بعد ظهيرة ذلك اليوم شاهدنا طائرة تنفث الدخان من ذيلها، وطائرتان تتبعانها، ثم انحدرت واحدة منهما حتى أصبحت قريبة منا وأخذ الجندي بندقيّته وأطلق النار في الهواء حتى صرخ الناس في الشوارع أنّه يعرّض الجميع للخطر، فتوقّف.

تدوي صافرات الإنذار طوال الليل، لكن لعدة أسابيع لا شيء حدث. أخبرني لوتيك في اليوم التالي بأنه يجب صافرات الإنذار لأنّه يمكن

لأيّ أحد النهوض من فراشه في أي وقت، وكان الأطفال في بنايتهم يجتمعون للّعب في القبو. قال إن كل الأطفال يحبون صافرات الإنذار عدا واحد كانت أمه مجنونة تسبب كثيرًا من المتاعب؛ فهي تركض في الشوارع وتفتح النوافذ حين تدوي الصافرات. أمضينا بضعة أيّام نذهب في ظهيرتها إلى شقّة الجيران للاستماع إلى الراديو، وكانت الأخبار كلها سيئة.

كان القصف يستمرّ ليلًا ونهارًا دون توقّف، وكنّا نقضي أيّامنا في القبو نبكي ونصلّي كي تبتعد تلك الانفجارات رغم أنها كانت بعيدة فعلًا. تجلس أمي مستندة إلى الجدار تلفّ ذراعيها حولي، وكلّما حاولتُ مدّ ساقيّ سألتني إلى أين أنا ذاهب! بينما جلس أبي وأخواي عند الجدار المقابل لنا. وبعد ثلاثة أيام هدأ كل شيء وسمعنا صوت شخص ينادي أسفل الدرج "استسلمَت وارسوا!" أبلغتنا أمّي ألّا نترك المكان لكنّي وأخويّ قفزنا فورًا إلى الشارع.

الغبار والسخام عالقان في الهواء، وحفرة كبيرة في تقاطع الشّارع. كانت شجرة الناصية الكبيرة قد تناثرت أجزاؤها، وفناؤنا الخلفيّ مغطّى بالزّجاج المحطّم. وفي شارع غيشا ما يزال شيء ما يحترق. أعادتنا أمي إلى شقتنا، بعض نوافذها متصدّعة فقط، فطلبت منّا الذهاب للبحث عن ألواح كي نصلحها. لذلك مشيت إلى الحيّ الذي يعيش فيه لوتيك، حيث ضمّني بذراعيه مبتسمًا ملء فمه وقال "حسنًا، لقد نجونا من الحرب." أخبرته عمّا كنّا نبحث، فقادني إلى سياج الزّقاق المحطم وجمعنا بعض الألواح ومضينا سويًّا. آنذاك قال أبي لأمي أن تتركني وشأني أخرج كما أشاء نهارًا، لا سيّما أننا بحاجة إلى الماء حيث لا شيء يخرج من الصنبور. عندها أراني لوتيك

كيف أسرق الماء من خزّان بنايتهم.
جمعنا كل شيء يمكن أن نحتاجه لاحقًا. تتمّ مطاردتنا أحيانًا. المباني التي تدمّرت أصبحت ملاعب كبيرة ودائما ما نجد بين الأنقاض ما يدهشنا. ثمّة مبنىً قد تهدّمَت واجهته بالكامل فأمكننا مشاهدة كلّ شقّة وما بداخلها من السّطح إلى الأسفل. بالقرب من السطح كانت ما تزال عائلةٌ تعيشُ هناك. بدت كأنّها أشبه بمعروضات متجر. عمود حديديّ لسرير يطفر ناحية الفضاء، وفي العِليّة عصافير تدخل وتخرج من الفتحات التي أحدثتها القذائف المدفعية.
في طريقي إلى المنزل حاملًا الماء، أوقفني رجلٌ يرتدي الزيّ الجراحيّ الأخضر، بدا ملطّخًا وقذرًا، يحمل طفلًا صغيرًا، ويرتدي نظّارة مغطّاتين بالغبار، وله لحية صفراء. سألني "أين دّكان الأحذية الموجود هنا؟"
"إنه هناك،" وأشرت له بيدي.
فنظر حيث الجدران المهدّمة التي سقط بعضها فوق بعض. قال لي: "وجدتُ هذا الولد في الشارع، إنه يبدو شبه نائم،" وأردف "لا يمكنه السّير فوق كل ذاك الزّجاج دون حذاء. على كُلٍّ، سأقوم بحمله حتى أجد ما يصلح لقدميه."
لقد ميّزتُ صوته فقلت له: "أنت الطبيب العجوز الذي في الراديو."
"هل يمكن أن أجد لديك في المنزل حذاء يناسب قدميه؟" لكن أحدًا ما نادى: "سيّدي الطبيب، سيّدي الطبيب..." فالتفتَ وحمل الطفل إلى جهة الصّوت.

حين زحف الألمان، الحشود كانت هادئة للغاية حتى أنني سمعت

صوت الذبابة التي تزعج امرأة على بُعد بضع أقدام منّي. قال لوتيك إن الحشود في شارعهم كانت أكثر ضوضاء، وبعضهم يلوح بأعلام الصِّلبان المعقوفة. في اليوم التالي عند ساحة السوق، لم تكن هناك بسطات خضار، بل مزيد من الألمان يفرغون صناديق من شاحنات. حدثني أحدهم بالبولندية "اجلِب لنا شيئًا نشربه" ثم قام هو وأصدقاؤه بالجلوس على الصناديق منتظرين.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع أعدّوا الحساء المطبوخ ووزعوا الخبز مجّانًا. لم يبدُ على الجنود أنهم يعرفون كيف على الناس أن يصطفّوا ليناولوهم الطعام، لقد استمتعوا بنقل الناس من جهة إلى أخرى. ثمّة فتاة صغيرة ذات أذنين كبيرتين اصطفّت معنا وانتظرت ثلاث ساعات، وحينما حصلت على الحساء ناولته لوتيك وقالت له إنّها ليست جائعة. وبعدما غادرت الفتاة أخبرني لوتيك إنها جارتهم وأن والدها وأختها قد لقيا حتفهما تحت الأنقاض، وقال لو أنني رأيت المبنى لقلتُ إنّهم لا يمكن أن يخرجوا من تحت الإنقاض قبل حلول عيد الميلاد.

في تلك الليلة وجدنا اثنين من الألمان عند بابنا يبحثان عن أثاث، وقد جابا أنحاء شقتنا قبل أن يقرّرا أن لا شيء لدينا أثار إعجابهم. ذهبا إلى جيراننا أصحاب الراديو وأخذا طاولتين وطاسة حساء. قال لنا زوج الجيران بعد مغادرتهم أنّهم جرّوه من أنفه لأنّه لم يكن مهذّبًا حسب رأيهم ولم يرحب بهم كفاية.

في اليوم التالي كانت الشّرطة البولندية هي من تتولّى مطبخ الحساء وقد اختفى الجنود. وفي اليوم الذي يليه كانت الشرطة البولندية قد اختفت وكذلك مطبخ الحساء.

• • •

في ذلك الشتاء قمنا بكل ما عزمنا عليه من سرقات وشغب تحت الأمطار الغزيرة. كانت الشوارع مثل المستنقعات بسبب البرك القذرة بين الحصيّ الكبيرة. لَزِمَنا أن نكون شديدي الحذر حيث كل شيء زلقٌ جدّا. ولم يكن ليساعد اليهود أنّه يتوجّب عليهم في شهر يناير ألّا يخرجوا إلى الشوارع بين التاسعة ليلًا والخامسة صباحًا. والد لوتيك كان يترك عربة الجرّ خاصّته أينما كانت، وسيجدها في مكانها صباحًا. كانت العربات ثقيلة إلى درجة أنّ سرقتها مستحيلة في كلّ الأحوال. لقد أخبرَنا عن حمّالٍ ادّعى أنّ الألمان، لشدّة قُبحه، كانوا يقطعون عليه عمله لالتقاط صورة له.

بات لزامًا على اليهود أن يرتدوا أربطةً صفراء حول أذرعتهم. قال لوتيك إنها على الأقل طبقة إضافية تمنحنا مزيدًا من الدفء.

هناك دومًا قانون جديد. لقد استاءت أمي من القانون الذي يُلزم اليهود بعرض شهادة الخلوّ من القمل أثناء ركوب التّرام. ثم حزنت لأنه توجّب علينا لاحقًا ركوب عربات الترام مخصّصة لليهود. وحزنت أيضًا بعدما أصبحنا مُلزَمين بالكشف عن ممتلكاتنا حيث قالت "إنها الخطوة الأولى في تجريدنا من كل شيء نملكه." فذكّرها أبي أن الألمان قد جاؤوا شقّتنا قبْلًا ولم يعثروا على شيء ذي قيمة.

كُنّا أنا ولوتيك نركب أيّ عربة ترام نريدها لأنّه علّمني كيف أرتدي قميصًا بنصف كُمّ فوق قميص بأكمام طويلة، فيمكنني حينها ثني الكُمّ الطويلة لإخفاء الرّباط الأصفر، شارة اليهود. كذلك علّمني كيف أقفز عن العربة حين تتباطأ، فذاك يعني أن الألمان على مقربة منّا في

النقطة القادمة. وذات مرة قفزنا عند شرطيّ ألمانيّ، فجَرّونا من ياقات ملابسنا وأخبرونا أن علينا مساعدة طبيب ما، وقد بدا وحيدًا، وكان يُفرغ خزانته ممّا احتوته من فضيّات ويضعها في سيّارات تنتظر في الجوار. استمرّ الطبيب يخبرنا أن نأخذ حِذرنا في نقل كلّ شيء. وبعد أن انتهينا من آخر حمولة، سألَ الطبيبُ الألمانَ أن يتركوه يحتفظ على الأقل بمَمْلحة جدّته ووعاء صغير –عرَضه علينا– لأنه يمثّل قيمة وجدانية بالنسبة له. لكن الألمان رفضوا ذلك.

"مَن ذا الذي يترك كل تلك الأشياء مبعثرة على الأرض؟" سألتْ أمي وقتَ الغداء، وكانت تلك الأشياء هي غنائمي المسروقة وقد جلبتها إلى البيت. أخبَرها أبي ما الذي تعرفه على أيّ حال لتعترض هكذا؟ وأن عليها أن تدعو بالشّكر وتصمت.

"إنّ من رحمة الله أنّه ما يزال في أمان، وإنني أدعو الله أن يبقى هكذا،" قالت لأبي.

"وهل يبدو عليه أنّه سيُقدم على أيّ شيء خطير فعلًا؟"

لقد وافق رأيُ لوتيك رأيَ والدي بالقول إنّ تلك حقًّا هي أفضل ميزة أحملها: لم أقم بأيّ أمر خطير. لقد تخصّصنا في التسلل عبر نوافذ المخازن والحمّامات التي يعتقد المرء باستحالة أنّ يمرّ منها شيء حتى القطط. لقد كنت أدفعه ثم أنتظره في آخر الزقاق لسماع صافرته، فإذا كانت الأمور على ما يرام قمت بالتصفير له، ثم يبدأ برمي أي شيء يجده نحوي فآخذه وأذهب لنلتقي في وقت لاحق.

إنّ لديه، بخصوص الأدوات، عينًا فاحصةً لا يتخيّل أحد لولاها أن لتلك الأدوات أيّ استخدام. لقد استلّ سلكًا سميكًا وقصيرًا من مسطّحة شاحنة، اتّضح أنّه مُناسب لإدخاله خلال النوافذ

والأبواب؛ فحالما يدخل تمكّننا صلابته من التقاط لسان القُفل وإخراجه من الحلقة.

لقد وجد شخصًا مناسبًا يمكنه أن يتاجر بكل ما لدينا ويعطينا كل ما نريده. في بعض الأيام كنت أجلب لوالدتي الفحمَ وفي أيام أخرى الطّحين، وأشياء عديدة في أيام أخرى. وذات ليلة أحضرتُ لهم لَوْزًا، لكن لم يهتمّ أحد، فقد أُجبرَت بعض النسوة يومئذ ممّن يرتدين معاطف الفراء على غسل الرصيف بملابسهن الداخليّة ثمّ ارتداء المعاطف مجدّدًا رَطبة، وقد أُجبرت أمّي والجميع على المشاهدة، ولذلك ما زالت ساعتئذ تشعر بالضّيق.

أخبرتُ لوتيك عن الأمر، وأخبرني أنّه عبرَ بيهوديّ مسنّ وقد أجلسه جنودٌ ألمان على برميل وشرعوا يحلقون شعره بينما حوله حشدٌ ضاحك! قال إنهم قصّوا شعره وذاك أقصى ما يمكنهم فعله، وإنه لا يعرف أن يصف كم بدا ذاك اليهوديّ المُسنّ كئيبًا، وأنّ لوتيك عاهد نفسه ألّا يسمح بأن ينتهي به الأمر فوق برميلٍ مُشابه. هكذا بات يقول حين يواجه أيّ أمر صعب "حسنًا، على الأقل لست أقتعد برميلًا."

واحتفالا بكلامنا الكبير الذي تبادلناه وإحساسنا بالنضج، قمنا بسرقة علبتين من أقلام الحبر غالية الثمن من أحد المحال، وخبّأناها تحت قميصينا أثناء انتظارنا عربة التّرام. لقد كانت العربة على بُعد حيّين سكنيّين فقط لكنّها لم تتحرّك مدّة عشر دقائق، حتى إن بعض الرجال راحوا يقفون أمامها ويتحادثون.

تناقشنا ما إذا كان من الأفضل الذهاب إلى المنزل سَيْرًا على الأقدام، لكن حذائي لم يعد ملائمًا، وقد انفجرت بثور قدميّ وأخرجت

سوائلها، لذلك قلت له أن ننتظر.
كانت تجلس بالقرب منّا فتاةٌ سألها لوتيك ما الذي كانت تنظر إليه؟ فسألَته بدورها ما الذي كان هو ينظر إليه؟ "ماذا تسمّون نوع القُبّعة تلك؟" سألته.
قال لها أن تذهب لتفرُك فرجها ببصلة. فقالت له إن البصل أجدى نفعًا منه. ثم قالت إن تلك التي نظنّ أننا نخبّئها هي من نوع لامي، لقد ميّزَت العُلَب.
زرّرْتُ أعلى قميصي بينما لوتيك راح يفرك عينيه. اقترحَت علينا أن نأخذ الأقلام لنبيعها إلى سيكريسكا في ويلانو. قالت حين لم نرد أنّه لا أحد سيشتري منّا تلك الأقلام الباهظة الثمن عداهم.
"دعنا نمضي،" قال لوتيك، ثم وقفتُ. وحين وجدني متردّدًا غادرَ دوني. وقفتُ بجانب الفتاة بضع دقائق. قالت لي "إنّ قُبّعة الأرنب التي يرتديها صديقك لا تُحبّ المغامرات!"
سألتها ماذا تعتقد أنّه قد حدث للتّرام كي يتوقف هكذا؟ فقالت "هذا سؤال جيّد." أخبرتها أن اسمي هارون، فردّت عليّ بأنها لم تسأل عن ذلك! لكنّي سألتها عن اسمها فقالت **زوفيا** ثم التفتت ونظرت في وجهي وصافحتني. سألتها ما المدرسة التي كانت تذهب إليها، فقالت إنّها تقع على شارع الثّالث من مايو. قالت إنها الفتاة اليهودية الوحيدة التي تدرس هناك. قلت لها إنها لا تبدو يهوديّة! فشعرها خفيف وأنفها صغير. فشكرتني، وقالت إنّها كذلك بالفعل.
سألَتْني إن كنت أعرف مانكا ليبيز. فأجبتها نعم. ثم سألت إن كنتُ مَن ماتَ أخوه منذ فترة قريبة، ثمّ ساد الصّمت بيننا بعد سماعها جوابي.
العربة لم تأتِ، فأخذت تحدثني أن لديها أخًا صغيرًا اسمه **ليون**، وأخًا

أكبر اسمه **جيشيل**، وأختًا صغرى اسمها **سالسيا** عمرها عشرة أشهر. قالت إنها عرفت الأقلام لأن والدها يملك قرطاسيّة، يأتونه الناس من كل أنحاء المدينة لجودة الأوراق التي يبيعها. كان مسؤولًا عن إعالة أُسرته، وجدّتهم، و**فتاتَي برايزن** العزباوات، وعمّهم **إيكوفيتش**، و**هانكا ناسيلسكا** مع والدَيها.

في الماضي امتلكت عائلتها كثيرًا من المال، ما مكّنها من دخول ذاك النوع من المدارس الاستباقيّة قبل المدارس الحقيقية، تلك التي يُدفع لها المال. وكان لدى والدها أخت في أمريكا توسّلت إليه أن يهاجر إليها لكنّه أخبرها أنّ عليه أن يبقى حيث يستطيع إدارة قرطاسيّته.

وحينما جاء الألمان ضربوه ضربًا مبرّحًا وحطموا ما حول الشقة كلّها بحثا عن الذهب. وانتهى بهم المطاف أن أخذوا خمسة أمتار من القماش يعود لوالدتها. مع ذلك كانوا أوفَر حظًّا من جيرانهم في الشارع نفسه، فقد طُردوا من بيوتهم وهم الذين اعتادوا طويلًا على النوم في أسِرّة ناعمة. لكن بعد أسبوع من ذلك وقف ضابط مكتب منظّمة الأمن والمراقبة[7] أمام قرطاسيّة والدها وأعجب بها كثيرًا، فطلب منه أن يرتّب البضاعة كاملة لنقلها إلى مسقط رأس الضابط، وقد منح الضابط والدها إيصالا.

كانوا يعيشون في شقة كبيرة على شارع جيلازنا لكنّهم اضطرّوا للانتقال إلى شقة أخرى خلف شارعهم السابق حيث الشوارع غير معبّدة وتحوي من الوحل والطّين ما دفع السكّان إلى وضع جسور خشبية للمشاة عند الأبواب الأمامية. قالت إنها حزينة لمشاهدة والدها يخوض الوحل. وقد بقيت والدتها تبكي ثلاثة أيام، لكن والدها

(7) منظّمة شبه عسكرية كبرى تحت إشراف هتلر والحزب النازي. تحولت إلى أكبر منظمة للأمن والمراقبة خلال الحكم النازي حتى انهيار النظام عام 1945 وتعرف باسم SS – Schutzstaffel.م.

طمأن والدتها أنّهم سينتقلون مرة أخرى في أقرب وقت، وقد أخبرهم أنّه بصدد افتتاح مصنع مكانس، فالألمان شغوفون بها.
قالت إن شقيقها أخبرها أن مشاكل والديهما تمتدّ منذ ما قبل ولادتها، لقد ذهبا مرّتين إلى الحاخام من أجل الطلاق، وذلك لأنّ جدّتهم قد أرغمت أمهم على الارتباط بوالدهم من أجل أن تقول للناس إن ابنتها متزوّجة من رجل متعلّم.
قلت لها إن عليّ الذهاب، فأجابت "لا تجعلني سببًا لبقائك."
رأت أنني تكاسلت ولم أنهض للذّهاب، فقالت إنها فكرّت بينها وبين نفسها أنّه حين انتقال عائلتها قد يتغير كل شيء، حتى هي، وأن الأمور لن تعود سيّئة للغاية. قالت إنّ السّنوات التي لا تتذكرها، تلك التي سبقت سنوات دراستها، قد تكون أسعد مرحلة في حياتها. لم أعرف كيف أرد عليها. وأخيرا وقفَت ثم تمطّت قليلًا وقالت إنها تأخّرت عن المغادرة. ثم انحنت أمامي واضعةً كفّيها على فخذيها وقالت "إذا حملت العُلبةَ تحت حزامك من الخلف فسيغدو من الصّعب اكتشافها."

حالما صار الجو دافئًا بدأ العمل على إصلاح جدران شقّتنا. وقد احتفلت أمي في البدء بخبر قرار المجلس اليهودي[8] بوضع اليهود المرضى تحت الحجر الصحّي. ثم أدركت لاحقًا أننا قد نكون في المنطقة المقرّر حجْرها، فذهبت مع بعض الجيران لتقديم تقرير يفيد بخلوّ بنايتنا من التيفوس[9] لكن ذلك لا يعني شيئًا سوى أنّها أمضت أيّامًا في انتظار التحدث مع المسؤول الذي لن يسمعها ولن يتّخذ أي

(8) المجلس اليهودي لإدارة شؤون اليهود في الأحياء اليهودية في بولندا وأوروبا المحتلّة، يُديرها الألمان خلال الحرب العالمية الثانية، وتسمّى Judenrat. م.

(9) مرض الحمى النمشيّة مرضٌ وبائي معد ينتقل بواسطة قمل البدن وله عدّة أنواع، وينتشر في الأماكن التي تسود فيها الحروب والكوارث. م.

إجراء حيال ذلك.

طوال اليوم نسمع عبر نافذتنا صرير العربات اليدويّة في الخارج وكشط الجواريف وخشخشة الطّوب. بدأت ثم توقّفَت عدّة أيام، وكنا نرى قليلًا من صفوف الطّوب، ثم فجأة ارتفعت وأصبح النظر إلى ما وراءها أمرًا متعذّرًا. وفيما لوتيك كان منتبها في الوقت الحاضر، وجد فرصة أخرى بعد انتهاء العمّال عند طريق مسدود بالقرب من نيسكا، فقد قمنا بسرقة كيسين كبيرين من الإسمنت.

يتجادل أخواي كلّ مساء حول ما يحدث، وكانت لديّ أمور أخرى تدعو للقلق. كلّما سمعنا بوقوع أحداث كبيرة راح جارنا صاحب الراديو يطرق بابنا. هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ تعرضت للغزو. سألتُ لوتيك إن كانت بلجيكا قد تستسلم، فقال إن ذلك لا يهم، فمنذ أن أصبح كل ما يتعلّق بنا سيّئًا فإن ما سيحدث هو أمرٌ سيّئ آخر مهما كان.

لا أحد يريد غسل المفارش أو الأرضيّات بعد الآن، لذا فإن ما أجلبه إلى البيت صار أهمّ ممّا كان في الماضي بكثير.

في مايو غدا الجوّ دافئا فاستأنفنا العمل. افتعلنا أنا ولوتيك مشكلةً فتسلّلت إلى أحد مداخل البنايات وانتظرت. وكنت على وشك تركه والرحيل دونه حين أمسكت زوفيا كُمّي.

أومأت لي برأسها وبقينا واقفين بهدوء حتى عبرَ ابنَا صاحب المتجر: الأوّل يحمل مطرقة والآخر يحمل اثنتين من عصيّ الشُّرطة. كان لوتيك على الجانب الآخر من الشارع وقد يكون رحل منذ مدّة طويلة. صاحب المتجر توقّف عند زاوية جافّة وراح ابناه يبحثان عنّا وراء الأبواب بابًا بابا.

همست زوفيا في أذني "أعتقد أنّه من الأفضل أن تأتي لتناول الغداء عندي." كانت تراقب المدخل معي من خلال زجاج بلّوري وخدُّها قُربَ خدّي. "نحن في الطابق التالي مباشرة، يمكنك تقديم ما سرقتماه توًّا أو أيًّا كان ما تحمل كهديّة زيارة."

والداها مهذّبان وأصفى من العسل. قالت والدتها إن طفلتها نادرة وغالية. قدّموني لأخيها الأكبر جيشيل، طالب في مدرسة دينية يهودية. يبدو أنّه ظنّ أنّي أقف قريبًا جدًّا من أخته. فقال إنّ من يُطيل النّظر إلى النساء يُعلَّق من جفنيه في جهنم! فضحكت زوفيا وقالت إنّ ذلك بسبب صلواته الصباحيّة التي يقول فيها "لتتضاعف أيّامنا[10]" ولأنها غير مُجدية مثل سمكة رخيصة فقد غدت تلك الصّلوات لقب عائلتها. ثم عرّفتني على أخيها الأصغر ليون، الذي بدا مستاءً وليس لديه ما يقوله. فقد تكلّم أخوه عنه كأنه غير موجود في الغرفة قائلًا: لأنّ والديه علّقا عليه آمالًا عريضة، صارَ مغفّلًا حقيقيًّا، وكان قد أعاد صفّ المدرسة مرّتين قبل أن تُغلَق بسبب الحرب، والآن غدا حصوله على شهادة يشبه إرساله سَيْرًا إلى القطب الشمالي.

طهَت والدة زوفيا ما أسمته بالطّبَق الرّسميّ لبلادهم، وهو مزيجٌ من الحنطة السوداء مع البصل المقلي. ناولَته بملعقة صغيرة للطفلة التي تجلس على كرسيّ مرتفع بجانبها. إنّها سالسيا.

أحدهم قرع جرس الباب فأجابت زوفيا وخرجت عند الرّدهة تتحدث بصوت منخفض، ثم عادت إلى طاولة الطعام. عندما سألها والدها حول ذلك قالت إنّه صاحب المتجر، **ليبيل**، يبحث عن لصّ.

سألوني عن عائلتي. ولأنّه ليس لدي ما أقوله بشأنهم، رحت أتحدث

(10) Let our days be multiplied.

عن لوتيك. قلت لهم إنّه يحبّ تسلّق أعمدة الكهرباء كي ينظر إلى الناس في الأسفل. وأخبرتهم أنه في عربات التّرام المكتظّة يحبّ أن يسرد تفاصيل كل ما يحدث بين الذّكر والأنثى. ارتعب أخو زوفيا من ذلك بينما وجده والدها مسليًّا. سألَت إن كان لوتيك قد صادق فتاةً يوما ما، فأخبرتُها أنه كانت هناك فتاة أُعجبَ بها وقد بقي مدّة شهر كامل ينتظرها كل مساء عند البوابة حاملًا لها رسالة يعبّر فيها عن مشاعره، لكنّها كلّما تخرج يصيبه الخوف ويفرّ بعيدًا.

تحدّث والدها عن مصنع المكانس ومن أين جاء برأس المال. وتحدّث عن جَدّ زوفيا الذي لم يسمع كلمة طيّبة واحدة من أيّ شخص حوله، وأنّه حينما كان في العاشرة من عمره كان يُرسَل بعيدًا كل مساء لتناول العشاء في بيت مختلف من بيوت العائلة، وعندما أنجب والده أطفالًا بات يفضّل تقليل طعامهم على العمل بجدّ أكثر لتوفير ما يكفيهم. قال إن زوفيا ورثت كثيرًا من طِباع جدّها. فقالت زوفيا نعم، أوافقك، وهي تتّخذ من مسألة "أن تكره الجميع " قاعدةً لها. أخبرنا كيف اضطُرّ إلى رميها خارج القرطاسية حين كانت في السادسة من عمرها، فقد أخبرت أحد اكبر زبائن المحلّ أنّ السّعر الذي طرحه لشراء البضاعة أعلى بكثير من تكلفتها الحقيقيّة.

سالسيا لم يعجبها الطبق الذي طهته والدتها. راحت الأمّ تنظّف بقايا الطعام عن وجهها بكشطه بالملعقة، ثمّ تعرضه عليها مرّة أخرى. سألتني إن كان لوتيك رغم كل ما وصفتُه به ولدًا طيّبًا؟ فقلت نعم، وقالت زوفيا لا. فضحك والدها بينما والدتها كشّرت بوجهها. لم يكن أحدهم ينظر إلى وجه الآخر، لكنّهم بدوا أُسرة واحدة رغم ذلك.

ساد الصّمت، وراح جيشيل ينظر إليّ وكأنّي لم أنتبه لأمرٍ ما يجب عليّ

القيام به. ذكرَ والد زوفيا لي خطرَ التجوّل، وشكرتني والدتها مجدّدًا على جرّة العسل التي أهديتها لهم رغم أنّها لم تقدّم لي منه شيئًا.
أشارت لي زوفيا ناحية الباب، ولم أعرف ما تعنيه نظرتها حينئذ، فخرجتُ. أغلقَت ورائي الباب وتركتني في الردهة. قلت لنفسي بينما أنزل الدّرج أنّه لا شيء خاطئ في أن يكون لي أصدقاء، لكن يهمني ألّا أتدخّل في شأنٍ من شؤونهم إذا لم أكن راغبًا في ذلك.

• • •

كان جميع أفراد عائلتي مهتمّين بأخبار قتال الألمان في فرنسا، ثم أصيبوا بخيبة أمل نتيجة خبر سيطرة الألمان على باريس. قال أخي إنّهم تمكّنوا من ذلك لأنّهم –أي الألمان– يمتلكون طائرة تتحوّل إلى صهريج عندما تحطّ في ميدان المعركة. وقال أخي الآخر إنّهم نجحوا بسبب امتلاكهم شيئًا يُدعى القذائف الهوائيّة الثقيلة، كما يحيط بمظلاتهم الهوائية درعٌ لا يمكن للرصاص اختراقه. قالت أمي إنّ بعض الناس يعتقد بذلك والبعض الآخر يعتقد بأمور أخرى، لكن دائمًا لا يحدث إلا ما هو مقدّر. قال أبي إنّه بطريقة أو بأخرى سمع نكتة في مصنع ابن عمه تُفيد بوصول آلاف المطارق من أمريكا لسحق أحلام الخلاص من رؤوسنا!
حين انتهينا، كان الجدار بطول ثلاثة أمتار مع مترٍ إضافيّ من الأسلاك الشائكة أعلاه. ما زلت أساعد أمّي في أعمالها المنزليّة. وكانت كلّ صباح تخرج لتنظر إلى الجدار. وأسألها إن كانت تأمل أن تراه قد تهاوى إلى الأرض. لقد قاموا ببناء جسرٍ خشبيّ عبر شارع

شودنا قُربَ كنيسة مار كارول لربط الحيّين اليهوديّين اللذَين يفصل بينهما الشارع وخطّ عربات التّرام. وعند أبعد نقطة في أسفل الشارع أُغلقَت بوّابة طريق جيلازنا وتوقفت حركة المرور، فقط عربة التّرام هي ما يمكنه العبور منها.

انتشر التيفوس هناك في المبنى المقابل عبر الشارع، فتُركت حزم النفايات على الرصيف عند المدخل الأمامي لأن الحمّالين يرفضون أخذها من الداخل.

أمي وأبي تجادلا حول ما أفعله. قال أبي إن وجود فردٍ يُنجز أمورنا بطريقة أو بأخرى في مثل هذا الوقت ليس أمرًا سيئا، فقالت أمي إنّ هناك فردًا أكبر يجُرّ فردنا الصّغير إلى المشنقة! قال إنّها لم تعترض حين تجد حساءً ساخنا أمام عينيها، فقالت إنّي سأعود يومًا إليهم إمّا مقتولًا أو حاملًا التيفوس إلى البيت.

كانت كلّ صباح تفتش ملابسي بحثًا عن القمل، وتقوم بصبّ الكيروسين والماء على رأسي تحت المغسلة، وتفرك رقبتي ووراء أذنيّ بقطعة قماش مبلّلة بالكيروسين إيّاه، ثم تحكّ فروة رأسي بها وكأن شعري هو المشكلة. ذكّرتني أنّها تظن أننا شركاء في العمل، فأخبرتها أن ذلك لم يتغيّر. "إذن أين شريكي؟" أرادت أن تعرف، قلت لها إن شريكها قد ذهب في عمله الخاصّ.

ثم شطفت وجففت شعري بالفوطة، وأعطتني حقيبتي. لاحقًا شعرت بالذنب، فقلت لها إننا سنعمل سويًّا طوال الغد. لكنّها أخبرتني أنّها تعلّمَت ألا تتعلّق بأيّ شيء. سألتني إن كنتُ أفتقد أخي الصغير، وقالت إنها لو لم تكن أنانيّة مُحبّة لنفسها أوّلًا لما عاشت أيضًا. لقد أعدتُ ما قلته من أننا سنقضي اليوم التالي كاملا سويًّا، فقالت إننا

بعد يوم من ذلك قد نزور أرض الميعاد [11] حيث يأكل الجميع التين والعسل والسمك وحساء المعكرونة.

عُلّقَت إشعارات على جميع بوّابات الحيّ اليهودي تُحذّر من خطر الوباء. توقّفت أمي وأبي عن زيارة الجيران الواقعين وراء الجدران. وطلبوا منّي الشيء نفسه. قلت لهم سأفعل لكنّي توجّهت إلى حيثما أردتُ متى أردت. قالت أمي إن سبعةً في شارعنا تُوفّوا من المرض، من ضمنهم سيد ليدرمان والتوأم جلوبيس، وقالت إنّه كان ينبغي أن نبني جدرانًا حول جميع المرضى حتى يموتوا. قال أخي إنه سمع أنّ اليهود جميعهم بعد هُدنة السلام سيتمّ إرسالهم إلى مدغشقر. فسألت أمي ماذا عسانا أن نفعل في مدغشقر؟ فرد عليها أبي "دعينا نصل إلى هناك أوّلًا ثم نعرف ماذا سنفعل."

بعد أسبوع سمعت أمي من امرأة تبيع الصابون أنّ اليهود سيُطرَدون من الشوارع عبر ساحة أويازدوفسكي وحتى المنطقة المجاورة لفستولا. فتساءل أبي لماذا علينا أن نصدّق تلك المرأة؟ فذكّرته أمي أنّها زوجة أخ ترنياكوف. وبعد يومين قرأ علينا أبي الخبر نفسه الذي قالته أمّي من الصّحيفة بصوت مرتفع وكأنّنا كنّا نجادله حوله. على اليهود في الأحياء الألمانيّة التحرّك على الفور، وفي الوقت الراهن يمكن لليهود في المنطقة البولنديّة البقاء بعض الوقت. وعلى اليهود الجدد الذين وصلوا المدينة مؤخّرًا التوجّه إلى المنطقة المسوّرة لليهود.

"أريد أن أعرف أين سيضعون الجميع" سألَ أخي.

"أعتقد أنّهم سيدعونا نحل تلك المشكلة بأنفسنا" قال أبي.

أخبرني لوتيك في اليوم التالي أن والده وبقيّة الحمّالين أخبروهم أنّه

(11) Promised Land.

سيكون ممنوعًا عليهم قريبًا تأجير الآريّين العربات، وأن المسيحيّين بدؤوا بالتفاوض مع يهود النواحي الأخرى من المنطقة بشأن تبادل شققهم. فقلت "وإذن؟" فردّ لوتيك "كم أنت أحمق!" قال إن ذلك يعني أنّنا سنحظى بيومٍ مفتوح من الحُريّة تزدحم فيه حركة العربات والمراكب ذهابًا وإيابًا طوال الوقت. وقد كان محقًّا. التصريحات بدأت تظهر في الصحف وأبي ما زال يقرؤها للعائلة، مردّدًا دومًا في المقام الأوّل أن الأمور ستؤول إلى الأسوأ. حملَ كلّ إعلان أسماء الشوارع التي لابدّ أن تُطَهّر من اليهود. وتوجد في الصّحيفة إعلانات عن الشّقق المملوكة للآريّين داخل الجدران والتي يُريدون استبدالها بشقق اليهود الواقعة خارج الجدران. وأخيرًا في أكتوبر، أُمهلَ اليهود أسبوعين لمغادرة الأحياء خارج الجدران والانتقال إلى الداخل. وأعلنَ أيضًا أن المساحة داخل الجدران قد اقتُصّ منها ستّة شوارع، ما يعني أن الذين تبادلوا الشقق في تلك الشوارع عليهم استبدالها بشقق تقع داخل الجدران مرّة أخرى. قالوا إن ذلك ضروري لحماية صحّة وعافية الجنود والسكّان بشكل عام.

كانت النتيجة قيام أسوأ بازار على مرّ العصور، بالتزامن مع عمليّات إخلاء للمساكن. ننظر في كل طريق ولا نرى سوى بحر من الرؤوس، ولا نسمع سوى آهات مضطربة وصراخ. قضينا أنا ولوتيك معظم الوقت عند بوّابة شارع ليشنو. اليهود كانوا يسحبون عربات يد بحمولات زائدة، ومركبات أيضًا، وفي الوقت نفسه كان البولنديّون يحاولون نقل حمولات ثقيلة أيضًا إلى الخارج. كان الجدل يدور حول مَن يمكنه السّير ومن ينتظر، ممّا يعني البقاء ساعات طويلة قبل التمكّن من العبور إلى أيّ مكان! وتسبّبت الاصطدامات بتساقط

الكراسي والطاولات والمواقد والمقالي على الحصى. وهكذا فإن نصف حمولة أُسرةٍ ما قد تُسرَق قبل أن يتمكّن أفرادها من رفع النصف الآخر عن الأرض. استغلّ لوتيك وأنا الوضع وعبرنا الحشود حتى مقدّمة العربات، وأخذنا كل ما استطعنا أخذه. أحيانا يرانا بعض الأطفال أو كبار السن ويهتفون ناحية من هُم في الأمام، وخلال الضجيج لا يتمكن الآباء والأولاد الكبار من الوصول إلينا في الوقت المناسب. أنا حصلت على إطارٍ للسّاعة، وحصل لوتيك على سجاد شرقي سحبه بالكامل. الشرطة الألمانية والبولندية تجاهلت عربات اليد البولنديّة، لكن اختطفوا أي شيء يريدونه من العربات اليهودية. وإذا ما اشتكى أحد من اليهود انقلبوا عليه.

بقيَ أصحاب عربات اليد، والذين لم يجدوا شققًا في الشوارع الضيّقة، ينتقلون من بيت إلى آخر هاتفين عند النوافذ إن كانت توجد غُرَف شاغرة. كل واحد لديه عربة تحمل ما يحبّ، وكل واحد صار حمّالًا. ولذا فوالد لوتيك والبقيّة أرادوا جمع المال من خلال الاستيلاء على الأرصفة أمام المباني. جاءت الناس محمّلة بمرتبات من الريش وسلال غسيل وضعوها أمام بناياتهم، لكن الحمّالين رموا بها عند الأسوار في فناء البنايات، وعلى العائلات أن يدفعوا كي يستعيدوا أشياءهم! في كل شارع كان الأطفال يُفَقدون ويبكون ويُسحلون. كل شيء جمعناه أنا ولوتيك وضعناه في مخزن بناية والده جنبًا إلى جنب مع ما جمعه والده.

قبل يوم على انتهاء مُهلة الأسبوعين، انفصلنا أنا ولوتيك. لقد ضُرِبتُ ورُميتُ على الرّصيف في منتصف محاولةٍ لي لسرقة عربة. زحفتُ إلى أقرب مدخل بناية محاولًا استعادة أنفاسي. حاول طفل سحب

حقيبتي الجلدية بينما كنت أزحف فرفستُه ورميته بعيدًا. فقدتُ توازني في المشي مرّة أخرى، وكنت على وشك أن أستند بيدي على أحد ضبّاط مكتب منظّمة الأمن والمراقبة. هو وثلاثة من رجاله كانوا يتتبعون شرطيًّا بولنديًّا تناثرت أوراق حقيبته على الأرض. كان الشرطيّ على الرصيف يصرخ في الحشود أن يتجاوزوه ليُفسحوا له مساحة ما، وكلّما جلس القرفصاء تنزلق الحقيبة عن كتفه ويتناثر مزيد من الورق. ضحك ضابط منظّمة الأمن والمراقبة ورجاله جرّاء ما يرونه. ورغم ذلك رأيت أنهم يخشونه. حدود شعر قفاه تحت القبّعة كان مرتفعًا عن رقبته، وأوحت لحيته الخفيفة بالخطر.

ما زالت ركبتاي تؤلماني جرّاء سقوطي. كنت أضع يدَيّ عليهما. فقام الضابط بوضع يديه مثلي على ركبتيه. لاحظ رجاله ذلك فابتسموا، وحدّق الضابط في وجهي كما لو أنه قال أمرًا مُضحكا، ثم اعتدل وأومأ إلى رجاله فغادروا، ثم التفت أحدهم إلى الوراء غامزًا لي قبل أن يلتقمهم الزحام.

في اليوم الأخير وضعنا أنا ولوتيك أعيننا على مركبة مليئة بأقفاص عصافير مذهّبة، وطقم سكاكين على نمط إشراقة الشّمس، وُضعت كلّها في صندوق مفتوح، فتبعنا المركبة حتى اضطررنا إلى التخلّي عنها بسبب الزحام. أصاب لوتيك الجنون فتسلّق عمود إنارة للبحث عن فُرَص أخرى بينما بقيت أنا معلّقًا تحته. ثم سمعنا جعجعة أبواق سيّارات وقرع مقالٍ، ورأينا بوّابة المبنى المقابل لنا مفتوحة واثنان من عمّال النظافة القدماء تمكنوا من صدّ جزء من الغوغاء على الرصيف، والأطفال الذين يحملون مقاليَ وسِندانات وملاعق خشبية قد انتظموا في الشارع في صفّ واحد. صبيّ في الوسط أمسك بعصا

عليها علم أخضر برّاق، والنجمة اليهودية وسط خصره. مزيد من الصّفوف انتظمَت قُربه من وراء الظلام، وأطفال من جميع الأعمار يضمّون ألعابًا وكُتُبًا إلى صدورهم ويغنون.

"ما هذا؟" قال لوتيك. لم نكن نسمع ما يغنّيه الأطفال لكنّهم ما زالوا يتوافدون. عشرون صفًّا على الأقل، تليهم عربات مكدّسة عاليًا من سلال الخوص والحبال والأواني الحديدية وألواح الزّهر المطحون وجذوع مشدودة بالحبال وصناديق كتب ومغارف ومصافٍ، ثم عربةٌ عليها رابيةٌ من الفحم وأخرى من البطاطا.

تصارع الأطفال والكبار عند عربتَي الفحم والبطاطا حتى تناثرت على الحصى عندما أدركت العربات الشارع. وعلى نوافذ العربات من الجانبين ظهرَت على الصناديق شِعارُ زهرة إبرة الرّاعي الحمراء وتحتها لافتات مزيّنة، بينما سائقو العربات كانوا يرتدون أقنعة مصنوعة محليًّا من ريش الطيور كبيرها وصغيرها. تدافعنا بالقرب منهم وسمعنا أحدهم يقول إنّ على **أيتام كورتشاك** أن يتحرّكوا. وكان هو، مرّة ثانية، بصلعته ولحيته الشّقراء، وكان آخر واحد خرج بعد إغلاق بوّابة الفناء. كان يسحب امرأة ثقيلة طوال الطريق بذراعيه ويكافح لإركابها آخر عربة. كانت طويلة بما يقارب طوله وبدت أكثر خَشية من الزحام.

لقد دُفعوا ناحية طريقنا، وبعد مُدّة أصبحنا ضمنهم. كنت أتساءل إن كان سيعرفني، لكنه لم يميّزني. إنّ صراخهما على بعضهما، هو والمرأة السمينة، كان مسموعًا. سألَته المرأة كم من الوقت يظن أنه يستطيع البقاء دون نوم؟ فرد عليها إنّه حين كان شابًّا يافعًا كانت والدته تأتيه بعد الظهيرة لتجرّه من قدميه خارج السرير! "سألتني إن كان ذلك هو

كلّ ما أبذله كي أصبح طبيبًا؟" وأكمل صياحه " بالبقاء خارج المنزل طوال الليل؟ فقلت لها "طبيبًا؟" ظننتُ أنّي أدرس كي أغدو ثريًّا!"
ثم تبعناهم إلى بوّابة الغيتو[12] الصّغيرعند شودنا، حيث الشُّرطة الألمانيّة والبولنديّة يدققون الهويّة. كل عربات دار الأيتام عبرت عدا صاحب البطاطا، الذي بقي جالسًا بجانب كُشك الحارس. وضع السائق يديه على وركيه وظل يراقب رجُلين من الشرطة البولندية يفكّان حصانه عن العربة. سحب قناع الطيور إلى أسفل فعلِقَ تحت ذقنه، وراحت ريشةٌ ترفرف بجانب أذنه.
"ما الذي يحدث؟" سأل كورتشاك الشرطيّ البولندي الذي أمامنا. "لماذا لم تعبُر عربتي؟"
"إنها ليست عربتك،" قال له أحد الشرطة الألمان. "إنها عربتي!"
راحا يتجادلان حول الأمر بالألمانيّة. خافت المرأة السمينة وحاولت أن تسحب كورتشاك ليدخل إلى البوابة لكنّه أبعد ذراعها عنه، وصرخ في الشرطيّ البولنديّ بشيء قاله من قبل للشرطيّ الألمانيّ، أنّ الألمانيّ إذا لم يُفرِج عن عربة البطاطا فسوف يبعث إلى رؤسائه تقريرًا بالسّرقة. هكذا اختفى تعبير الملل البارد عن وجه الألمانيّ وقال بالبولنديّة "هل تحاول أن تخيفني أيها اليهودي؟" فجَرّني لوتيك بعيدًا من ياقة قميصي بقوّةٍ مزّقَته.
"هل أنتما معه؟" سألَنا شرطيّ بولنديّ وهو يتقدّم نحونا. ثمّ أشار بعصاه ناحية كورتشاك "هل هو سكران؟" فقلت له "لستُ أعرف ما هو عليه،" ثم سحب لوتيك قميصي مرّة أخرى، وتجاوزتنا امرأة جامحة تحمل قفصَ دجاجٍ فنقرت بكتفها كتفَ الشرطيّ وأطاحته. ضربها مرّة، ثمّ أُخرى، فصاح لوتيك في أذني "ماذا تظنّ أنّك ترى؟

(12) حارة اليهود.

عرضًا مسرحيًّا؟" وجذبني بقوّة أسقطتني على ركبتيّ، ثم أوقفني على قدميّ وسحبني إلى الشّارع.

تكوّمت الأُسَر في ردهات الأبنية، وتقاتل أفرادها للحصول على مكان في الأرصفة. احتلّت إحداها مساحة بيت الدرج العُلويّ بالقُرب من سطح بنايتنا، وأخذ أفرادها ينشرون ملابسهم وملاءاتهم على حِبال الغسيل. لم يقل أحد إن الغيتو قد أوصد علينا، وإن أسواق المُتاجَرة خارج الأسوار باتت ممنوعة علينا قانونيًّا. ثمّة طوابير طويلة أمام محلات بيع المواد الغذائية، رغم نفاد الطعام. وعائلتنا بالطبع لم تكن مستعدة لمثل ذاك الحال، ولم تدّخر مالًا. انتقلت عائلتان للعيش مع جيراننا في آخر الرّدهة. وقالت أمي إنها مسألة وقت قبل أن تنتقل عائلة لتعيش معنا أيضًا. وحين تذمّرت أمّي من الأمر، ذكرّها أبي أنّ المسيحيّ الذي كان يملك البناية كلّها عاش فيها سبعة وثلاثين عامًا ثم اضطرّ إلى تركها مع أثاثه كاملًا وراء ظهره. كان أبي يُلهي نفسه ويمتّعها بقراءة قوائم الإصابات الألمانية في الصّحيفة. لقد أسماها زاويته السّعيدة! لقد دفع عشرة قروش إضافيّة ليشتري صحيفة ألمانية أُخرى تعرض صور المدن الألمانية بعد قصف قوات التحالف.

سمعنا أنّ الغيتو الصّغير في آخر شارع شودنا قد اجتذب اليهود

الأغنياء نسبيًّا، ولا يعاني من الازدحام. قال لنا جارنا إن الشقّة في آخر الردهة تضمّ كل غرفة فيها تسعة أشخاص. أمّا الأسرة التي سكنت بيت الدرج قُرب السّطح، فقد جلبوا أقاربهم معهم، وراحوا يعملون في مقايضة الملابس القديمة والسّكاكر على الرصيف أمام البناية. وكانوا في منتصف الليل يصرخون ويتعاركون. وكان علينا في الصباح أن نخطو فوقهم كي نتمكّن من نزول الدرج.

تعارك والداي أيضًا. قالت أمّي إنّنا نعيش كالمنبوذين في هذه الشقّة القذرة، فردّ أبي إنّه إذا لم يكن لدينا مال للخبز فليس لدينا مال للصابون. فأردفت إنّه حين نُصاب بالتيفوس لن نحتاج المال للصابون. فقال أبي إنّه حين يُصاب بالتيفوس لن يستطيع أبدًا سماع شكواها مرة أخرى! قال لهما أخي الأكبر إنّه لا يعتقد أن أيّ اثنين متزوجين يتشاجران كما يفعلان.

في بعض الأحيان إذا اشتدّ الخصام بينهما تستلقي أمي بجواري باكية. أضع يدي على رأسها وأقول لنفسي إنّه لا يهمني ما يحدث بينهما لأنني سأذهب حيثما أريد وأفعل ما أريد.

لكن لم أستطع النّوم بسبب القمل. وأخيرًا غلَت أمّي سُترتي بالماء فقد كانت موبوءة بشيء كُنّا نراه يتحرك، لكنّه نجا من الغليان. ولم يكن من حلّ سوى أن نكويه. وقد ترك بعد ذوبانه تحت الحديد السّاخن بقعًا رماديّة على السّترة، وقد اختفت بعضَ الوقت فقط، فكلّما تطهّرنا منها عادت عدواها من كل شيء حولنا. حول حزامي كان الأمر سيّئًا للغاية، ولذا بدوتُ وكأنّني دومًا أحاول تعديل سروالي. استيقظت صباحًا وأنا أشعر بالحكّة، فمرّرت أصبعي على فروة رأسي ورميت ما علق به على حديد الفرن السّاخن كي أتمكن من رؤية

تلك الأشياء تئزّ!

ركبتُ التّرام بينما ما زلت أهرش رأسي. وطلب مني شرطيّ بولنديّ أن أعطيه معطفي. إنه أصغر من أن يناسبه، وأريته مرفقَي المعطف كم يبدوان مُهترئين، فقال "هاته على أيّة حال." قلت له بالتأكيد، وأضفت أنّي خرجتُ توًّا من المستشفى إثر شفائي من التيفوس. ثمّ مرّرت أصابعي خلال شعري ومسحت القملَ على كُمّي وخطوت مقتربًا منه، فابتعد إلى الجزء الخلفيّ من العربة، ثم نزل في المحطّة التالية.

عاد أبي إلى البيت قادمًا من مصنع النّسيج وهو يحمل أخبارًا سارّة حسب قوله. قال إنّ ابن عمّه حوّل جزءً من المصنع إلى مهجع للّاجئين القادرين على الدفع، وأنّه لذلك سرّحَ بعض العمّال ولم يكن أبي من بينهم. كان أبي قلقًا حيال ذلك لأنّه وابنَ عمّه لم يتمكنا من الانسجام معًا. ومن أجل أن يحتفل، جلب معه بعض الرّغيف والبصل ومربّى البرتقال، وهو طعام لم نره منذ بدأ التّقنين. التهم أخواي كل شيء قبل عودتي. كان لدينا بقيّة من الخبز والبصل، والسّجق الذي صنعته أمي من أمعاء عجل مع بعض التوابل الموسميّة. لم يعد أبي يقرأ الصحف. وثمّة شاحنة ألمانية تعبر شارعنا دومًا حاملةً مكبّرات صوت وتصدح برسالة لا تغيّرها، بالبولنديّة، فحواها أنّ "الغيتو اليهوديّ" مصطلحٌ يُمنع استخدامه، فالمصطلح الصّحيح هو "الحيّ اليهودي." يسأل أبي والدتي "كيف ترين الحال هنا في الحيّ اليهودي؟" فتُجيبه "أجده خانقًا."

رتّب لوتيك وسيلة خروجه من الغيتو حتى قبل أن يُقفل علينا تمامًا.

ففي صباح شديد المطر دفع الجميع للبقاء تحت أسقفهم، في أسفل الزّقاق بالقرب من شارع بشيّازد، أراني لوتيك أحدَ ملّاك الشقق وهو يبني سقيفةً شبيهةً بقنّ الدجاج مُحاطة بشبك ومخشّبة إلى جدار الغيتو، يحفظ فيها براميل القمامة كي يمنع الناس من سرقتها. وداخل السّقيفة، وراء البراميل، كان لوتيك قد حفر ممرًّا بوصفه بداية لصرف صحّي للمياه. رائحته خانقة. وحين رأيته أوّل مرّة لم أظن أنّي سأعبُر خلاله أبدًا. كان عليّ العودة إلى الخلف والدّفع بكعبيّ والضّغط بكتفٍ واحدة في آن. سألته لماذا لم تجعلها أكبر؟ فقال إنها احتاجت عملًا كثيرًا وأنّها كلّما ضاقَت باتت سهلة الإخفاء، وأحبّ أن نكون نحن فقط من يصلح للعبور خلالها. السّقيفة محصّنة بحيث حين نكون في الدّاخل لا يرانا أحد، وقد ثبّتَ لوتيك قطعةً من الصّفيح فوق الفجوة، ولذا حتى لو كان أحد في السّقيفة فليس بالضرورة أن يرانا أيضًا. سألته متى سينتهي من ذلك فقال بعد انتهاء حظر التجوّل. فقلت إنه أمر رائع، فقال نعم هو كذلك. فقلت له أنت من قمت بكل ذلك العمل؟ فوافقني وقال إنّه تقديرًا لذلك ستكون قسمتنا سبعين بالمئة لثلاثين.

هكذا، لبضع أسابيع، حقّقنا بعض الإنجازات. عقدَ لوتيك اتّفاقًا مع أولادٍ بولنديّين يشكّلون عصابة في شارع ووتسكا خارج الأسوار، حيث أنّهم يتدبّرون أمر إبعاد الوُشاة المبتزّين لقاءَ خمسة زيلوتي[13] لكلّ حمولة يهرّبونها إلى الدّاخل. أصدقاء والده جلبوا لنا أيضًا ما نقايض به على الجانب الآخر، وأخذنا معنا المفارش والفضيّات والمقالي والأواني وكلّ ما يمكنه المرور من الفتحة، وجلبنا معنا إلى الدّاخل الطّحين

(13) عُملة بولنديّة.

والبطاطا والحليب والزبدة والبصل واللحم. جرّ لوتيك عشرين كيلوغرامًا من البطاطا والبصل دفعة واحدة. أحيانًا، في الجهة الأخرى من الجدار، نقابل صبيانًا نعرفهم من الدّاخل، يُجيدون المساومات وملء أكياسهم. الأطفال الصّغار منهم كانوا يقفزون على الجدار ويمكثون هناك مثل السناجب. وحين يظهر الشُّرطة، يختفي الجميع في حُفَرهم.

سمعَت العصابات الأخرى عن أمر منفذنا فراحوا يستعملونه. وعندما حاولنا إيقافهم قاموا بضربنا، وعندما واجهناهم حاملين أنابيب معدنيّة تكاثروا علينا وغلبونا. وحينما احتلوا المكان أحدثوا ضجة كبيرة في دخولهم المنفذ تسبّبت في وقوع أحد الأطفال في قبضة شرطة اليهود، الذين سلّموه بدورهم إلى شرطيّ ألمانيّ أطلق عليه الرصاص في وجهه. وقد رأيناه فيما بعد، بينما كان ما يزال ملقى على الشارع، خده مشقوق وظهره على مجرى تصريف مياه. لم أشأ النظر إليه، لكن لوتيك وقف فوقه ويداه على وركيه ينظر إليه وكأنّ قتله كانت فكرته. سُدّت حفرتنا بالإسمنت. قال لوتيك إنّه عملَ كل ليلة مُدّة ثلاثة أسابيع كي يحفرها.

في البداية شعرنا بالإحباط. ثم قال لوتيك إنّ علينا معاودة العمل لكن بالطريقة الأصعب. وذكرَ أنّ أحد أصدقاء أبيه انضمّ إلى شُرطة اليهود وأصبح يعمل الآن في بوّابة شارع ليشنو. قمنا بمراقبته يومًا أو يومين. كانت القوى العسكريّة الثلاثة تقف في أماكن الحراسة، الألمان والبولنديّون في جهة، واليهود في الجهة الأخرى. كنّا نسمّي اليهود الشرطة الصفراء بسبب أطواق الذراع التي كانوا يرتدونها،

بينما سمّينا البولنديّين بالشرطة الزرقاء والألمان بالشرطة الخضراء بسبب زيّهم العسكري. كان لوتيك يقول إنّ اليهود تُراقبهم الشُّرطة الصفراء، بينما الشُّرطة الصفراء تراقبها الشرطة الزرقاء التي تُراقبها بدورها الشّرطة الخضراء، والأخيرة تراقبها الجستابو[14]. وأين هم الجستابو؟ أردتُ أن أعرف. فقال "آها!" كما لو أني قلتُ شيئاً يدل على الذكاء. كان الجميع يستعينون بالجميع لترجمة كلامهم للجنود أو أمور العمل للمرور عبر البوابات، وأثناء إحدى المناوبات عقدت الشّرطة الخضراء والزرقاء صفقة عمل مع أحد أصدقاء والد لوتيك. "إذن هي مسألة رِضى جميع الأطراف بحصولهم على ما يناسب ذوقهم،" قال لوتيك. الشّرطة الصفراء تأخذ خمسة زيلوتي عن البرميل، والزرقاء عشرة، بينما الخضراء عشرين زلوتي. أفضل وقت للمرور هو عندما ينشغل الحرّاس بتفتيش المركبات المزدحمة. كان علينا فقط الوقوف حيث نستطيع رؤية كل شيء ونتعلم الانتظار والانتظار والانتظار. وحين يكون التبادل آمناً، يُشير صاحبنا هناك إلى الجنديّ الأزرق بالدخول داخل البوابة، وعندها يمكننا الانطلاق. والدُ لوتيك أطلعَ ابنَه على طريقة جديدة للتعامل مع المبتزّين: وهي أنّه، عندما يحيطون به في الجانب الآخر من السّور، فعليه بمُناداة الجنود الزّرق وإخبارهم أنهم يتعرّضون إلى السّرقة وأنهم محتاجون إلى قدوم جميع الجنود في المحطة لتقديم المساعدة، وقد كانت هذه بمثابة شفرة/إشارة كي يقوم الجنود الزرق باعتقالنا فيهرب المبتزّون. ثمّ، في المحطّة، نُعطي الجنود الزرق حصّتهم مُقابل أن يتركونا نذهب عندما تكون المنطقة آمنة.

(14) البوليس السّري الألماني، أكثر أجهزة الأمن الألمانية شهرة وسريّة، تأسّس لحماية الدولة الألمانية والحزب النازي. م.

بعد ذلك بأسبوع، كنّا ننتظر دورنا في العبور حين مرّت زوفيا وبرفقتها فتاة أخرى ذات شعر أسود مجعّد ومعهما سلّتان فيهما بعض الحاجيّات.

أنزلتا سلّتَيهما على الأرض وهما تتحدثان وتضحكان، والفتاة الأخرى تهز شعرها كما لو كانت قد خلعت قُبّعة للتو. سحبتا الأربطة ورفعتا سلّتيهما من جديد وسارتا بمحاذاة مراكز الحراسة الثلاثة وخرجتا من الحيّ اليهودي. حتى إن الجندي الأخضر قال لهما مرحبًا أثناء عبورهما. وبالمقابل لوّحت زوفيا بيدها وتمتمت بشيء يبدو أنّه أعجب الجندي.

وفي اليوم التالي زرنا زوفيا في شقتها وعرضنا عليها الانضمام إلى مجموعتنا. سألت زوفيا: أي مجموعة؟ وبدت أنها غير مكترثة حينما أخبرتها بما نفعله.

كان اسم الفتاة الجديدة **أدينا**، وهي من بارانواسزي، وبإمكانك التنبُّؤ أنها من الشّرق من طريقة كلامها التي تشبه الغناء. قالت إنها تكبرنا بسنة، وهي شاحبة اللون، نحيفة وذات عينين سوداوين حزينتين. ولم تكن تحب التحدّث، فهي سريعة الغضب حين يُطرح عليها أي سؤال. قالت إنها عادت في أحد الأيام إلى البيت متأخرة بعدما أوصلت الخيّاطة، فوجدت أن الألمان اصطحبوا أبناء عمومتها في شاحنة إلى خارج المدينة وأجبروهم على رمي أنفسهم في نار مشتعلة. وأطلقوا النار على الذين لم يقفزوا. ابن عمها الهارب إلى الغابة هو الذي أخبرها بما حدث. وبعد ذلك اقتادوا عائلتهم بأكملها ناحية الغرب مع عائلات أخرى من ثلاث قرى، وأولئك الذين لم يستطيعوا اصطحابهم أطلقوا عليهم النار مثل البط، ثم حملوا

البقية في شاحنات وقادوهم إلى وارسو. قالت إنها كانت ستجلب أفضل ملابسها لكن والدتها لم تتمكن سوى من جلب وعاء خزفي محمّل بثلاث زجاجات من زيت الطهي.

بقي لوتيك يسألها عن جزئية النار في القصّة مرارًا حتى قالت له زوفيا إنّه إذا لم يكفّ عن السؤال فسوف تلقيه في النار بنفسها. لذا سألت عن الزيت بدلا من ذلك. قالت لي أدينا: "ما الذي تشعر به؟" بينما تعلو وجهها تكشيرة، فقال لوتيك: "إنه واقع في الحب!" فردّت عليه: "إنه يقلقني." فسألتها مجدّدًا: "ما الذي يدفع والدتك لتحفظ كل ذاك الزيت؟"

وأكملت قائلة إنّ والديها امتلكا متجرًا لبيع الزيت الذي ينتجانه هناك، وكانا فخورين به. توفي والدي قبل الحرب فانحدرت مبيعات المحلّ حتى قبل وصول الألمان. شعرت والدتها بالمرارة على ما حلّ به، وكلّما طلب منها أيّ شخص الحصول على دَينٍ أو قرض، كانت تقول دائمًا: "بالتأكيد، من الأفضل أن يكون المسمار مدسوسًا بين شراشف أحد غيرك!" فقال لوتيك إن هذه العبارة تصلح كشعار لمجموعتنا، وقالت زوفيا: "مرّة أخرى، ما الذي جعله يعتقد أننا في طريقنا للعمل معًا كمجموعة؟" فردّت أدينا: "ربما نفعل شيئا كذلك."

وأكملت أدينا أنها حين كانت في المنزل احتاجت دائمًا إلى القيام بشيء ما، لكنّها هنا تخرج إلى الشارع في أي وقت، غير أنها تشعر برغبة في العودة إلى شقتهم مرّة أخرى أحيانًا، فما الذي تفعله في الشارع على أيّ حال؟

سأل لوتيك ما الذي يجعلهم يعتقدون أنه يمكنهم عبور البوّابات! وأدينا أجابته بأنّ لديها موهبة لذاك النوع من الأعمال. فعند

وصولهم المدينة كان عليهم العبور من خلال مركز اللاجئين: أخبرَت والدتها أنها تُخفي أموالهم، وتأكّدت من أنها في المقدّمة عندما اصطفّت عائلتها للتفتيش، وأخذت امرأة ألمانيّة تحملق في أدينا طويلا، كما لو أنها تحمل كنوزا، ثم وجدت حزمة في جيب تنورتها وسحبته هاتفة "ما هذه؟ ماس؟" فاقتيدَت إلى طاولة لاستكشاف ما في الكيس الذي اتضح أنها حلوى صلبة. فضحك أحد الألمان على المفتّشة، فصفعت المرأة وجه أدينا وألقت بها خارج الغرفة دون العثور على العملات الذهبية التي تحملها.

عملنا معًا مدّة أسبوع، ثم أمسكت امرأة بولندية عجوز أدينا وصاحت "مهرّبة! مهرّبة!" وذلك أثناء عودتهم من البوابة، فقام لوتيك بشدّ المرأة العجوز وبدأ الصراخ بمثل ما قالته، وكان صديق والده هو مَن أخذ ثلاثتهم إلى الشّرطة الخضراء والزرقاء لتسوية الأمر. أمّا زوفيا وأنا فكُنّا على مسافة حيٍّ واحد منهم قبل التوقف لمشاهدتهم. فقد اتّفقنا أنّه في حال أُوقِفَ أحدنا فإن على الآخرين الاستمرار في المشي. صنعت المرأة العجوز ضجّةً تناهت إلى سمعنا من هناك. قالت زوفيا إنّ لوتيك قد أسقط كل ما كان يحمله في حقيبة المرأة.
"سيستغرق ذاك بعض الوقت" قالت زوفيا. فأخبرتها أنها قد تكون على صواب. لم يكن عند أحد منّا مكان يذهب إليه. وكانت قلقة على أدينا من أن تتعرض للضرب حتى بعد أن يعتقها الجنود، وقالت إنها تمنّت لو كانت هناك بدلًا عنها. وقالت أنّه حينما قُبض عليها ضربها الشرطيّ الأزرق لا بسبب يهوديّتها، بل بسبب نظراتها.
"ما الذي يجعل الناس الكبار هكذا؟" تساءلَتْ. أخبرتها أنّي لا أعرف.

قالت لي إنّه، بعد أيّام من استسلام المدينة، أخبر أحدٌ والدتها بأنّ والد والدها، جدّها الآخر، يريد مقابلتها. لم تلتق به قط، رغم أنّه أحد علماء اليهودية الكبار الذين لا تعرف ما هو بالضبط. انتظرتُها أن تواصل حديثها، وكنت سعيدًا أننا نتحدث سويًّا بهذا الشكل. أخبرها والداها بأن جّدها لديه كثير من المال، لكنها لا تعرف لماذا، وكانت والدتها متحمّسة جدًّا لأن ذلك من شأنه أن يسهّل هجرتهم جميعا. زوفيا لم تقابله قط، فحينما تزوّج والدها من امرأة غير أرثوذكسية قال له والده إنّه قد أقدمَ على أمرٍ يدعو للقلق، وأن ابنه قد مات فعلًا ودفنه وناحَ على جنازته.

فسألتها: "كيف يبدو إذن؟"

"أخبرني أبي عن شيء واحد عنه فقط، أنّه يكتب رسائل إلى الله" قالت. "إنها لفكرة مثيرة للاهتمام، وتساءلت وقتها ما عساه يفعل بها (تلك الرسائل)؟"

"إذن كيف يبدو!"

"كل ما قالته أمي عنه أنه يستخرج المال من تحت الأرض!"

أطلقت إحدى عربات التّرام صوت مكابح عند المنعطف في شارع شودنا، ما جعلها تضع أصابعها على فمها. تمنّيت حينها لو كنّا في مكان هادئ وآمن.

"حسنًا، استُدعِيتُ للقائه وحدي، أمي متحمسة وقلقة، واختصمت مع أبي لأنها دفعت الجميع إلى التوتّر! أذكر جدالهما حول ما ينبغي عليّ ارتداؤه، ثم أوصلاني إلى بيتٍ مُظلم كبير وأخبراني أن أذهب إلى الداخل حيث فتحَت الباب امرأةٌ مُسنّة، ثم اختفت صاعدةً الدّرج. لم أكن أعرف أين ذهبت لكنّي تلمّست طريقي في بيت الدرج، صعدتُ

عابرةً أدوارًا كثيرة مُظلمة نحو الدور العلويّ، حيث أرى ضوءً ما. كان الدور العلوي عبارة عن غرفة طويلة مُظلمة ذات سقف مدبّب. وفي النهاية مَن رأيت؟ رجلًا عجوزًا ذا لحية يجلس خلف مكتبه الذي تكدّست فوقه كتب كثيرة. وتكدّس بعضها في زوايا الغرفة إلى السّقف، وثمّة أكوام أيضًا في النوافذ. وثمّة بيوت عناكب في كل مكان حتى على مصباح مكتبه! توقّفتُ أنتظره يقول لي شيئا، أخيرًا قلتُ له مرحبًا. لكن، على أيّ حال، كنت أعرف أنه أصمّ.

رفع رأسه وأومأ لي بالاقتراب. تفاديت بيوت العنكبوت ذاهبةً إليه. حين كنت في منتصف الطريق إليه رفع يده فتوقّفت، وأخذ يشاهدني بعض الوقت. راحت ساعةٌ تدقّ في مكان ما من الغرفة. قلت له مرحبًا مرة أخرى، ثم تقدّمتُ خطوةً فرفع كفّ يده. توقّفت وأخبرتُه من أكون، لكن وجهه لم يتغيّر. ثم لوّح بيده عاليًا لأذهب بعيدًا. أخذت خطوة للوراء ووقفت، كي أتثبّت إن كان ذلك حقًّا ما يعنيه. ثمّ عاد إلى القراءة.

"إذن بعد كل ذلك لم يتحدث معك؟" سألتها.

نفدَ صبر الشرطة الخضراء والزرقاء وأوسعوا أدينا ولوتيك ضربًا على رأسَيهما. وضعت أدينا يديها على رأسها، فقام أحدهم بضرب يديها ثم توقف وذهب كل واحد منهم إلى مركزه.

"لا ينبغي لي أن أكون معك فأنت معتلّ جدًّا،" قالت زوفيا. وضعتُ يدي على عنقي علّني أتمكّن من إخفاء القمل.

اختفى لوتيك وأدينا في شارع جيلازنا، ووقفت المرأة العجوز هناك تحدّث نفسها بضعَ دقائق ثم غادرت أخيرًا. وحالما غادرت، قامت زوفيا عن الأرض ونفضت التّراب عن تنورتها.

"عندما بدأت الحرب، وفيما يتعلق بنَيل حصص الغِذاء، كنت بطريقة أو بأخرى أنجح في التملّص بين الجموع للتقدّم والحصول عليه مبكّرًا من موزّعيه، بينما أبي وأخي يقفان في الطوابير ولا يحصلان على شيء في النهاية. تعتقد أمي أنّ ما يدفعني للمضيّ هكذا هو الضّغينة،" ثمّ ضغطت بأصبعها على صدرها. "أجل، أعتقد أن كلامها صحيح، إنني أشعر بها هنا!"

انتشرت حُمّى التيفوس في كل مكان بشكل أسوأ من ذي قبل. وقد صارت بناية زوفيا مليئة به، فحملت صفيحة زيت وبعض الكيروسين معها دومًا، تُبعد به عن جسدها القمل. لم تسمح لي بالجلوس قريبًا منها، ولم تسمح للوتيك أيضًا، وحينما قالت له ذلك رد عليها "ومَن يُريد الجلوس قُربَك!" كنّا نشاهد الباعَة في شارع غيشا. ثمّة أمامنا امرأة تبيع للأطفال ملابس داخلية وبطانيات حيكت من مِزَق معاطف بالية، وحينما رأتنا ننظر ناحيتها حملت ما عندها كأنه وعاء ذهب وقالت إنه يجب أن نغادر ولا نُشغل بالها، وبأن هذه الأشياء لا توفّر لها أيّ عائدٍ مُغرٍ أبدًا. يجلس على يديه، بالقُرب منها، متسوّلٌ ضمّ بقدميه العاريتين كأسَ التسوّل. كنّا هناك ننتظر شخصًا يجلب لنا نماذجَ لِلّئِها، لكنّه تأخّر.

قالت زوفيا لعلّه أصيب بالتيفوس، وقال لوتيك إنّ التيفوس أصبح موضوعًا آخر سئم منه أيضًا. يتوجّب ألّا نتحدث إذًا عن شيء سوى الطعام طوال اليوم مثله! أرادت زوفيا أن تعرف. قال إنه لا يمكنه أن يقرّر مَن الأكثر مللًا! كل الأغنياء يتحدثون عن وقت أخذهم اللقاح، بينما الفقراء يتحدثون عن متى يصيبهم المرض!

سألتني أمي إن كان أصدقائي نظيفون، فأخبرتها أنّي أحمل قملًا أكثر من أي شخص آخر! لذلك جرّتني إلى الحوض وغمست رأسي ورقبتي وصدري بالكيروسين مرة أخرى. أخواي كانا على وشك المغادرة للعمل، ثبّتاني في الحوض وهما يحثّان أمي أكثر. وبعد أن أطلقاني حُرًّا، وضعت أمّي خدها على صدري، ثم قالت: "يبدو صوت تنفّسك جيّدا." طلبت منّي البقاء بعيدا عن طريق الحَجْر الصحي.

قالت زوفيا إنّ مأمور الصحّة في بنايتهم أخبر والدها أن شارع كروملانا هو الحاضنة الرئيسية للمرض في الغيتو، وأن الألمان قالوا إنّهم يريدون حرقه بالكامل لو كانوا يستطيعون.

"أنا سعيد لأننا لا نعرف أحدًا يسكن هناك" قلت لها.

قالت أدينا إنّ الشارع بات مسيّجًا على كل حال، وهم يأخذون سكّانه جميعًا في شاحنات إلى الحمّامات في شارع سبوكونا. يمكنك أن ترى أنها تشعر بالأسف تجاه زوفيا التي كلما وجدت قملا تصرّفت كما لو كانت نهاية العالم!

"هل الحمّامات تلك مُجدية؟" سألت زوفيا.

قالت أدينا إنها سألت شخصًا عن ذلك لكن بدلًا من أن يجيبها قال لها إن الأطفال والأسماك يجب ألا يكون لهم أصوات. قال لوتيك: "الحمّامات تلك هي المكان الذي تلتقط منه القمل! أو من طوابير انتظار إبادة القمل. أمّا الكبريت الذي يستعملونه فإنّه لا يقتل شيئًا"

"حَليقٌ مثل غير اليهود!" قال المتسوّل الذي يجاور المرأة بسخرية من لوتيك. "أين طاقيّة اليهود خاصتك؟ ألا ترتدي عائلتك شيئا منها؟ ربما لم تعُد تناسب الأزياء العصريّة؟"

"ومن أنت، حاخام وارسو؟" قال لوتيك. "أغلِق فمك..."

الرّجل الذي ننتظره لم يظهر أبدًا. فدخلنا في عملٍ جديدٍ أسميناه "اللّحاق بالعربة". كنا قد أبرمنا صفقة مع شرطيّ أزرق كان المسؤول عن مرافقة العربة رقم 10. زوفيا هي مَن سعت إليه وتفاهمت معه. يحظُر على العربات الآرِيّة الوقوف عند الغيتو، لكن شرطيّ العربة رقم 10 كان يعمل على إبطاء سَيرها بحجّة الانعطاف إلى شارع زامنخوفا، حيث تختبئ أدينا ساعةً ولا تلوح بقبّعتها حتى يصبح كل شيء واضحا. ثم نخرج أنا ولوتيك راكضين لالتقاط ما يُرمى إلينا من أكياس.

ذات يوم حاصرتنا الشرطة الخضراء وقد طاردوا لوتيك بدلًا عنّي. اختبأتُ في دكّانٍ يبيع السجائر وأعواد الكبريت وزجاجات صغيرة معبئة بالأدوية المحضّرة منزليًّا، حتى ظن المالك أنني أنتظر لأسرق شيئًا فألقى بي خارجًا. فتقدّم نحوي رجلٌ من الشّرطة الصفراء كان يقف بمحاذاة درّاجته ومعه امرأة شابّة. كان يرتدي سترته الرسميّة وبنطاله، مع القبّعة وشريطة اليد الصفراوين. وكان أقصر مما كنت عليه، وذا أذنين ضخمتين، أمسك كمّي وسأل عمّا لدي في الكيس، فقلت له أن عليّ المغادرة. ابتسم ورفع أصبعه الوسطى، يستعرض أمام المرأة التي لم تكن طويلة جدا لكنها أطول منه.

"ألم تعرفني؟" سألني، بعد ذلك عرفته. إنه واحد من رؤساء العمّال في مصنع أبناء عمومة والدي. هو الذي أرسلني إلى معمل تنظيف القماش، واسمه ليجكن.

"أعجبني حذاؤك" قلت له.

"هو كذلك..." قال لي.

فتورّد خدّا المرأة خجلًا.

أردف قائلًا: "لكنّك تعرف ما يقولون: الشرطيّ في أحذيته الجيّدة هو

مجرّد نصف شرطيّ".
قلت له مرّة أخرى بوجوب مغادرتي الآن، فقال إنّه في الحقيقة لا يمكنني ذلك، فإمّا أن أركب الدراجة معه أو نسير سويًّا إلى أن نصل الحيّ التالي حيث سيبلّغ الألمان بعثوره على أحد المهرّبين.
آتي معه على الدرّاجة إلى أين؟ سألت، ثم قال إنه سيقلّني إلى المنزل، فسألته لماذا؟ فقال إنه يحبّ عمل الإحسان للناس "نحن كنّا زملاء ملتصقين بعضنا ببعض" ثم ربط كيس البصل الذي لدي برفّ العجلة الخلفية، ورفع قبّعته للمرأة مودّعًا، ثم ثبّت المقود كي أتمكّن من الجلوس عليه. وددتُ أن أخبره بأن درّاجته كبيرة عليه جدًّا لكنّي خشيت أن يعود بي ناحية الألمان.
نراكِ قريبًا، قال للمرأة، فردّت وهي ضاحكة "سنرى،" بينما ضغطَ دوّاسة السّرعة منطلقًا بعيدًا.
كنت هزيلًا إلى درجة أنّه آلمني الجلوس على المقود، خاصّة عند مرور الدراجة فوق الحصى. لم أعرف هل رأى أحد أصدقائي الذي حدث لي أم لا.
سألني إن كنت أعرف أحدًا آخر غيره يعمل في مركز الخدمات اليهوديّ، فأجبته بالنفي. سألني إن كنت أعرف كثيرًا من الشبّان الذين يرغبون في الانضمام إلى الخدمة، فقلت لا. ضغط على دوّاسة السّرعة قليلًا ثم أردف إنه لأمر غريب: فقد حصل على الوظيفة لأن ابن عمه دوّن اسمه في القائمة، فقام أحدهم بتسليمه قبّعة ورباط يد أصفر وكتاب القوانين، وهكذا أصبح على رأس العمل.
"وبالطبع أجروا لنا بعض التدريبات" أضاف حين لم أقل شيئا.
"أنت ذاهب للعثور على خالعات أحذية لي..." قال لي لاحقًا بعد أن

قطعنا بضعة أحياء إلى بنايتنا. "أريد خالِعَ أحذية جيّد."
"كيف لي أن أعرف أين أعثر على خالع أحذية؟" سألته.
"كيف لأحدهم أن يعرف أين يعثر على أي شيء! انظر حولك. بلّغ تحياتي لوالدك،" قال. ثم نقر بخفّة على أنفي وعاد أدراجه.

على ضوء الأنباء التي تفيد بمُصادرة الشقق على أيّ حال، قال أبي إنه ذهب للبحث عن مقيمين يمكنهم أن يدفعوا شيئا ولو قليلا، وإنه لأمر رائع أن يرى يهوديٌّ سمكَ الرّنجة على طاولة الطعام مرّة كلّ أسبوع على الأقل. أمّا والدتي فقالت إنها ستوافق على أيّ أحد يجده بشرط أن يمرّ على وحدة التعقيم ثم يقدّم لها شهادة إبادة القمل الخاصة به. ظنّت أنه بذلك تنتهي المشكلة. وبما أن طوابير تلك المحطات تجعلك تنتظر يومًا مع ليلته، إلا أنّه تقدّمت عائلةٌ صباحَ اليوم التالي من أربعة أفراد وسلّموها شهاداتهم واحدًا تلو الآخر وهم يمرّون حاملين ما لديهم إلى شقتنا. وكان كل واحد منهم يرتدي أربع طبقات من الملابس لاتّقاء البرد من ناحية ولتسهيل حمل الأشياء الأخرى من ناحية أخرى. لم تبدُ عليهم النظافة، لكن كما قال أبي لأمي إنّهم ليسوا أقذر من أيّ شخص آخر، فقالت أمي "ربما اشتروا شهاداتهم بدلًا من الانتظار في الطابور،" ما جعلني وأبي نتظاهر كما لو أننا لا نبالي.
لقد أحضروا هديّة: كشكاة[15] مطبوخة جيّدًا، مع مربى الكرنب الأصفر، وملفوف محشيّ يفتح الشهيّة بشكل كبير، وجرّة صغيرة من العسل. قال أبي إننا نرغب في استعمالها بالتبادل.

(15) طبق من الحنطة السوداء يقدم عادة مع البصل ومرق اللحم، يُشتهر بتناوله اليهود الأشكنازيين أيّام السبت والأعياد. م.

كان ربّ أسرتهم رجلًا طويلًا يحمل روح الدعابة، بينما زوجته قصيرة ذات عينين غاضبتين، وبدا أنها أصيبت بخيبة أمل من كل شيء في الشقة. نظرت الزوجة إلى مطبخنا "ثلج في وعاء، صنابير ماء متجمّدة، دون أقلّ قطرة..." ابنتهم قالت إن عمرها تسعة عشر عاما، بينما الابن قال إنه جائع، وبدا أنّه في مثل عمري، وحالما بدأ يأكل قال إنّ اسمه **بوريس**.

احتلّ والده وأخته المطبخ، بينما أبي وأمي كانا في غرفة النوم، والبقيّة ناموا في الصّالة. كانت البرودة أكثر هناك، قدماه عند وجهي، وفي منتصف الليل بدا أنه يعرف أنني مستيقظ وراح يتحدّث بصوت خفيض. قال إنّ الشقّة التي سكنتها عائلته قبل هذه كانوا قد احتلّوها هم وعائلة أخرى، اقتحموها وسكنوها قبل أن يستعيدها الألمان منهم. وقال إن الأولاد في سكن المأوى كانوا يسرقون الخبز كل واحد من عائلة الآخر. ويُقايضون ما لم يأكلوه، بمسامير حذوات الأحصنة من أجل اللعب. قال إنه حصل على العسل من خارج الغيتو حين أدار له رجلٌ من الأو-دي ظهره وتظاهر بعدم رؤيته في الذهاب والإياب. سألته ماذا يعني رجل الأو-دي، وعرفتُ أنّه اسمٌ تُدعى به الشّرطة الصفراء اختصارًا لاسمها الرسميّ بالألمانية.

وبعد أن استمعنا لشخير أخوَيّ، سألني إذا ما كنت أعتقد أنه يبدو قويًّا.

"هل تتحدث إليّ؟" قلت له.

قال إنه كذلك، وكرر سؤاله ثانية، هل ترى أنني أبدو قويًّا؟ فقلت له إنّي أظنّه كذلك.

قال إنه كان كذلك لأن المهرّبين يأكلون أكثر من أيّ شخص آخر نظرًا

إلى عملهم الأكثر صعوبة من بقيّة الأعمال. كانت على خديه آثار بثور الجدريّ، بينما تعابير وجهه كمن تقاسم الغرفة مع شخص مريض. قلت له إنّ المهرّبين عادة لا يقولون لأيّ أحد أنهم مهربون. نخَرَ وقال أنا لا أعتقد أنّك جستابو، قلت له لن تعرف أبدا. سألني كم من الوقت سنعيش هنا، وقال إنه كان يكره قريته، وإنه وأصدقاءه حينما يدوسون على نباتات حديقة جارهم، يخرج جارهم من بيته ويحاول ضربهم بحزام جلدي، ثم يطلق سراح كلبه كي يعضهم، وأضاف: "الكلاب يكرهون الفقراء،" وبدا على بوريس استغراقه في التفكير أكثر وراح يتحدث بيديه كيهوديّ.

حدّثني عن حكاية طرده من جمعية الكشافة البولندية حيث قيل له إنّه كيهودي لا يمكن له تأدية اليمين الدستورية على الكتاب المقدس المسيحي، فاقترح على زعيم فرقتهم أن يستخدم ألبوم قِطَع غِيَارٍ بدلًا من ذلك. قال إن صديقه الحقيقي الوحيد لم يظهر ليقول له وداعا يوم مغادرته. وقال إن كل ذلك أعطاه ميزة، فهو لم يشعر قط بالحنين إلى أيّ وطن، ومن الأفضل ألا يكون لديه أحد يشتاق إليه أيضًا.

قال إن والده ضعيف أمام الشّراب، وربما كنت لاحظت بالفعل أنه لا يرفض أيّ نخبٍ أبدًا، سألني "ولماذا يجب عليه أن يرفض؟"

إذا كان ينتظر مني أن أجادله فلن يحصل على شيء مني! وأخبرني أنّي سوف أواجه قريبًا مشكلة مع أمّه. قال إنه لم يمض وقت طويل على تيقّنها من أنها تعرّضت للغش، ولهذا باتت تصرخ في وجه أيّ أحد. وسألته إن كنّا سندخل في مشاكل مع أخته أيضًا. فقال إنها خجولة جدا وقد أخبرته أنه إذا حدث وتزوّجت فإنها ترغب في البقاء في قبوٍ لا

يراها فيه أحد أبدًا.

سألته ما الذي حدث ليد أخته، فقال إنه أثناء عبور الطريق إلى وارسوا سلّمه أبوه زمام العربة حيث دفعه شيء ما بقوّة بينما يعبر الجسر فأوقعهم في حفرة.

سألته كيف تمكنوا من جعل العربة تقف على عجلاتها بعد ذلك، فقال إنه أخبر الناس القصص التي مثل تلك لأنه يعتقد أنه من المهم أن يكون واضحا في رأسك ما يمكنك وما لا يمكنك فعله، وهذا هو ما جعله يكبر ويصبح شخصًا بعينين مفتوحتين. سألته إن كان قد كبُر حقًّا للقيام بأمور كبيرة، فقال لي إنه سوف يُثبت لي ذلك في أقرب فرصة ممكنة.

أخبرت مجموعتنا عنه وكرّرت بعض قصصه، فقال لوتيك إنّه يجب أن أجلبه غدًا وحده. أرادت أدينا أن تعرف لماذا؟ فقال لها لوتيك ألّا تقلق حيال أي شيء، لأن بوريس صديق شمايا ربما لن يتمكن من البقاء طويلا على أيّ حال، بالنظر إلى ما كنّا عليه.

"لماذا دعوتني بذلك الاسم؟" سألته.

"أليس ذلك ما يدعونك به أخوتك؟" أجابني.

حين نام الجميع تلك الليلة، أخبرت بوريس أنّ عليه أن يأتي للقاء المجموعة. فقال إنه يتطلع لأن يصبح قائدنا، فأخبرته أنّ ما يجب عليه القلق بشأنه هو طلوع الشمس، فحينها تبدأ المدرسة، وعليه لذلك أن يستريح قبلها.

• • •

أمي وأبي كانا مستاءين من الأخبار التي تفيد بإغلاق ثلاثة خطوط لعربات اليهود، وفي أسوأ وقت من فصل الشتاء. سألت أمّي لماذا علينا أن نعيش كي نرى مثل هذه السنين المريعة، فقال أبي إن هناك على الأرجح سنين أسوأ قادمة. واستُبدلَت العربات بعربة واحدة فقط دون رقم، تحملُ فقط درعًا وشعار نجمة داوود. قال لوتيك إنّ القلق الأكبر هو منع عربات الآريّين من العبور خلال الغيتو. وبعد شهر واحد فعلوا ذلك.

لم يكن هناك إعلان. اكتشفنا ذلك بأنفسنا بعد ثلاثة أيّام. سألت زوفيا ما الذي يمكننا فعله الآن؟ قال بوريس إنّ علينا التوقّف عن اللعب بطريقة لطيفة. وكي نتبيّن ما يعنيه، انتظرَ حتى رمى نحوه لوتيك آخر كيسٍ من عربة التّرام، فانطلق نحو الرّجال الذين أناطوهم بهذه المهمّة وأخبرهم أنهم لن يحصلوا على الكيس حتى يدفعوا مزيدًا من المال.

"نحن على ما اتفقنا عليه" أخبره أحدهم.

"هم اتفقوا على ذلك، لكنّي لم أوافق بعد"، قال لهم. أخبرنا لوتيك أن الرجال ناقشوا الأمر بينهم طويلًا، حتى إن بعضهم هدّدنا، لكنّهم في النهاية خافوا من الدوريات التي تصول وتجول بالقرب. قال لوتيك إن بوريس عطّل الجميع وكأنّه لا يُقيم للشُّرطة بالًا حتى حصل على ما يريد، ليس كيسًا إضافيًّا من البطاطا وحسب، بل بعض نبيذ الزّبيب. لقد تشاركها معنا جميعًا.

على الغداء قال أبي إنّ الألمان يلحقونه أينما ذهب، فأبدَت أمي قلقًا وسألته لماذا؟ فقال إنّه لا عِلم له. كانت عائلة بوريس في الغرفة

الخلفيّة يتحدثون بصوت خفيض، قال أبي إنّهم ربما يخططون لانقلابٍ ما! وعاودت أمي طرح فكرة الحصول على وثائق آريّة، وقالت إن زوجة أخ ترنياكوف قد طمأنتها بأنه يمكن الحصول عليها بمُقابل زهيد. لكن حينما أفصحت أمي عن قيمة الحصول على وثائق إثبات الهويّة تلك سألها أبي بصوت عالٍ جدًّا "للشّخص الواحد!" فاضطربت وحاولت إسكاته. قالت له إن ذلك يعادل قيمة شهادة الميلاد وبطاقة الهوية معًا في الحقيقة، وإنّ هناك واحدة أقلّ ثمنًا لكنها تبدو مشبوهة منذ أوّل لمحة. فسألها أبي كيف تعتقد أننا سنستطيع تأمين طعامنا وفي الوقت ذاته ندّخر مالًا من أجل تلك الوثائق، ومن الذي سوف نتواصل معه من الجانب الآخر للقيام بمساعدتنا، أم سنكون جميعًا وحيدين؟ وأشار ناحيتي قائلًا "هل تظنين أنّه قد يعبُر؟" وذكّرها بالذي قالَته عنّي، أنني ما إن أفتح فمي حتى يمكن للمرء سماع يهوديّتي.

نظرت أمي ناحيتي بحُزن، وقالت: "ما رأيك هارون؟"

"أعتقد أننا بخير هنا" قلت لها بينما أذناي تحترقان من الاحمرار.

"هاكِ، حتى أنّه يعتقد بوجوب بقائنا هنا..." قال أبي.

قالت أمي إنها ستسأل أخوَيّ حين عودتهم إلى المنزل، لكن يمكنني أن أقول من نبرة صوتها إنها استسلمت، إضافة إلى أن أخوَيّ لم يعودا لأن الجنود والشرطة الصفراء لكتائب العمّال اعتقلوهما ضمن مجموعة في الشارع خارج شقتنا. سمعنا صراخهما لكننا لم نفهم ما الذي يجري. سحبتني أمي بعيدًا عن النافذة بينما هرعت إحدى جاراتنا من الخارج لتخبرنا بما رأت. قالت إن رجلا من بين المقبوض عليهم أخرج نقودًا من جيبه و أعطاها الجنود ورجال الشرطة فأخلوا سبيله.

ظنّت أنهم سيأخذونهم إلى يوزيفوف، هذا ما قال لها أحد رجال الشرطة. قام أبي بجمع المال من كل المخابئ في الشقة وخرج مسرعا للحاق بهم قبل الوصول لمحطة الشرطة، فركضتُ وراءه وكان هناك شبه حظر تجوّل.

قام الجنود بتسيير المعتقلين بسُرعة، بينما الشرطة الصفراء في الخلف يصرخون وينهالون بالعصيّ السميكة على من لا ينتظم في الطابور. كان الألمان في الأمام ينظرون بين الحين والآخر إلى الخلف، فيزداد الجلد ويرتفع الصراخ.

قال أبي لآخر رجال الشّرطة الصفراء حين أصبح قريبًا منه بما يكفي للحديث معه "اسمع،" فصاح به محذّرًا "إما أن تذهب بعيدًا الآن أو سينتهي بك المطاف مكبّلًا معهم".

تلكّأ أبي قليلا في الوراء، فأخذت المال من يده وتجاوزته إلى الأمام، فقد رأيتُ ليجكن في المقدمة.

"انظروا من أتى!" قال ليجكن حين سقطتُ في آخر خطوة لي قبل أن أجاوره. "هل تريد الذهاب إلى معسكر العمل؟ أين خالع أحذيتي؟"

"عثرتُ لك على واحدٍ فخم" قلت له، وأضفت "لكن أريد أن أعقد بيننا الآن صفقة أخرى" وأريته المال المخبّأ في معطفي.

"من تُريد أن تُنقذ؟" سألني. فقلت له أخواي في الصفوف الأمامية. إنهما، في خضمّ بؤسهما، لم ينتبهوا إلينا. "وما الذي سأجنيه من مساعدتك؟" سألني.

"ثمّة مال أكثر من حيث أتى هذا المال" قلت له، رغم أنني أعرف أن لا شيء لدينا غير ما في يدي.

تركنا ليجكن نسير مسافة نصفَ حَيٍّ فقط كي يجعلني أعاني قليلًا،

ثم قال شيئًا لأحد الشُّرطة فسارا معًا إلى الأمام حيث أخرجا أخوَيّ من الطابور وجرّاهما إلى أبي في الخلف، الذي أطلق بدوره صرخة فرح وراحة بعد أن كان قد يأس من الأمر برمّته.

• • •

أخبرتُ لوتيك "أريد خالع أحذية".

قال لوتيك "خالع أحذية! وما حاجتك بخالع أحذية؟" كنّا نقف بجانب بعضنا لمزيد من الدفء عند بوّابتنا القديمة في شارع ليشنو، فقد كان الثلج يتساقط. حاولَ لوتيك أن يُعيد ترتيبات التهريب القديمة مرّة أخرى. لكن عند صديق والده من الأعمال ما تفوق أهميّتها العمل معنا، فكان يجعلنا ننتظر أكثر. بقي لوتيك يجمع البلغم في فمه ويبصقه على الرصيف لمشاهدته يتجمد. كانت أحذيتنا تغوص في الوحل ومشطورة نصفين فكنّا ندوس على أقدامنا.

"عندي صِلَة بأحدهم، ربما يفيدنا."

"من عساه يكون؟" سألني.

"شخص ما التقيت به مؤخّرًا، لا يجب عليك معرفة كل شيء."

"هل تنوي المضي في العمل لنفسك؟"

"أنت لا تخبرني عن كل شخص قابلته،" لا أعرف لماذا كنت لا أريد إخباره.

"هذا صحيح."

"حسنًا، هل ستقوم بمساعدتي أم لا؟" سألته.

نفخ بين كفّيه المجموعتين ثمّ فرك وجنتيه. أعطاني عنوان متجر

على شارع نيسكا، وقال لي "اجلب لي شيئا لأتاجر به" ثم انشغلت عيناه بشيء ما عبَرَ الساحة. قال: "إنه معدّ لأجلنا!"

فرحةُ والديّ بعودة أخويّ كبيرة، فاحتفلنا حتى مع عائلة بوريس. اقترح أبي أن نفتح العسل، لكن والد بوريس قال: "يجب حفظه لمناسبة أكبر". "انتهاء الحرب مثلًا،" قال أخي، ثم أضاف أنه سمع أن هناك قصفًا في برلين مؤخّرًا. إنه يتحدث دائما عمّا سمعه من مقترحات سلام جديدة تقدّم بها السويديّون أو السّويسريّون أو البابا. تحلّق الجميع حول الطاولة، يدخنون سجائرهم ويخبر كل واحد منهم الجميعَ عمّا تناهى إلى سمعه من أخبار. كرّر أبي أنه لو أعطي اليهود دقيقة لأنفسهم فإنهم لن يفعلوا شيئًا سوى إطلاق الشائعات. قالت والدة بوريس إن الحاخام في قريتهم توقّع في العام الماضي أنّ الحرب ستنتهي هذا الشهر، فقد أثبت وفقا لحسابات القبالة[16] بأن كأس عذاب اليهود[17] قد امتلأ بالكامل. هلّل زوجها سخريةً واقترح نخبًا لهذه الأخبار، ثم سكب قليلا من الفودكا له ولأبي.

بعد احتساء نخبَيهما سكرا، فاتبع والد بوريس: "حسنا، طلب هتلر من الحاكم العام كل ما أمر به من أجل إبادة اليهود. لم تكن محادثات الحاكم العام حول الحقوق والامتيازات التي أُخذِت من اليهود لتُرضي هتلر، فتحدّث عن كل شيء سُرق من اليهود لكن هتلر بقي غير راض، فتحدث عن الغيتو وكل الأمراض والقذارة، وبقي هتلر غير راض. أخيرا قال الحاكم العام: "أوه، أعددت منظمة يهودية

(16) القبالة أو القبلانية (الباطنية) هي معتقدات و شروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة و الكون و الربانيات بدأت عند اليهود منذ القرن الثاني عشر و بقيت حكرا عليهم لسنوات طويلة. و هي في رأي معتقديها أنها تشكل أساس الإبداع و الفنون و العلوم و الفلسفة و الدين و السياسة. م.

(17) إشارة للكأس الذي يستعمل في تناول القداس، و الذي يرمز أصلا إلى الكأس الذي شرب منه النبي عيسى في العشاء الأخير the cup of suffering. م.

للمعونة الذاتية،" فصاح هتلر: "الآن لقد أصبت!"
ضحك أخواي معه. قال أبي متجهّمًا بعدما توقفوا: "نخبٌ للشّرطة اليهود أيضًا".
ثمّ صمتنا جميعًا. نكاد نسمع في الشارع صوت بائع ينادي لبيع فحم الكوك والكربيد.
قال والد بوريس: "جيّد، إنّ ذلك سيساعد في بقاء الحفلة مدّةً أطول".
أمّي حينها تعافت بما يكفي للابتسام. وفي النهاية قالت: "في بادئ الأمر أحببت فكرة الشرطة اليهودية، فإذا كان علينا أن نأخذ الأوامر من بولنديّ أو يهودي، فلماذا لا نختار اليهودي؟ على الأقل فهم لن يقلبوا سلال التجّار على الأرض ويدوسوا البضائع".
قال أبي: "ذلك قبل أن يعتقلوا جميع المعوزين ليُخلّصوا أنفسهم من رحلة معسكر الأشغال".
قالت أمي: "كان ذلك قبلًا". حينها انتهت الحفلة فعليًّا. لاحقًا طلبت أمي من أبي مرة أخرى أن يعيدني إلى المصنع. لكن حين قال إنّ ذلك غير ممكن، فهو محظوظ لأنه ما زال يحتفظ بعمله هناك ولم يفقده، انفلتت أعصابها وسألته ماذا ستفعل إذا لم أعد أنا يوما إلى البيت. قال لها إنّهم لا يأخذون الأطفال إلى معسكرات العمّال، وذكّرها بأن حجمي يبدو أصغر من عمري.
قالت أمي: "إذا حدث شيء له سوف لن أنظر إليك مرة أخرى أبدًا".
قال أبي: "أنت لا تنظرين إليّ أصلًا".
"نحن نحاول النوم هنا،" قال أحد أخوتي من مكاننا حيث كنا نستلقي في الردهة.

قال بوريس: "إنّهما يتشاجران مثل والديّ،" وفي الظلام، بدا كأنه ينتظر منّي أن أوافقه.
"أظنّ أنّه نام،" قال له أخي أخيرًا.
فردّ بوريس: "إنه ليس نائمًا".

بسبب أن أمي لم تكن سعيدة جدًّا بما أقوم به، فقد عرّفتُها على زوفيا وأدينا. لقد أحبّتهما أكثر من لوتيك. وكما توقّعت، سألتني أدينا ولماذا نلتقي أمك؟ هل ستخطبنا؟ لكن زوفيا قالت إنها تتفهّم الوضع، وأخبرت أدينا أنه من الرائع أن تُزجي معروفًا لشخص لن يقتلها.
التقينا في مقهى. أصرّت أمي أن نبتاع الشّاي للفتاتين رغم أنّي رأيت كيف بدت مستاءة للمال الذي دفعته ثمنًا ذلك. تحرّت عن عائلتيهما، وبدا على وجهها الخجل عندما سمعت قصصهما المحزنة. وحينما شارف لقاؤنا على الانتهاء قالت إنّ زوجة أخ ترنياكوف أخبرتها عن العرض المسرحي في دار أيتام كورتشاك، فهل نودّ جميعًا الحضور؟ نظرت أدينا إليّ، بينما تعابير وجهي تخبرها إنني لم أكن أعرف أن أمي ستفعل ذلك.
قلت لها: "لا أظن أن الفتاتين ترغبان في رؤية عرض الدُّمى الموجّه للأطفال".
قالت أمي: "إنّهم لا يعرضون الدُّمى".
قالت زوفيا: "لقد شاهدتُ موكبهم حينما اضطروا للانتقال إلى الغيتو. كان أشبه بالسّرك إلى حدّ بعيد".
"لقد رأيته أيضًا،" قلتُ. "هل رأيتِ العربات الحاملة شعار زهرة إبرة الراعي؟"

قالت زوفيا إنها سمعت كلّ أنواع الشّائعات عنه: أنّهم أخذوه إلى الغابات ورموه بالرصاص، وأنّهم نفوه إلى أحد المخيمات البعيدة، وأنّه أُرسلَ على متن قارب إلى فلسطين. كل ذلك بسبب أنه ذهب إلى مقرّ الجستابو ليحتجّ على مصادرة بعض البطاطا. وقد شوهد هناك يرفض ارتداء رباط اليد المخصص لليهود. اتّضح لاحقًا أنّه تعرّض للضرب ورُمي في زنزانة. ثمّ بعد شهر واحد تركوه يذهب.

سألت أدينا: "سمحوا له بالذهاب؟" وقد جذب أمر إطلاق سراحه اهتمامها. "لماذا فعلوا ذلك؟".

رفعت زوفيا كفها وفركت إبهامها ببطن سبّابتها.

سألت أدينا: "هل هو غنيّ؟"

قالت زوفيا: "يعرف أصدقاء أغنياء". وقالت إنها سمعت أيضًا أن البوّاب البولندي تعرّض للضرب حتى الموت تقريبا في اليوم نفسه لأنّه تقدّم شخصيًّا بطلب مرافقة الأيتام إلى الغيتو. ليس بمستطاع الآريين الآن العمل مع اليهود.

كنا أربعتنا نصيخ السّمع أيضًا إلى النقاشات الجارية حول الطاولات المجاورة. رأيتُ خيبة أمل أمي في عينيها. قالت: "عمل وسرقة، عمل وسرقة، هذا هو ما عليه زمننا الآن". نظرت الفتاتان إليها ثمّ أنهيا شُرب الشاي. أبقت زوفيا قطعة السكر في فمها، بين شفتيها، ثم أخرجت لسانها مرّة واحدة فقط وسحبتها إلى الداخل، فذابت تماما واختفت في الحال. نهضت أمي ماسحةً دموعها. قالت: "حسنا، إن كنّا مهتمّين فإن ملجأ الأيتام بات الآن على شارع كولدنا في الغيتو الصغير".

"سنذهب إذن،" قالت زوفيا. " قد تكون ممتعة!" فحدجتها أدينا.

كرّرت زوفيا "قد تكون ممتعة!"

أعجب ذلك أمي وغادرت قبل أن نتمكّن من تغيير رأينا. قالت أدينا "ألن تحاولي أخذ موافقة لوتيك وبوريس كي يرافقانا؟" فقالت زوفيا: "لن أحاول ذلك".

تلك الليلة، أذاعت أمّي على العشاء الخبر السار حول عودة كورتشاك. فأراد والد بوريس أن يعرف لماذا سمح الألمان له بالخروج؟

قال بوريس: "ربما جعلوه مُخبرًا!"

قالت أمي: "ربما أعطاهم كومة ذهب."

قال أبي: "إن الألمان يعرفونه كأكبر متخصّص في طبّ الأطفال، وأكبر مُصلح تربويّ في أوروبا كلها، إنهم يعرفونه، فهو معروف في إنجلترا وفرنسا. إنه على الأرجح أكثر يهوديّ يحظى بالأمن في الغيتو".

قال بوريس: "هذه كذبة كبيرة!".

قال والد بوريس: "هل هو أحد من شملتهم شائعة ما قبل الحرب؟"

سألت أمي: "ما الشائعة؟"

عقد والد بوريس ذراعيه وكأنه لم يقصد أيّ إساءة.

قال أبي: "لقد خسر برنامجه ومنصبه في محكمة الأحداث. ثم استقلّ رحلة إلى فلسطين. فغفل الناس أنّ يانوش كورتشاك البولنديّ هو نفسه هنريك قولدشميت اليهوديّ!"

تناهت إلينا طلقات نارية في الخارج، فبقينا هادئين حول الطاولة، نُنصت.

ثمّة على الطاولة حساء الشمندر المبشور، مع أوراق القرّاص، وكُتَل صغيرة من الكاشا.

أضاف أبي: "لم يرغبوا أن يُعطوا أيّ يهوديّ مسؤولية الاهتمام بالجُناة الأحداث البولنديين".

بقيتُ أفكّر لماذا سمح الألمان لكورتشاك بالذهاب؟ بينما راح الجميع يفكرون حول أشياء أخرى.

• • •

في دار الأيتام، طُمسَت شارة "مدرسة روستر الثانوية التجارية" بخطّ عريض، وعُلّقَت أسفلها -بحبال مفتولة- شارة من الخشب المنشور يدويًّا، كُتب عليها "**جمهوريّة الطفولة**". اصطحبنا عبر المبنى وأجلسنا على كراس خشبية قابلة للطيّ في الصفّ الأول من المسرح فتياتٌ صغيرات يرتدين ملابسًا مُخاطة من قصاصات ورقيّة وقِطَعٍ أخرى.

"ماذا يفترض بك أن تكوني؟" سألتُ الفتاة التي تقودني للداخل. كان معظم الورق مطليًّا باللون الأخضر. قالت لي "أنا التنّين".

كان المسرح عبارة عن منصّة في نهاية الغرفة الرئيسية في الطابق الأول. وحالما امتلأت المقاعد كلها واصطفّ من لم يجد من الناس مقعدًا واقفين عند الجدار الخلفي، دخلت المرأة السمينة التي شاهدتها مع الطبيب العجوز عندما كان يحاول إنزالها في الشارع. دخلَت من الباب الخلفي وصفّق الجميع.

كانت تحمل معها الصبّار الذي وضعته أمامها على المسرح، ثم رحّبت بالجميع في دار الأيتام وعرّفت بنفسها أن اسمها **ستيفانيا ويلكزاسكا** وهي معلّمة قديمة، وقدمّت الصبّار على أنه يتيمَها المفضّل وجالب الحظّ السحري للدار. ضحك الجميع وكأنهم يعرفون ما الذي تتحدث عنه. ثم قالت إنّه من دواعي سعادتها أن تقدمّ لهم أعظم إنسانيٍّ و مفكّرٍ في بولندا.

صفّق الجميع مرة أخرى ودخل كورتشاك من الباب نفسه الذي دخلَت هي منه. كان يرتدي تاجا ورقيًّا. ضحك الناس. اتّخذت المرأة السمينة مقعدًا في الصفّ الأمامي.

قال كورتشاك "على أحدكم أن يعطي ذلك الرجل السمين في الخلف كرسيًّا، يبدو عليه الثراء ولا يليق به الوقوف هكذا". ظنّ صغار الأطفال من الجمهور أنّ ذلك مُضحك إلى حدّ الجنون.

قال كورتشاك "يُحبّ الجميع تعليقاتي الفظّة" وتابع بعدما هدأ الضحك "حتى النساء الأنيقات والرجال الأنيقون، رغم أنهم يُبقون على مسافة ما بيننا، فأنا لا أسمع أي شيء عنهم إلا حينما يمرض أطفالهم: "من فضلك، من فضلك، عليك أن تأتي" حتى لو كان ذلك في منتصف الليل".

"إذن هو طبيب؟" همست أدينا في أذن أمي.

أخبرتها أمي أنه كان طبيبا مشهورا، طبّبَ في الجيش خلال الحرب بين روسيا واليابان، والحرب العالمية، والحرب الأهلية في روسيا.

اعتذرَ الطّبيب لمن أسماهم بالطبقة العُليا في الجمهور لتحدُّثه بالأديشيّة من حين لآخر. قال إنّه يودّ أن يؤدّي احد عروضه التي يؤدّيها عادة في برنامجه على الراديو، اسم العرض "عُزلة الطفل"، وذلك قبل أن يترجّل عن المنصّة سامحًا لعرض المساء الرئيسي أن يبدأ، والذي هو من إنتاج الدار ويسلّط الضوء على أكثر الموهوبين من المواطنين المغبونين الذين جُمعوا من عليّات و أقبية وارسو. وأضاف "إنها تلك الأمكنة ما تعثر فيها على أكثر المواهب إثارة للاهتمام في المدينة. المنسيّون في الأقبية".

تنحنح ونظّف نظارته بمنديل على مهل. ثم ارتداها وبدأ.

كان مسليا في البداية ثم أمسى حزينًا، فتوقفت عن الإنصات.
عندما انتهى، صفّق الجميع، وشرع الأطفال في ترتيب المنصّة للمسرحية .
قالت زوفيا "أحببته حينما قال إن الوحدة هي الميناء الذي يرتحل إليه دائما"
وقالت أمي: "أحببته حين تساءل: هل توجّه أنت مسار حياتك، أم أنّك مُنقادٌ لها وحسب؟"
قالت أدينا "لستُ مُنقادة لها"
قالت زوفيا "تبدين مثل بوريس!"
كانت المسرحية تُدعى "رحلات هرشكيل الثلاثة". يرتدي البطل غطاء رأس طوال الوقت دون تفسير لذلك. وكان قد اختبأ على متن طائرة متوجهة إلى إنجلترا حيث تحدث مع الملك الإنجليزي حول إمكانية هجرة اليهود جميعا إلى فلسطين. ثم اختبأ على متن طائرة متوجهة إلى مصر، حيث عثر على غرفة فرعونيّة تغصّ بالذّهب ما يغطّي تكاليف سفر اليهود جميعًا. ثم اختبأ على متن طائرة متوجّهة إلى ألمانيا حيث التقى هتلر، وكان الطفل الذي أدّى دور فتلر قد أجاده. حينما رأى هتلر ذاك الذهب كلّه، ندم على كلّ ما فعله وراح يرجو أن يعود اليهود إلى ألمانيا. فقال البطل "لا، شكرًا لك". ثم قال إنّ هذا ما بقي من الذهب فقط، وسيصرفه لشراء الحليب والزبدة لأطفال المجاعة في ألمانيا. وفي النهاية بقي البطل مع هتلر وحدهما على المسرح. شكر هتلر البطل على تقديم المساعدة. وسأل إن كان هناك شيء يمكنه أن يفعله مقابل الزبدة والحليب. فقال البطل نعم، على هتلر أن يأمر جميع البالغين الذي لا يهتمّون بالأطفال الذين يرونهم

يقتعدون الشوارع أن يطأطئوا رؤوسهم خجلًا. فقال هتلر أنّه سيأمر بذلك. ثم غنى البطل أغنية الوصايا العشر مع جميع فريق العمل وأدّوا رقصةً مُصاحبة، ثم انتهى كلّ شيء.

ظلّت أمّي تصفّق حتى بعد أن توقف الجميع. ثمّ بكت مرة أخرى قائلة لي "هل أعجبك أيضًا؟". ظهر كورتشاك مرّة أخرى ليشكُر فريق عمل المسرحيّة ولكلّ من صفّق مرّة أخرى. وشكر الحضور، وهنّأهم جميعًا لأنهم تيتّموا مرّتين كونهم صاروا دون بلاد تأويهم، ويهود أيضًا. قال إن على البالغين أن يتذكروا معاملة الأطفال بحُبّ، وأن يحترموا ما يمكن أن يكونوا عليه مستقبلًا. ثم قال للأطفال إننا لا يمكن أن نترك العالم بالطريقة التي وجدناه عليها. وعليهم أن يتذكّروا غسل أيديهم وشُرب الماء المغلي، وأن يفتحوا النوافذ لدخول الهواء النقي. ثمّ تطلّع ناحية النافذة الأقرب إليه مُنهيًا ما يقول "لكن علينا أن ننتظر حتى يصبح الجو أدفأ على أيّ حال!"

حتى أدينا باتت تعتقد أن الطبيب العجوز استحقّ الحضور من أجله، ولو كان البسكويت المقدّم بعد الحفل سببًا من أسباب اعتقادها ذاك. قالت لاحقًا أنها لم تذق بسكويتًا منذ زمنٍ غير معلوم، وقد غضب بوريس لأننا لم نأخذ بعضًا منه له وللوتيك. حين قالت زوفيا إنّ ما تناولوه لا يُعدّ بسكويتًا، قالت أدينا حتى لو كان كذلك لكنه قريب جدًّا من البسكويت الحقيقي.

كنّا جياعا جميعا طوال الوقت. "أتذكّر أن أمي كانت تغذّينا بالخضروات لأنها تعتقد أنها مُفيدة" قالت أدينا ذات صباح، وكأنها تشعر أنه كان حلمًا. كُنّا أمام متجر يبيع أحزمة علاج الفتق، وكان أحدهم يصرخ باتجاه أطفال على سطح بناية، بينما أحدهم قُربنا في

الطابق الأول كان يُخبر زوجته أن تضيف ماءً أكثر في مصباح الكربيد، وشخص آخر سكب الزيت المتسخ من النافذة من مستوى أعلى و تناثر بالقرب من أقدامنا.

جعلنا بوريس نعمل في الاتّجار ببطاقات التموين للأشخاص الذين ماتوا أو غادروا الغيتو. كان يعتقد أن أفضل مكان لذلك هو حول محلات التوزيع، حيث تأتي الأمّهات بصحبة أطفالهن الصغار، وقد كان مُحقًّا. قام هو ولوتيك بإجراء المساومات، لأن بقيّتنا لم يتمكنوا من الوقوف هناك ومشاهدة وجوه الأطفال بينما هم يُساومون على طعامهم.

حصل لوتيك على فردة حذاء خشبيّة لطفل بعد أن عقد البطاقة التموينية تحت أنف أمه وقال لها إن عليها أن ترمي شيئًا آخر لتتمّ الصّفقة، وإنها إذا أرادت التجارة فعليها أن تتخيّل أيضًا وضع الطرف الآخر وحاجاته. أخذت البطاقات واستبدلتها بخُضار الملفوف، وعاد ابنها إلى البيت حافيًا. لكن الجو أصبح راح يدفأ أكثر. قالت زوفيا إننا حاليًّا في أواخر مايو، بينما ما زال يعتقد بوريس أننا في أبريل. حاول لوتيك ارتداء الحذاء الخشبي ثمّ قال "كما توقّعت، يناسبني تمامًا".

"ما هي مساهمته؟" قال بوريس سائلًا لوتيك. إنه يقصدني. قالت له الفتاتان أن يتركني وشأني

"أختي تكره السبانخ" قالت أدينا، "لكنني أحبه".

"أما زلتِ تتحدثين عن ذلك؟" أراد بوريس أن يعرف.

قالت زوفيا "أمي اعتادت أن تخبرني أنّه عليّ أن أكون نظيفة جدا حتى التماع الرُّكَب"

كنت أرى القمل في كل مفرق في شعرها، فسألتها "هل ما زلت نظيفة

جدًّا؟"
أخبرنا لوتيك أنّ شقتهم الآن أصبحت أكثر نظافة لأن والده وبعض الحمالين الآخرين بدأوا يستخدمون أفران نشارة الخشب، والتي هي أرخص من الفحم.
"وهل تلك تبقيك دافئا؟" قالت أدينا.
قال لها "لا شيء يبقيك دافئة"
قال بوريس "الأفران ليست هي المشكلة..."
"مرحبا يا أم،" قال بوريس لامرأة خرجت من المتجر مع ثلاثة أطفال صغار يبكون، "هل من طريقة يمكنني مساعدتك بها؟"
وبعد أن غادروا رفع الشّال الثقيل، إنه انجليزيّ، وأرانا العلامة.
هو ولوتيك تجادلا فيما إذا كان قد أعطى الأمّ سعرًا أقلّ من المناسب.
توادعنا قبل ساعة من حظر التجول، وكنت في منتصف طريقي إلى البيت حين أمسك شخص ما بياقتي.
"كم أحبّ خالعة أحذيتي!" قال ليجكن.
"أنا سعيد لسماع ذلك" قلت له بينما أحاول الإفلات منه. "عليّ أن أذهب إلى البيت".
قال ليجكن "هل يتوجب عليك دومًا الذهاب إلى البيت؟" وظنّ أنّ هناك أمرًا غامضا. مشى طوال الطريق بجانبي وكان يأكل شيئا لم يشاركنيه.
قال "أصدقائي على شارع كروملانا يراقبون جيّدا لمعرفة مَن يفعل مَاذا عند بوّابات مختلفة"
كان يقصد الشرطة الصفراء الذين انتقلت مقارّهم إلى هناك في كانون الثاني. كنت أعرف ذلك لأن لوتيك بات يأخذ مسارًا مختلفًا عبر

الغيتو الصغير.
قلت "وما يعنيني أنا في ذلك؟"
قال "يبدو أنك تتواجد في كل مكان. أعتقد أنك قد تكون لاحظت أمورًا تحدث هنا وهناك"
قلت "إنني سيء في ملاحظة الأشياء"
فقال "حسنا، أيًّا كان ما لاحظت"
بقيت أمشي حتى توقفت عند المحطّة، لكنّي لم أر أحدًا ينتظر هناك. ربما فاتتني العربة.
قال "إنها مجرّد انتباه لما يدور حولك. ليست كما لو أنّ شخصًا يودّ عن قصدٍ المراقبة، فذلك سّيئ"
انتظرت بضع دقائق ثم تابعت السّير مجددا. كان حذائي قد انفكّ تمامًا فصار يخفق مع كل خطوة.
قال "هناك أيضًا فرص يمكنني أن أدعك تعرفها حالما تتوفّر. يوجد بصلُ مُصادَر الآن على سبيل المثال لم يُبَلّغ عنه بعد"
فقلت "يبدو أنك أحد الأشخاص الذين يتواجدون في كل مكان"
هز كتفيه كمن اعتاد سماع هذا النوع من الاطراء، ثم قال "بالمناسبة، إن الشرطة اليهودية مسؤولة عن اختيار الشّقق للتوطين، فزيادة توطين السكّان في الغيتو واردة"
قلت له "شقّتنا على أيّ حال مزدحمة!"
لكنه أضاف "أوه، في بعض الشقق تحتوي كل غرفة على خمسة عشر شخصًا أو حتى عشرين، لا يمكنك أن تتخيل ذلك"
توقّفت وحاولت أن أشدّ رباطًا من شرائط القماش حول حذائي. لا أستطيع أن أصدق أني أكاد أبكي بسبب حذائي.

قال "وبالطبع هناك سؤال، ما الذي تظن أن يفعله أصدقاؤك حالما يسمعون بأنك تعمل مع الشرطة؟" وعندما لم أجب على سؤاله أكمل "أو هل سبق وأن قلت لهم ذلك؟" ثم تابع "فكّر في ذلك" ثمّ تجاوزنا حيًّا أو اثنين. وبما أني التزمت الصّمت طوال الطريق، أكملتُ هكذا حتى تجاوزتُ نصفَ حيٍّ آخر، وحينما نظرت خلفي كان هو قد غادر.

ثمّة ضوضاء بالقرب من بنايتنا. مجموعة من الألمان يركلون شيئا ما بينهم ويصرخون بالألمانية. إنهم يركلون شيئًا أينما كانوا. لم أكن قد سمعت رجالا يصرخون هكذا من قبل. توقف الناس على جانبَي الشارع ليشاهدوهم. لم أكن أريد أن أقترب منهم، لكنهم كانوا أمام باب منزلي.

رأيتُ شخصًا مُلقى جانبًا على الحصى. وحين أصدر صوت تألُّم عرفت أنه أبي. توقفت ودفعت من يقف أمامي كأنني في طابور عربة، وبعد بضع ركلات بقي الألمان في حلقة يحيطون به ويتحدثون بعضهم إلى بعض بدلا من الصراخ.

بينما هم يتفقّدونه، زحف هو نحو أرجلهم. لقد رآني لكنه لم يقُل شيئًا، ولم يُظهر أيّ علامة تُشير إلى ذلك. شعوري بأنه يجب أن أفعل شيئًا جعلني أرتفع على أطراف أصابعي. كنت أرغب في التصرّف، لكن حين جاء الوقت للقيام بشيء فقدت أعصابي فوقفت هناك في منتصف الشارع.

كانت ركبتاه مرفوعتين وكتفاه محدودبين. الألمان أعطوه ركلة إضافية جعلته يدور حول نفسه. ثم جثم مكانه. اعتقدت بما أنني ابنه فإنني

سوف أهرع إليه أو أصرخ على الألمان أنفسهم. إنهم تبادلوا قليلا من التعليقات مع الفضوليين من الألمان على الجانب الآخر من الشارع. ثم تدافعوا جميعًا نحو بعضهم وتحدثوا غاضبين ثم غادروا. عدد قليل من الناس اقتربوا منه وأنا منهم. كانت أكمامه وظهر معطفه غارقة في الطين. "لا تفعل" قال لي حينما حاولت مساعدته في النهوض. لقد قام على يديه ثم ركبتيه حتى انتصب على قدميه، ترنّح قليلًا ثم توجّه بعيدًا عن باب منزلنا.

تبعته. باتت مشيته مثل مشية المُسنّين. عند المنعطف الأوّل التفت، فجاورته. بين الحين والآخر أنظُر إلى وجهه. انعطف مرة أخرى، ثم أخرى، وفي المنعطف الرابع كان قد عاد بنا إلى حيّنا وتوقف ليتأكد من أن الألمان قد غادروا. وعند بابنا جعلني أسبقه في الصعود.

سألت أمي ما الذي حدث له؟ فأخبرها أنه وقع عن عربة، فتضايقت كثيرًا وقامت بغلي الماء لمساعدته على تنظيف نفسه. قالت إنّه كاد أن يُقتَل. قال لها إن عليها أن تخيط الرقع على مرفقي معطفي، وذاك كان كل شيء يتعلّق بي. راح يغسل وجهه في الحوض مدّة طويلة، بينما أمي مستاءة بسبب حالة معطفه. فلم يكن موحلا فقط، بل فقد أحد جيوبه. أمي بقيت تتحسر بينما تستأنف العمل على خياطة جيب جديد حتى صاح أبي في وجهها لتتوقف عن ذلك وأن تترك المعطف. فخافت، وكانت مجروحة بما فيه الكفاية كي لا تتفوه بشيء.

والد بوريس أطل برأسه في الداخل، يسأل إن كان كل شيء على ما يرام. وحينما لم يرد عليه أحد، أجابه بوريس من الرّدهة "لقد صدمته عربة"

عاد أبي مرة أخرى لغسل وجهه. وبقيت لزمنٍ طويل بعد ذلك كلّما

أغمضت عيني رأيته وهو ملقى في الشارع. لم أستطع النوم في الليل. أفكار غريبة تظل تطرق رأسي. أستيقظ وفي فمي دم، فتقول أمي أن ذلك بسبب أنّي أعض لساني.

لقد تغير أبي بعد تلك الحادثة. لم يذهب إلى العمل عدّة أيام. كان يجلس على طاولة المطبخ عند النافذة، مُديرًا ظهره للجميع، عاقدًا قماشة مبلّلة حول رأسه، ويحضن بين كفّيه كوب الشاي الذي تعدّه له أمي. قالت أمي إنّه بخير، إنّه في حاجة فقط لأن نعطيه فسحة خاصة به.

كان ينظر إليّ في بعض الأحيان كما لو كان الألمان قد انتزعوا الشجاعة من كلينا. وحينما غادرت مع بوريس من الشقة وقلت وداعًا، حيّاني بتلويحة مقتضبة.

اشتدّت حرارة الجو في يونيو فلم يستطع أحدنا النوم. ثم في ليلة ذات نسيم بارد قرر الألمان أن ينقلوا جيشهم وراء شقتنا.
كلّ ليلة، تزحف الدبابات عبر الشوارع وجسر فيستولا، ودويّ الشاحنات يرافقها. ذهبنا جميعا عند النافذة لنشاهد ذلك، فلا أحد يمكنه أن يستريح على أية حال. الشقة بأكملها اضطربت، وصار كل شيء يهتز ويضطرب. كان علينا أن نأخذ أكواب الشاي من الرف ونضعها على الأرض. تصيح أمي كلّ بضع ساعات "إلى متى سيستمر ذلك في الحدوث؟". حاول أبي أن يبقى في سريره في البداية لكنه رغم ذلك اضطر للنهوض بعد حين. وحالما أشرقت الشمس ذهبنا جميعا إلى الرّصيف، عدا أمي، كي نرى ما يحدث بشكل أوضح.
بقيت الكتائب تتقدّم حتى الظهيرة. كل الألمان في ألمانيا تم نقلهم بالشاحنات عبر شارعنا إلى مكان ما. قال والد بوريس إنه لم ير قط في حياته كلها مثل الآلات التي لدى الألمان، لكن بالكاد كنت أسمعهم بسبب الضوضاء. علّق الجنود كل شيء في كل مكان. لا يمكن لأحد أن يعبر الشارع. حاول كلب ضال الجري عبر الشارع ففقد ذيله.
رُسمَت شعارات ألمانية باللون الأبيض على جانبَي الدبابات، وأكثر شعار رأيناه منتشرا كان " ستالين، نحن قادمون".
بعض الأطفال الصغار أثارهم وجود الشاحنات الضخمة التي تجر

المدافع العملاقة. كان عادم الديزل البنيّ الداكن قد سبب لنا صداعا فعُدنا إلى الداخل.

في تلك الليلة سمعنا انفجارات في المدينة، وفي الصباح التالي علمنا أن روسيا قصفت وارسو. كانت القنابل قد سقطت على أوكانشه، وساحة تاترالنه، وعربة ترام بالقرب من جسر كيربيدش ما قتل الرُّكّاب جميعًا.

سأل بوريس في وقت لاحق ذلك اليوم "ألا تنفكّ تتحدث عن أمك؟ وما شأننا بها؟ أليس لدينا جميعًا أمهات نقلق عليهن؟"

وافقته أدينا "إني أقلق حول ما يخصني فقط"

امتلأت الشوارع بالمرضى والجميع يقول إن التيفوس ما زال منتشرا. وكان أبي قد قال لأمي إن الله قد أغرق أجرَبَ ليحفظ بقيّة الرعيّة، فصفعته أمي. أخبرت عصابتي عمّا حدث، فسأل بوريس "وهل سمح لها والدك بصفعه دون مقابل!" كان بوريس يفكّر أن يستغل انتشار التيفوس في القيام ببعض الأعمال لجني المال، ومرّة أخرى تبيّن أنّه على حق. فقد جاء ليجكن إلى شقتنا وقال إن الشرطة قد شكّلت وِحدة خاصة لتعليق علامات التعقيم والتطهير مقابل بطاقات التموين الإضافية. سمحوا لي أن أجلب المجموعة كلها فبقينا نعلّق العلامات مدّة ثلاثة أيام.

سألتني زوفيا بينما كنا نعلق علامة عند محطة التطهير "كيف حدث وعثر عليك ليجكن؟"

فأجبتها "ربما كان معجبًا بي!"

قال بوريس "لا يوجد أحد مُعجب بك"

قالت أدينا "أصبت يا بوريس"

استخدمتُ بطاقاتي الإضافية لشراء دقيق الجاوردا، والكاشا والبطاطا. بينما بوريس جلب صحنًا مليئًا بحساء اللحم لكلّ فرد من أسرته. تفحّصتنا أمي جميعا بحثًا عن أي أثر لطفح جلدي، وفركت يدي لتُعيد الفحص وتتأكد من عدم وجود بُقعة تقلق بشأنها.

قالت أمي "الألمان رموا بعضنا فوق بعض فعاد الوباء للانتشار بعدما حاولوا الحدّ من انتشاره"

فقال أبي "لن يسبب لهم صدمة سماع ذلك"

والدة زوفيا حملت اختها الصغيرة سالسيا إلى المستشفى بسبب عدوى في الدم، فأخبروها أنه لا يوجد سرير متوفّر في المستشفيات كلها، فهي مخصصة لأنواع أخرى من الأمراض. باتت المستشفيات الأربعة مخصصة لعزل المصابين بالتيفوس. وقالت إن والدها أصابه الحزن لأن فتاتَي برايزن العزباوات قد توفيتا في مستشفى ستافكي.

سألتها "من هما فتاتا برايزن؟"

ذكّرتني بهما فقلت لها نعم، الآن أتذكر. ثم قالت "شامايا يفكّر في نفسه فقط" فضحك لوتيك وبوريس.

قلتُ "هارون يفكر في نفسه فقط"

"هل فكرت يوما ما في شخص آخر؟" سألت زوفيا. "في سبيل الله يموت موسى من العطش وتصير الألواح ترابًا"

سألت مستفهما "ماذا يعني ذلك؟"

قالت زوفيا "اعتاد أن يقول جدي ذلك حينما يخيب ظنه في أحدهم"

فقلت "وما الذي فعلته أنا!"

بوريس أوضح "أنت خيّبت أملها"

فقلت "ما الذي فهمه الجميع بينما لم أفهمه أنا؟"

كنت مُتعبًا من كوني واحدًا لا يهتمّ لأمره أحد، خاصّة هي. فرغبتُ أن أضرب أحدهم!

قالت زوفيا "تتصرّف بشكل طبيعي وكأن لا شيء حدث"

قلت لها "لماذا تقولين عني ذلك بينما لا تقولين عن الآخرين الأمر نفسه ؟"

قالت "أوه، كُفّ عن مضايقتي"

فقلت "أنا لا أضايقك"

قالت "اذهب واغسل نفسك" ثم أخذَت بيد أدينا وغادرتا.

• • •

سمعنا طرْقًا شديدا على بابنا صباح اليوم التالي قبل اكتمال شروق الشمس. خطت أمي فوقي في الردهة لترى من الذي هناك. حين فتحت الباب وجدت ألمانيّا قال لها أريد عشرين شخصًا بلُغة بولنديّة رديئة لكنها فهمته. قام يتطلع حولنا ونحن على الأرض ثم خطا فوقنا وأخذ يفتش الشقة. تحوّل للحديث بالألمانية حين وصل غرف النوم قائلا "اخرجوا اخرجوا".

أخذ أبي وأخويّ ووالد بوريس خارج الردهة وأغلقوا الباب. وقبل ذلك تمكنّا من رؤية الشرطة الصفراء في الخارج أيضا.

كانوا يتحدثون بينما أمي تذهب وتجيء بين الباب والموقد. عاد أبي وقال "أخبرونا أن علينا جميعًا الذهاب إلى معسكر العمل بضعة أيام، وبأن كل شيء سيكون على ما يرام. نحن في طريقنا للعمل، سنحصل على الطعام"

قالت أمي "أوه لا، أوه لا، أوه لا" وصاح بوريس لشخص ما إن أُغلِق الباب، فقد كان هناك جنديّ.

قال أبي: "توقفي. على الأقل نحن نعلم أننا مع الألمان سنحصل على وجبة الظهيرة: قليل من الحساء الساخن أو ما شابه" فتجادلت معه لكنّه أخبرها بأن الخبر السّار بشأن الذهاب إلى معسكر العمل هو أن العائدين سيتمكنون من تهريب الطعام معهم" ثم قبّلها، وانحنى وقبّلني أيضًا، ثمّ راح يتطلّع في عينيّ كأنه سيقول شيئا، لكنه انتصب وخطى مُسرعًا ناحية الرّدهة وأغلق الباب وراءه. بعد ذلك كانت أمي تنظر إلينا وكأن كارثة ستنقض علينا من الجدران.

قالت والدة بوريس أخيرًا "خُذها بعيدًا من هنا" وقالت لأمي " سأكمل التنظيف، اذهبوا قفوا في أيّ طابور في أيّ مكان" ثمّ سحبت الممسحة من يديها "افعلي شيئا لإطعام عائلتك".

جلست أمي عند منضدة المطبخ تضع كفيها على وجهها. قلت لها "هيّا بنا، لا معنى لأن تبقي منتظرة طوال الوقت مكتوفة اليدين" وقد كانت تلك العبارة أحد أقوالها. فوقفت على قدميها وجلبت قُبّعة وحقيبة وقادتني إلى الخارج.

المحلات التجارية في غيشا كانت خالية من الناس، والكراتين على نافذة العرض طُبع عليها عبارة "الصناديق فارغة". المرأة التي كانت تزيل القمامة بمقشتها القديمة داخلةً خارجةً من أحد المحلات، أخبرتها أن بعض اللحوم جُلبَت إلى جبلسكا من أحد المسالخ هذا الصباح. لذلك سِرنا طوال الطريق إلى هناك.

في شارع جايلنا مررنا بحشد من الناس مُتحلّقٍ حول امرأتين تغرفان حليبا رماديا من علبة قذرة. قرأت أمي المكتوب على لوحة الإعلان ثم

دفعتني بعيدا وهي تقول إنهم يطلبون مقابل ذلك أكثر مما يجب.
كانت تحدّث نفسها بينما تمشي. قالت إن النظر إلى ذلك لم يكلفنا شيئًا، ولو أنّهم يضعون لحم الحصان في الخل والماء، فسوف يلين. ثُمّ راحت تثبّت حذاءها أمام رواقٍ فيه استديو تصوير فوتوغرافي، وعلى نافذة العرض كُتب "جنود فيرماخت". مرّت أمامنا عربةُ نقلٍ يدويّة، فاشتكت أمي قائلة إن كل من كانت لديه ساق ويد قفزَ على درّاجة هوائية واشتغل مثل حمّال صينيّ.

قالت "والدك المسكين"

قلت لها "أما زلتِ واهنة؟"

قالت "ينبغي أن يأخذوا العازبين فقط، لقد كانوا في البداية يأخذون العازبين إلى معسكر العمل" ثم أكملت "لذلك كان هناك الكثير من حفلات الزفاف"

قلت لها "هل تريدين تثبيت حذائك مرة أخرى؟"

سألتني "وكيف حال حذائك؟"

أخبرتها "كلاهما جيّد"

مررنا على صبيّ يعزف بالكمان مقطوعة "بعل شيم توف[18]" للحصول على حسنات المارّة. توقّف عن العزف حتى صرت بعيدا عن كأسه الذي يعرضه لجمع النقود.

قالت "لا أعرف لماذا يعثر الألمان دائما على والدك! في أحد أيّام السّبت، اثنان منهم قاما بضربه دون مقدمات"

فأجبتها "لقد رأيت الكدمات"

أكملَت "وضربه آخر لأنه أدى له التحيّة! قال له: انت لست من جنود

(18) معزوفة تحمل اسم حاخام يهودي صوفي (Master of the good name) و لا توجد حقائق تاريخية عن سيرته فهي متداخلة مع الأساطير، و يقال أنه مؤسس حركة الحاسيديم. م.

كتيبّتي لتفعل ذلك!"
وأخيرًا أخبرتها "يعود الجميع تقريبًا بعد يومين أو ثلاثة من ذهابهم لمعسكرات العمل"
قالت "اعتقدتُ أنّهم سيمكثون هنا بضعة أشهر، ثم سيجعلوننا نعمل عملًا شاقًّا ما، بعدها سيغادرون فنستعيد سلامنا"
سألتها "تقصدين الألمان؟" لكنّها لم تجبني.
سألتْ أمي "هل تعتقد أن صديقك في الشرطة اليهودية يمكنه مساعدتنا في معرفة أين أخذوهم؟ أعني ذاك التافه الصغير ذا الأذنين الكبيرتين"
قلت "إنه ليس صديقي، كيف عرفتِ بشأنه؟"
قالت "هو من قال ذلك، لقد مرّ ببيتنا باحثًا عنك يومًا"
سألتها "ماذا كان يريد؟"
أخبرتني "قلت للتو إنه يريد أن يعثر عليك" ثم قالت "ربما وصلنا" وصعدت إلى مبنىً سكنيّ. لكن المتجر الذي كان هناك اختفى، وبدلا منه وجدنا طاولة مستديرة صغيرة في غرفة خالية من الأثاث مع رجل مسنّ يحاول أن يُخفي لحيته بلفّ قماش حول وجهه، كأنه يعاني من وجع الأسنان.
قالت حالما عُدنا إلى الشارع "صديقك واحد من أولئك الشرطة الأذكياء الذي لا يحبّون توجيه الأوامر للناس حولهم. لذا هو دائما يقول لك لماذا ينبغي عليك القيام بالأمور التي يُريدها. يمكنك أن ترى في عيونهم ما يريدون ألّا يظهر على وجوههم"
قلت لها "هو ليس صديقي. لكن إذا رأيته سوف أسأله إن كان يعرف أي شيء"

قادتنا على جسر خشبي عبر شارع بشبياك، وفي نهايته توقفت عند أناسٍ كانوا ينظرون إلى فيستولا. شاهدنا البارجة تطفو أسفل النهر، وأمكننا رؤية أعشاب خضراء صغيرة على الجانب الآخر. وضعت يدها على كتفي فوضعتُ يدي على ظهرها. وأخيرا نزلنا أسفل الجسر.

قالت لي "حينما كنتُ فتاة صغيرة وجائعة، اعتدتُ الذّهاب للوقوف أمام دكاكين المخبوزات. كما لو كان مجرد النظر سيسدّ جوعي. وذات مرة أكلت مخلّلات كنت سرقتها من برميل فعانيت من الإسهال"

قلت "أعتقد أنّك تعلمتِ ألّا تسرقي"

قالت "السرقة تُعتبر خطيئة دومًا"

فقلت "المجاعة مؤذية دومًا"

قالت لي إن كنت أعرفُ أن الحال السيّئة وصلت بالناس إلى حدّ أن يقولوا "باع فلانٌ وعاء مطبخه" بدلا ممّا اعتادوا قوله "باع فلانٌ القميص الذي يرتديه" منذ أن أصبحت مطابخهم لا تتوفّر على شيء.

قلت "أعرف ذلك."

قالت "من الصعب أن تحافظ على السلام بداخلك في أوقات تناول الطعام حين يمكن لعوائل أن ترى عوائل أخرى صحونها ممتلئة" كنت سَئمًا من كل شيء ومنها هي أيضًا. مشيت معها وكأنها مشكلتي الكبرى، وكانت تتطلّع نحوي كأنها تعرف ما أفكر به.

قالت في النهاية "أنا غاضبة من الأغنياء لأنهم لا يقومون بواجبهم تجاه الفقراء"

سألتها "لماذا يجب عليهم ذلك؟"

قالت "يمكنك أن ترى أطفال الشوارع وهم يبكون من الجوع طوال الليل"

قلت "ومن ليس كذلك!"
أضافت "الناس الأغنياء... يجب عليهم أن يساعدوا أكثر مما فعلوا"
في البدء لم نر أحدا في شارع غوزوبوفسكا. ثمّ رأينا رجلين أومآ لنا لندخل شقّتهما حيث كانت فيها امرأتان تتجادلان معهما حول برميل مفتوح.
قال أحد الرجلين "إنه لحم، رغم أنه مفروم، فهو لحم"
قالت إحدى المرأتين: "يجب أن تخجل من نفسك! لن آكل ما أعددْته من فضلات أيها الأحمق!"
فرد عليها الرجل "لم يُجبرك أحد على أكل أي شيء"
سحبتني أمي للخروج إلى الشارع قائلة "هناك متجر آخر على شارع سيغلانا. وجهها جعلني أشعر بالخجل ممّا فكّرتُ به. كنا نتناوب في الضغط على كفّ بعضنا البعض ونحن سائرين. وحينما وصلنا إلى طابور طويل سألتها إذا ما كان هذا هو المتجر الذي نقصده؟
قالت "هذا هو المكان"
رأيت أطفالًا يصطفون في خط طويل لبيع السجائر والحلوى، وكانت هناك الشرطة الصفراء لتحمي الشارع من هجمات العصابات. وصادفنا امرأة تعرف أمي. سألت عن حالها وكيف تدبّر أمورها. هزّت أمي كتفيها قائلة "لا شيء معنا يجلب السعادة". كان سعر كيلو الطحين خمسة وثلاثين زيلوتي، ولم يكن هناك المزيد من الخبز المصنوع بالقمح الأخضر عدا أرغفة قليلة مصنوعة من النخالة وقشور البطاطا. اشترت كيلو طحين بستة عشر زيلوتي، كان لزجًا وله رائحة جافة. وقد قلّبته عدّة مرات في يدها. "لو مزجوه بكثير من النشارة فستشعر وكأنك تأكل الشّارع" قالت أثناء سيرنا، ثمّ ضمّت

قرص الخبز إلى وجهها بسعادة حين ظنت أنني لم أكن أنظر إليها. تخطّينا بضعة أحياء قبل أن تضعه في حقيبتها أخيرًا، ثم ضربت بكفها مرتين لجلب الحظ الجيد، وأمسكت بيدي مرة أخرى لنكمل طريقنا إلى البيت.

تواجه عصابتنا مشكلة مع عصابة أخرى تفوقنا عددًا. لقد أرسلنا بضاعة مع زوفيا وأدينا، عبارة عن كيسَي وسائد، محشوّين بحبوب فول كنا سرقناها. لكن العصابة الأخرى كانوا أكثر دهاءً، فقد تتبعتهما وأخذت منهما الحبوب، وطرح أحدهم أدينا أرضًا حينما حاولتْ الاعتراض، فنهضت وصفعت وجه زعيم العصابة فاجتمع معاونوه حولها وانهالوا عليها ركلًا.

قال بوريس للفتاتين "أنا وهارون سوف نعتني بذلك"

قلت "نحن؟"

قال لوتيك "أنتما؟ ولماذا هو؟"

قال بوريس "لأن ثلاثة أشخاص سيكون كثير جدا"

قال لوتيك "ولماذا ليس أنا؟"

قال بوريس "لأنه حان الوقت كي يلعب دورًا ما في ما نقوم به"

سألت أدينا "ما الذي تنوي القيام به؟"

أضاف بوريس "نحن ذاهبون لفرض تعريفة"

"ماذا يعني ذلك؟" أرادت أدينا أن تعرف، لكن بوريس أجابها "سوف تعرفين لاحقا"

في صباح اليوم التالي قادني إلى بوابة شارع كلودنا وقال "ذلك الشخص هو الزعيم" مشيرًا إلى صبيّ يرتدي قبعة منقوشة وحمالات بنطلون،

يتسكع بجانب عائلة تعرض أشياء للبيع في صندوق على المارّين في الشارع.

"كيف أمكنك أن تعرفه؟" سألته، لكنه تجاهلني واستخرج جرة عسل من تحت ثيابه وسلمّها لي -تلك التي جلبها أهله معهم حينما جاؤوا إلى شقتنا- وقال "عندما كنتُ صغيرًا قلت لنفسي إنه إذا لم أتمكن من أن أكون أطول من أيّ شخص آخر، فإنه يمكنني أن أغدو على الأقل أكثر شراسة" ثم أمرني أن انتظر نصفَ ساعة، ثمّ أمرّ بزعيم العصابة، وبطريقة ما أدعه يلمح جرّة العسل عندي، وعندما يتبعني عليّ أن أقوده إلى ميرو. ثمّ قال للتأكيد عليّ أن أبقى على الجانب الأيسر من الشارع نزولًا عند شارع ميرو، وإذا ما تبعني أكثر من اثنين منهم فيجب أن أخلع قبّعتي مرّة واحدة بينما أنعطف إلى شارع إلكتورالنا. وقال لي إذا تمالكتُ نفسي ولم أرتبك فلن يلمسوا شعرةً من رأسي.

"ماذا ستفعل؟" سألته.

"اخرس واحمل العسل" قال.

"نحن لا نعرف حتى كيف يبدو" قلت له.

قال "إنه قاطع طريق، مثلنا"

انتظرت ثم فعلت كما طلب مني. في البداية اعتقدت أن الأمر لم ينجح، لكن حين وصلت إلى شارعا سولنا، التفتُّ إلى الوراء فرأيت الصبي يتظاهر بأنه ينظر نحو واجهة أحد الدكاكين.

ثمّة في شارع إلكتورالنا من الناس القليل، وكانوا أقل في شارع ميرو، نظرًا لأن ميرو يقع في منطقة صغيرة جدا وتؤدي إلى طريق مسدودة وليس فيها مبانٍ مسكونة، فقط مدخَل دكّان عليه نصف يافطة

تستند إلى الأنقاض. استطعت من خلال النوافذ عبر الشارع أن أرى الفتى وقد اقترب مني أكثر. ماذا سأفعل إذا وصلت إلى نهاية الطريق؟ ذلك هو ما يدور في خلدي أثناء عبوري البوّابة، فإذا بي أرى بوريس واقفا على الأنقاض وأصبعه على فمه مشيرا لي بالسكوت، بينما يحمل طوبة في يده الأخرى.

التفتُّ لأواجه الفتى الذي توقّف وقد أدرك الخطة بعد فوات أوان التراجع. وكان بوريس يلوح بالطوبة في يده محاولًا تسديدها، ثم ألقاها فطرح الصبيّ على الرصيف، ثمّ جرّه من كتفيه إلي حيث القبو المتهدم حيث لن يتمكن أحد في الشارع من رؤيتنا، فتبعتهما. التقط بوريس طوبة أخرى وضربه بها مرة ثانية بلا رحمة.

"ماذا فعلت؟" سألتُه بهلع.

"لماذا التفتّ نحوه؟" قال لي وقد بدا غاضبًا عليّ أكثر من غضبه على الصبي.

"هل مات؟" سألته، وكنت أرى أن ذلك لم يحدث، فقد كان رأسه يتأرجح ذهابا و إيابًا بينما يداه مقبوضتان. جلس بوريس القرفصاء وأخرج دبّوسًا وورقة كُتب عليها "عش ودع غيرك يعيش" وثبّتها إلى قميص الصبي.

قال "أعطني العسل.." ثم جرّني مرة أخرى إلى الشارع.

قلت له "هل سنذهب ونتركه؟" لكننا كنا تركناه بالفعل.

بعد ظهر ذلك اليوم كان شارع كلودنا لنا وحدنا. قال بوريس إن العصابة الأخرى ربما ما تزال في الخارج تبحث عن زعيمها. استخدمنا عشرة أو اثني عشرة طفلًا أصغر منّا كي يخترقوا البوّابة كتفًا إلى كتف بأقصى سرعة، فراحت الشرطة الزرقاء والصفراء تضرب وتمزق

ملابسهم بقدر ما استطاعوا. لقد دفعنا لكلّ واحد منهم قطعةً من حلوى السكرين، وأخبرناهم أن ينتظروا خارج البوابة حتى تزدحم فيعودوا من جديد. وجد بوريس كل ذلك ممتعا. قال بوريس إنّه بما أن المال قد دفُع لنا لتهريبنا الحمولة الحالية، فسوف ننقسم لنشتري من المحلات التجارية الآريّة خارج الحي اليهودي. قال إن على المرء أن يسير ببطء ليتجاوز الشرطة كما لو كانوا بائعين يعرضون بضاعتهم، وألّا نركض حتى لو أقدم أحدهم على التحرّك خطوة أو خطوتين نحونا. وأنّه لابد أن ننظف ملابسنا وأحذيتنا قدر ما نستطيع قبل المغادرة. وإذا دخلنا الدكاكين فإن علينا أن نسأل عمّا نريده كما لو كنا نملك المكان.

"كيف حال أختك؟" سألت أدينا زوفيا، فصفعتُ رأسي لأنني لم أسأل عنها بنفسي.

قالت زوفيا "سالسيا وضعها سيء"

احتضنت أدينا زوفيا، فسألتها زوفيا "هل أنت مريضة؟" فقالت أدينا إن عائلتين انتقلتا إلى شقتهما مؤخرا. إذ بينما كانت تلكما العائلتان تجلسان وتحادثان أحد أعمامهما، قدِمت عائلة أخرى. لم تكن لديها أدنى فكرة أين يمكنها وضع كل أولئك. قالت "نحن الآن ستّة أشخاص في كلّ غرفة" وأضافت "ثمّة في القبو زاوية يقطر الماء منها دومًا، جوار رأسي، باستمرار، طوال الليل. طلبنا منهم إصلاحه لكنهم لم يفعلوا". رأينا في الساحة أحد أفراد الشرطة الزرقاء يمسك بصبيّ من قميصه وقد مزّقه من الخلف.

سألتني زوفيا "هل آذيت نفسك؟"

قال لها بوريس محاولًا إخفاء الأمر: "لديه لثّة سيئة. ألا تشمين

أنفاسه"
فلم أستطع تمالك نفسي وأخبرتهم بما فعل بوريس.
"بالطّوب!!" قال لوتيك حينما انتهيت.
فقلت "على رأسه"
قالت أدينا مبتهجة: "فليحيَ بوريس!"
فأجبتها بقلق "أظنّه مات!"
قال بوريس "كان ينبغي عليه أن يدرك بأن السرقة خطيئة"
سألت زوفيا "وهل تظن أنهم سوف يتركوننا وشأننا الآن"
قال بوريس "إذا لم يتوقفوا عن ذلك فسوف تأتيهم طوبة أخرى على الرأس"
أدينا "فليحيَ بوريس!"
قال لوتيك لأدينا "لقد سبق وقلتِ ذلك"
ثم فهمت الآن لماذا اختارني بوريس بدلًا من لوتيك.
قلت مرة أخرى: "إنه قد يكون ميتًا حقًّا. لكنهم جميعا بدوا غير مكترثين"
أرادت أدينا أن تعرف "لما نحن باقون هنا؟"
فقال بوريس "نحت ننتظر تأكيدا من الجانب الآخر"
كان ينبغي علينا نقل موقع التبادل، فأرسلنا ملاحظة مع أحد الأطفال الصغار. سألتُ زوفيا إن كان والدها ما يزال حزينا على فتاتَي برايزن؟
قالت "وماذا يهمك في ذلك؟"
فقلت "لقد سألت عنه، ألم أسال؟"
قال بوريس "شمايا المسكين، لا يصدّق أحد انّه قد يهتمّ بأحد آخر!"
فقالت زوفيا إن والدها أصبح أفضل من هانكا ناسيلسكا، فالأخيرة ما

زالت تبكيهما ليلَ نهار. قالت لبوريس "لقد رأتني هانكا ناسيلسكا معك فقالت: قطعةُ لحم محرّمة في وعاء محرّم!" فضحك بوريس.

سألتُ: "وماذا كنتِ تفعلين معه؟"

قالت لبوريس "قالت لي إنها ستطهّر فمي مرّة أخرى. فقامت بوضع حجر في وعاء يغلي، لكنني صرخت لرؤيته بأنه ساخن جدًّا، فقامت بتبريده قليلا قبل أن تضعه في فمي"

سأل بوريس "إذن هكذا يقومون بتطهير الفم؟"

أشاحت زوفيا وجهها بعيدًا، وراحت تمسح دموعها، فلكزت أدينا ذراع بوريس.

قالت زوفيا "لا يوجد بيننا يهوديّ صالح"

قال بوريس "اليهود الصالحون يشترون ما نجلبه"

قالت أدينا "وماذا عن أخيك؟"

أجابت زوفيا "وماذا عن أخيكِ أنتِ؟.. أخيك الأكبر"

قال أدينا "إنه يؤدي الصلوات بنفسه طوال أيام الأسبوع، ويذهب للقداس في أيام العطلات عندما يقيمونها. انت تعرفين ذلك كله، أليس أعمامك متديّنون؟"

قالت زوفيا "أحد أعمامي ذهب إلى الشول[19] لكنه لم يفلح في أن يصير قسًّا قط، لقد كان يذهب ليجلس هناك وحسب. بينما عمّي الآخر لم يدخل الشول قط، ورغم ذلك فهو يحاول أن يجلب لهم الشبوط أو الأوز أيّام السبت"

ثمّة طفل لم يستطع عبور البوابة مع بقيّة الأطفال. بدأ يتردد على بوريس من أجل حلوى السكرين خاصته، لكن بوريس يحدجه كي

(19) Shul دار عبادة تقام فيها فصول لدراسة التعاليم الدينية اليهودية. م.

يبقى بعيدا.
قالت أدينا بمرارة "ها هنا شمايا، لم ينتقل معهم للعيش سوى أربعة أفراد. لقد انتقلت قرية كاملة لتعيش معنا!"
قال بوريس "كان يمكن أن يحدث الأسوأ لعائلته! فإن لديّ ستّة بين أخ وأخت، لكنّ خمسة منهم ماتوا أطفالًا"
قالت زوفيا "يا لأمك المسكينة"
قال لوتيك "وانظروا إلى الابن الذي عاش!"
قالت زوفيا "اعتدت أن أقول لأمي إنني أخاف من أنّي لن أتمكن من الإنجاب. وهي اعتادت أن تقول لا تقولي ذلك، فسوف تنجبين أطفالا، سترين.."
قال بوريس "ربما هذا العام تنجبين!"
ضحك لوتيك.
قالت أدينا "في موطني الذي جئت منه، الفتيات قويات لكنّهن لسن ذكيّات. لبعض الوقت كنت أظن أن الحمل قد يحدث بسبب قُبلة"
قال بوريس "من قُبلتي أنا يمكنك ذلك!"
فجعل لوتيك وأدينا يسخران منه لمبالغته المتبجحة.
قالت زوفيا "إنها لمعجزة... إنني إنسانة طبيعية. إذا كنت حقًّا طبيعية !"
فقال لوتيك "لستِ طبيعية"
فردّت عليه "أنا أعرف أنّكَ أنت من ليس كذلك!"
عند البوابة، طال أمر انتهاؤهم من التحقّق منّا. فالتحقّق من أوراق كل شخص يستغرق حوالي نصفَ ساعة، عبر ثلاث نقاط حراسة. لا أحد من آبائنا كان في التجمع ولا إخواننا كذلك.

أدينا سألت بوريس "هل قمت يوما بأداء دور في مسرحية أثناء عطلات اللعب في الخيدر؟" وعندما رأت نظرته لها قالت له "إنني أسأل فقط.. ما مشكلتك؟"

الصبيّ الذي مُزّق قميصه كان يصيح في الساحة من شدة الضرب الذي لقيه. وحيث كان يجلس متقرفصًا أصبح المرور حوله. كان يحاول الوصول إلى الجزء الذي جُرح من ظهره.

صاح به لوتيك "كفى ضجيجًا!" فتحول صراخ الصبي إلى بكاء وهو يجلس متقرفصا على التراب دون أن يقف.

قال بوريس "سوف نرى ما يحدث" ثم وقف وعبر الشارع إلى الصيدلية.

أدينا سألت "إلى أين هو ذاهب؟"

قال لوتيك "من الطابق الثاني، يمكنكِ أن تري ما على الجدران"

بعد بضع دقائق عاد بوريس، تشقلب على يديه ولاحت رجلاه في الهواء قبل أن يستقر.

قال بوريس "ما زال الطفل هناك، إنني لا أعرف ماذا ينتظر"

أخيرًا وقف الطفل المقرفص، وتوجه ناحيتنا مثل أعرج صغير.

قال بوريس "هذا ما كان ينقصنا"

قال الصبي حين وقف أمامنا "أعطوني حلواي"

لا أحد في مركز الحراسة انتبه لنا، فقد كانوا مشغولين.

قال بوريس لزوفيا "أعطيه حلواه"

فاستخرجت قطعة من جراب صغير في حزام تنورتها.

قال الطفل "ينبغي أن أحصل على اثنتين"

إحدى عينيه كسولة ما جعله يبدو أقبح مما هو عليه.

سأله بوريس "ولماذا تحصل على اثنتين؟"

قال الصبي "لأنني تلقّيت ضربًا مبرحًا، لأنني ضُربت"
قال لوتيك للصبي "وفقًا لذلك فإنّه يجب أن أحصل أنا على أوزة مشوية! لكن لا أحد يحصل على ما يشتهيه دائما!"
كرّر الصبي "يجب أن أحصل على اثنتين"
قال بوريس "ابتعد عنّا وإلّا سنريك كيف يكون الضرب!"
قال الصبي "سوف أخبر الشرطة!"
فنهض بوريس ورفعه من عنقه بيد واحدة.
"ماذا تفعل هناك؟ أنزله إلى الأرض!" صرخ أحد ما فأخافنا. لقد كان كورتشاك، الطبيب العجوز! ثم أكمل "عليك أن تخجل من نفسك"
وحلّ كفّ بوريس عن عنق الصبي. ثم وقفتا أدينا وزوفيا على أقدماهما.
قال بوريس "ارحل من هنا أيها المُسنّ، إنني أستطيع شمّ رائحة الفودكا فيك!"
فانتصب الرّجل في وقفته. أمّا أنا فلم أشتمّ أيّ فودكا في الرجل.
قال الرجل "انتبه لما أودّ قوله، فقد يفيدك كثيرًا"
أدينا قالت لبوريس "هذا هو الطبيب العجوز. وهو الذي يدير ملجأ الأيتام."
فبقي الرجل العجوز منتظرًا، كما لو كان التعريف به سيغير شيئًا.
قال بوريس "هل أتيت لتلقي علينا محاضرة ما، أم أن لديك نصيحة ما؟"
قال كورتشاك "لدي اقتراح. أقترح عليك ترك أيتامي وشأنهم، أقترح عليك ترك كل هؤلاء الأولاد وشأنهم"
قال لوتيك "من الذي جعلك ملكًا على العالم؟"

زوفيا قالت لكورتشاك "أنا آسفة لأجل أصدقائي"
كورتشاك قال للصبي "يا ميتيك، اذهب إلى المنزل" فتحرّك الصبي وراء كورتشاك. وبذلك صنعا ثنائيًّا عجيبًا: رجل عجوز بنظارات قذرة ووراءه صبيّ عارٍ بعين كسولة.
قال بوريس "ترتدي سراويل مثل المتشردين"
فقال كورتشاك "حتى المتشرّدون لن يقبلوا بلبس سراويلي"
قال بوريس "هل تعرف أين وجدته؟" وأومأ إلى الصبي. "يبحث في القمامة! ربما يجب عليك إطعام أطفالك"
قال كورتشاك لبوريس "باستطاعة كل من اعترض طريقي أن يخبرك أني قادر على الرّكل بضراوة"
سأل بوريس زوفيا: "أهذا الحُطام القديم يهددني؟"
قالت أدينا "بوريس دعنا نذهب"
بوريس قال للصبي "يا صبي، هل جعلناك تفعل أي شيء؟"
قال كورتشاك "أنت لا يهمك ما الذي حدث، أو من جُرح، المهم أنّك في أي وقت تجد لنفسك قطعة خبز في مكان ما، أليس كذلك؟"
فرد عليه بوريس "ها أنت تطلق الأحكام علينا، إنك الرجل المهم في بيتك الخاص!"
قال كورتشاك "بيتي الخاص؟ ما الذي لدى اليهودي؟! نحن لا نملك أي شيء"
فقال بوريس "ربما المنازل لكم، لكن الشوارع لنا"
قال كورتشاك "الشوارع لكم؟ انظر من حولك"
قال بوريس "كل ما نفعله صحيح"
قال كورتشاك "دع أولادي وشأنهم"

قال بوريس "هيا عُد إلى دار الأيتام، ووزّع بعض الحساء"
اقترب الرجل العجوز من بقيّتنا وقال "مقابل كلّ واحد يتصرف مثل هذا الصبيّ، ثمّة هناك صبيّ آخر يتصرف بأدب واحترام" ثم غادر وهو يضمّ الصبي من كتفيه. أمّا الفتى الذي كنا ننتظره، فقد عبر البوّابة أخيرًا ليخبرنا إن ترتيباتنا الجديدة تسير على ما يرام.

• • •

في كل صباح تتوسلني أمي للذهاب إلى المقر الرئيسي للشرطة لأرى المعلومات التي يمكن أن يزوّدني بها ليجكن. أحيانا أنتظر حتى الظهيرة قبل أن يراني. أخبرني أن أبي مع أحد أخوَيّ ما زالا معًا وهما يعملان في ثكنات منظمة الأمن والمراقبة في شارع راكويسكا قُرب ثكنات الفرسان في منطقة شوفيزك. ثم ينثران طوب الفحم على الخط الجانبي للسكك الحديدية خارج المدينة. وقال إنه يعتقد أنّهم قاموا ببعض أعمال بناء الطرق، وأنهم لم يدفعوا له الأجور منذ أن أصبح المجلس اليهودي مسئولا عن الرواتب. لكنهم أعطوهم الخبز والفجل. كان يعتقد أنهم في معسكر غابات كامب إكس. أما أخي الثاني ووالد بوريس فلا يعرف عنهما شيئا. وقال إن الأُسَر التي لها عائل رئيسي تم اختيارها للمخيمات المؤهلة للحصول على قليل من الرفاهية يمدها بها المجلس اليهودي رغم أنه ليس متأكدًا بشأن مَن هو المسؤول عن ذلك. وقال أيضًا بما أنني الآن في الثالثة عشرة حان الوقت لأكون مُسَجّلًا. لكني أهملتُ هذا ممّا ذكرته لأمي.
قال إن لديه معلومات أكثر أهميّة من ذلك. قال إن ترنياكوف

بنفسه تدخّل شخصيا حول حالة المخيمات مع رجل في منظمة الأمن والمراقبة، المسؤول عن الشؤون اليهودية، ومدير وزارة العمل اليهودي في اريسامت، وكلاهما وعدا بغذاء أكثر وظروف أفضل.

في أحد الصباحات، وبينما يهطل المطر، فتحتُ بابنا وإذا بليجكن يقف في الرّدهة وبجانبه رجل من مكتب منظّمة الأمن. الرجل كان طويل القامة وعلى قلنسوته أثر المطر.

ابتسم الرجل وتخلص من الماء على كُمّي المعطف الواقي، وأزاح ليجكن جانبًا بيده وقال "صباح الخير" بالألمانية.

بدا صوته كمن كان سعيدا وطال صبره كثيرا مع أطفال أساؤوا التصرّف كثيرًا. سألني بالبولندية إن كنت أتحدّث الألمانية. وحينما أجبته بالنفي، أومأ الرجل برأسه وراح يمسح حذاءه بشدة حتى أنه قسّم ممسحة الأرجل القديمة إلى نصفين. كمّه الأيسر من سترة العمل مثنيّ داخل حزامه، ليس فيها ذراع.

رآني أتطلع ناحيته وقال "الحرب ليست أمرًا مُسليًا، وكصبيّ صغير، ألا تشعر أنك محظوظ؟"

قدّمه ليجكن لي على أنه أوبرستنفر ويتوسك. فقُلت مرحبًا، وبدت اللغة الألمانية مضحكة بلهجتي. تظاهر بوريس أنه نائم على الأرض بالقرب من قدمي. قال الألماني "كان بودّي أن أستأذنك بالدخول، لكن يبدو أن الوقت غير مناسب الآن"

قال ليجكن "لغته البولندية جيّدة، أليست كذلك؟"

قال الألماني "هل أنت هارون روجيستكي؟"

فقلت له "نعم"

قال الألماني "هل يمكنك أن تتقدم إلى الردهة؟"

"هارون.." نادتني أمي من المطبخ.
وقفتُ في الخارج، وأغلق هو الباب خلفي. النافذة التي في الممرّ كانت مكسورة وبدا صوت المطر أعلى. والعائلة التي كانت تخيّم تحت تلك النافذة قد قامت بعمل عريش يبقيها جافة.
قال لي الألماني إنه يريد مني الحضور إلى مكتبه الواقع في شارع جيلازنا. عشرات اليهود باتوا هناك بالفعل، وقد أوصى ليجكن بي. ماذا كان يجب عليّ أن أفعل في مثل ذاك المكان؟ هذا ما أردت معرفته.
قال "إنّ الأمر يتعلّق باليهود بعض الشيء. وصديقك جزء منه، وهو الذي أوصى بك.." كرّر ذلك.
فقلت "أوصى بي لأجل ماذا؟"
فقال الألماني "حسنًا، هناك الكثير لتكتشفه دائمًا حين تحاول أن تحشر نفسك فيه!"
نظرتُ إلى ليجكن الذي هزّ كتفيه.
قال الألماني "أو تستطيع أن تخدم في معسكر العمل، هل لديك بطاقتك الخاصة؟"
فقلت "أنا غير مسجل حتى الآن"
قال الألماني "إنها 103 زيلازنا"
"صديقك يمكنه أن يخبرك إذا ما كنت تحتاج لمعرفة أي شيء آخر"
قال ليجكن "لا يوجد أي شيء آخر يحتاج لمعرفته"
"آوه نعم" قال الألماني بينما يهم بالمغادرة.
فتح باب الشقة وهناك كانتا تقفان أمي ووالدة بوريس فاغرتَي الفم.
قال الألماني "هل يمكنني أن أسألكما أن تعطياني شيئا يرمز إلى ديانتكما؟"

نظرتا إحداهما إلى الأخرى، وقالت والدة بوريس "شيء يرمز لديانتنا؟"
قال الألماني "نعم شيء يتعلق بالذي تعتقدين به"
قال ليجكن "شيء من الذي تؤمنون به"
قال الألماني "لتكون بمثابة سحرا!"
بينما نحن ما نزال نقف هناك، أضاف "كانت لدي واحدة من قبل من كولونيا ويمكنك أن ترى ما حدث بعدما فقدتها"
غادرت والدة بوريس المدخل، وأمي تحدق فقط.
"صباح الخير" قال الألماني لها.
أجابته "صباح الخير"
وعادت والدة بوريس تحمل المزوزا[20] وناولتها الألماني. فشكرها حالما تسلّمه. ثم قال إلى اللقاء بالألمانية.

ظل بوريس يوما كاملا سعيدا لأن أحد من نتصل بهم خارج الجدار أخبره بأن هناك الكثير من الخبز يجري تهريبه إلى الغيتو، هو من الكثرة بحيث بات هناك نقص فعليّ في الخبز **في جهة أخرى.**
الحفرة القديمة في الجدار التي عملها لوتيك قد خُرّبت، وأُعيد فتحها مرارًا حتى أصبح الناس يطلقون عليها الثّقب الخالد. أزال الألمان السقيفة التي شيدت عليها. قال بوريس بأن الثقب أثبت أن هناك ثلاث قوات لا تقهر في الكون: الجيش الألماني، والبحرية البريطانية، والتهريب اليهودي.
الحُرّاس في بوّابة شارع كلودنا طوّروا خطّة جديدة لجني المال، باتوا يُعلنون عن فرض حظر التجوّل قبل عشرين دقيقة على حلول وقته

(20) التوراة. Mezuzah

الرسميّ، عندها يطالبون بعشرين زيلوتي ثمنًا لضبط ساعاتهم على الوقت الصحّيح وإخلاء سبيلك. ولهذا عدنا إلى الثقب الخالد. رتّب بوريس جدولًا زمنيًّا مع العصابات الأخرى التي تتيح لنا المتاجرة قبل حظر التجول وبعده. ذهبنا وقمنا بالشراء والبيع اثنين اثنين، وإذا لم نرَ الزّوجَ الذي معنا وراءنا، فعلينا ألّا ننتظره.

في الأحوال الجوية السيئة تمشي زوفيا قُدُمًا واضعة حذاءها على رقبتها، رابطةً الخيوط بعضها ببعض بعض. قالت إن حذاءها مناسب لها بالفعل، فإذا خرب لن تجد زوجًا آخر مناسبًا مثله.

بوريس لم يذكر لي الرّجُل الألماني وليجكن بعد مغادرتهما، وتجاهل كيف كانت أمي مستاءة من ذلك. لكن بعد أربعة أيام استوقفني ونحن ننزل الطابق السفلي، وسأل إذا ما كنت أتظاهر كما لو أن شيئًا غريبًا لم يحدث! فسألته "ما الذي تتحدث عنه؟"

قال بوريس "وهل تعتقد أنهم سوف ينسونك؟ هل تريد حقا أن تتزلف إلى ذلك الألماني؟"

فقلت "كنت أنوي الذهاب"

قال بوريس "لا تحاول أن تكون غبيا جدا. هؤلاء الناس الذين بيدهم السلطة، هؤلاء الناس الذين ستذهب إليهم يمتلكون المعلومات مسبقا "

فقلت "أي معلومات؟"

فقال بوريس "أي معلومات مهما كانت! أين سيكون القفز، وما هي بوّابات اللعب، ومن هم اللاعبون المتواجدون هناك، ومن هم اللاعبون في الجهة المضادة، ومتى.."

فقلت له "أنا أعرف ذلك"

فقال بوريس "استعمل عقلك!"
قلت "قرّرت أن أذهب"
قال بوريس "اذهب إذن ولا تقف جواري"
لكن لجيكن لم يكن هناك، ولا أحد يعرف ماذا عليّ القيام به. أُخبرتُ أن أبقى مُنتظرًا في الردهة. كان منزلًا خياليًّا كبيرا، أرضيته من الرخام. يردد صدى خطوات أقدام الجميع.
الشرطة الصفراء جاءت ثم ذهبت. اليهودي الوحيد الذي عرّف بنفسه هو صبيّ تلميع الأحذية أجزيك، جلس قبالتي في القاعة الأمامية مع عدد قليل من سائقي العربات الذي ينقلون الألمان في أنحاء الغيتو. كل صباح يحملون ما يشبه المطبخ الكامل، وبعد الظهيرة كراسي الحلاقة، وصناديق الخشب وصناديق أخرى كذلك. لم أكن تناولت طعام الإفطار فسألت إن كان هناك ما يؤكل لكن لم يجب أحد. أكثر من مرتين سألت عمّا يحدث هنا، وفي كل مرّة يطلبون مني الانتظار. وفي المرة الرابعة قدّمت لهم نفسي وطلبوا مني العودة في اليوم التالي. فنزلت الدرج وجريت إلى ليجكن الذي قال إنه يجب عليّ العودة يوم الجمعة.

في المرّة التالية التي ذهبنا فيها للثقب الخالد، كان جنديّ ألمانيّ يقف أمامه، بينما يهوديّ يرتدي ثوبا فضفاضا يقوم بتفريغ عربة يد مملوءة بالصفائح المعدنية. إن الأبنية كانت جنبا إلى جنب بأسقف مائلة فيها نوافذ بارزة تخبّئ الشارع، لذلك صعدنا لأعلى كي نرى. كنا قد وجدنا مكانا جديدًا للنفاذ قبل أسبوع، نصل إليه من خلال فتحة في سقف غرفة بوّاب في الطابق العلوي. كنا جميعا مناسبين للعبور

عبر النوافذ، وعلى أحدنا في كل مرة أن يبقى لمتابعة ما يجري أدناه. قام رجل بعقد ملاءات فوق الحفرة وضربها بالمسامير. مطرقته على المعدن لها صوت مدوٍّ ما جعل زوفيا تسدّ بأصابعها أذنيها.

قال بوريس بعد أن ألقى نظرة "تلك الأشياء ستنفك حالا". وكانت لديه سيجارة يدخنها، لقد جمعها من الشوارع حيث يستخدم مسمارا كي يدخنها حتى نهايتها.

قالت أدينا "إنه لنسيم عليل"

بقينا هناك للاحتفال بعيد ميلاد زوفيا. قال لوتيك إن عمره سيصبح ثلاثة عشر عمّا قريب، جعلتنا أدينا نكتب تمنيات طيبة لزوفيا في أوراق صغيرة، ونقدم لها هدايا. قرأت زوفيا جميع الأوراق التي وصلتها ثم ثنتها ووضعتها في الحقيبة التي في حزامها.

كتبتُ لها "أنت أطيب شخص عرفته فشكرا لك لأنك تجعلينا أسعد"

ثم جاءت هداياانا، أعطاها بوريس حزمة كرز ملفوفة في ورق جرائد. وقدّم لها لوتيك وشاحًا مع أبراج. وأعطتها أدينا علبة مربى. وأنا أعطيتها كتابًا أسود منمنمًا قلت إنه كتاب مذكراتي اليومية. زوفيا شكرتنا وقالت إنه يتوجب علينا مشاركتها الكرز، وإن عيد الميلاد هذا هو أفضل ما مر عليها فيما مضى من زمن. ثم قالت "أعلم أنه من الصعب تصديق ذلك".

قالت إنها في صِغرها حين ما زالوا يعيشون في شقتهم الجميلة تلك، لا تسمح لها والدتها باللعب مع الأطفال الآخرين في فنائهم، وبدلا من ذلك أرادت أن تُرضي نفسها بعيد ميلادها، فخرجت إلى الشرفة ورمت القواطع والدمى المصنوعة يدويا ونادت خارجا "أيها الأطفال تعالوا

خذوا هذا!" وشاهدتهم يلعبون. فقام أحد الأطفال وكتب بالطباشير على درجهم "زوفيا مجنونة".

قالت أدينا "يا له من عيد ميلاد بهيج"
ثم سألت مرة أخرى عن سالسيا فقالت زوفيا إنها تصبح أفضل إذا ما تمكنوا من إسعادها بطريقة أو بأخرى، وإنها تركت الدبّ المحشوّ المفضل لديها حينما غادروا إلى الغيتو، لأنها لا تعرف أين كان طريقهم، لكنها كانت تعرف أنه سيكون مكانا سيئا.
لوتيك قال أخيرا "حسنا هذه قصة عيد ميلاد أخرى جيدة"
قالت زوفيا "إن لديها دبًّا آخر الآن"
أدينا قالت إنها حوصرت في عيد ميلادها الماضي. امرأة بولندية أمسكت بها في الجانب الآريّ وأخبرت الشارع كله أنها تحمل أنفًا يهوديًّا. وسألت زوفيا ما الذي حدث بعد ذلك. قالت أدينا إنّه لم يهتم أحد، وإنها قالت للمرأة "وما هو نوع الأنف الذي لديكِ، انظري إلى نفسك في المرآة!" ما جعل المرأة تتركها وتهرب.
قال لوتيك إنه جائع. قالت زوفيا إنّه الآن بعد أن تُنهي عائلتها الحساء فإن أخيها ليون يضع الوعاء على رأسه كي يتمكن من لعق الجزء السفلي حتى يصير نظيفا.
قالت أدينا إن الناس في فرنسا يطبخون البطاطا بالزّيت وليس الماء. فقالت زوفيا إن مذاق البطاطا المقليّة مُدهش. وقال بوريس إن ذلك ربما صحيح لكن الزيت الجيّد لابدّ أن يُستخدم في إعداد أطباق أفضل.
أنا وبوريس نظرنا وراءنا إلى سور الغيتو. كان اليهودي صاحب الثوب

قد انتهى من عمله، والجندي الألماني غادر. وكانت إحدى العصابات حول الثقب. جاء صبيّ وبيده رافعة وأخرج الصفائح المعدنية بعيدًا عن الطوب، والمسامير خرجت بسهولة كما توقع بوريس بالفعل. الصفائح كانت مثنية إلى الداخل لكن بعد ذلك ظهر ضابط ألماني وثلاثة من الشرطة الصفراء مثل السّحرة. وحينما حاول صبيّان التدافع خلال الثقب، كانت هناك هتافات على الجانب الآخر وكانوا يجرونهما من ظهرَيهما.

اصطفّ الأولاد جمعيهم على الجدار حسب أوامر الضابط الألماني. وكانت لديه ذراع واحدة فقط.

قال بوريس "هذا هو"

قلتُ "أعرف ذلك"

أمرهم الضابط الألماني، ويتوسك، بأن يسلموا أموالهم. وبعد أن عدّها قال إنها ستكون غرامة التهريب.

وقفوا بطول الجدار، ولفت نظره عجوز يهوديّ جاء بعجل عبر الشارع الذي فيه حيّ التفتيش، فناداه أحد رجال الشرطة الصفراء وأمسك به ليحضره إليه. وكنّا من مكاننا نراه يرتجف.

سأله ويتوسك "كم عمرك؟"

فأجاب الرجل العجوز "ستة وستون"

فعدّ ستّة وستّين زيلوتي وحشرها في جيب قميصه، وقال له "الآن يمكنك أن تكمل طريقك". ثم قال شيئًا آخر لرجل الشرطة الصفراء، ثم ذهب وعاد بثلاثة من اليهود، وسألهم عن أعمارهم وأعطاهم المال حسب ذلك. المرأة الأخيرة قالت إن عمرها خمسون عامًا، لكن كانت لديه ثمانية وأربعون زيلوتي فقط. فقال إنه أصبح عمرها كذلك الآن!

وحالما ذهبت المرأة التفت إلى المهربين قائلا "أنا ألماني طيّب، أليس كذلك؟" فقالوا إنه كذلك. ثم قاد رجل الشرطة الصفراء معه بعيدا، وفورما اختفى عن ناظرهم، تبدّد الأطفال الثلاثة.

في يوم الجمعة انتظرت مدّة ثلاث ساعات مرة أخرى، ثم خرج لي صبي تلميع الأحذية إيّاه، وأخبرني إن ليجكن يقول بأن عليّ العودة يوم الإثنين. وأخيرا كنت في مكتب ليجكن يوم الإثنين، والذي كان غرفة بجانب دورة المياه. أشرع ذراعيه لي كأنه كان يأخذ كل ما في بولندا، ثم سألني ماذا أظن؟

فقلت له إن واجهة البيت جميلة.

فقال ليجكن إن ويتوسك وبقيّة الألمان في الأمن جُمعوا معًا للعمل في وحدة مكافحة الجريمة، وإن ليجكن اختارني أن أصبح جزءا منها. وقال إنهم لا يريدون أن يتصيّدوا المهرّبين بقدر ما يريدون تنظيمهم. وقال "أنت تعرف أن الألمان يريدون تتبّع كل شيء".

فقلت "أنا لا أعرف أي شيء عن أي شيء"

فقال "نعم ذلك هو دورك!" ثم أضاف "لكنك كنت تعرف النكتة القديمة التي تُعاد المرّة تلو الأخرى: إذا ما تواجَه اثنان من اليهود قال أحدهما للآخر: إحصائيًا فإن واحدًا منّا يجب أن يبلّغ الجستابو!"

قلت له "لقد سمعت هذه النكتة"

ثم قال "ليس هناك مكافأة ماليّة بالطبع، لكن توجد مزايا أخرى بما في ذلك التأثير في معسكرات العمل"

قلت له "أنا ما زلت لا أعرف ماذا يفترض بي القيام به"

قال "لا شيء في الوقت الراهن، ربما بعض التقارير الصغيرة وربما لا

شيء من ذلك أيضا"
جلست على كرسيي وراح هو ينظر إليّ. وكان حجمه صغيرا وهو خلف مكتبه، وبدا كأنه كما لو كان راكعا على الأرض. وكنت أسمع عازف الأكورديون خارج نافذته.
سألته "إذن هل يمكنني الذهاب الآن؟"
فقال "لا" وراح يركز انتباهه على بعض الأوراق أمامه.
وقّع على اثنتين وفي الثالثة أصدر صوتًا ساخرًا. ثم وثب من كرسيه وجاء أمام مكتبه وقال إن لديه متاجرة بحذاء جديد. ثم طاف حول المكتب وفعل حركة ثني الرُّكبة لكسرها، وقال "هل سمعت بأن الألمان وصلوا بالفعل إلى لينغراد؟"
فهززت رأسي نافيًا.

أضاف "وهكذا، هتلر يقابل يسوعًا في الجنة، ثم يقول للقديس بطرس: مهلًا، ماذا يفعل اليهودي هنا دون رباط الزّند الأصفر؟ فيرد عليه القديس: دعه وشأنه، إنه ابن الزّعيم هنا!"
قلت له بعد فترة هدوء "إنها نكتة جيدة"
قال ليجكن "إنك تبدو مثل بائعي المحلات التجارية الذين يحملون بضائعهم تحت أرديتهم ويذهبون للعملاء الذين يعرفونهم فقط"
وأضاف "إنني أحب هذا فيك"
فقلت "شكرا لك"
ثم أكمل "علينا أن نتكاتف معا. إنه لشيء فظيع كيف أن الألمان يعملون على تفريقنا"
فقلت "حسنا هل يمكنني الذهاب الآن؟"

فقال "هل تتذكر كيف شعرت في المرة الأولى التي رأيت فيها يهودًا ليسوا بحاجة للتوقيع عند نافذة المتجر اليهودي؟"
في هذه الأثناء جاء شرطي وطرق الباب المفتوح وأخبر ليجكن أن أحد أخوة زابنسكي قد وصل أخيرا. فقذف له ليجكن بعلبتي سجائر. فقال له الشرطي إن زابنسكي يدخّن أيضا، فقذف له بعلتين إضافيّتين.
سأل الشرطي "ألم يكن كلاهما محاميا؟"
قال ليجكن "نعم أعتقد ذلك. عادا إلى لودز"
قال الشرطي "إنّه مثل نقابة المحامين في جميع الأنحاء هنا" وأضاف إن مايلر كان محاميا أيضا، وإنه مازال يسأل أين أُرسلت عائلة زوجته، وقال "إن البولنديين يشتكون من أننا نتمتع بامتيازات لأنهم يرسلونهم للعمل في الخارج بينما نحن نعمل في بيوتنا"
قال له ليجكن "أخبر عازفي صندوق الأرغن"
ثم غادر الشرطي. فسألته "من هم عازفو صندوق الأرغن؟"
فقال "ذلك ما يسمونه المجلس اليهودي. هل تفهم؟ مثل أن ترمي قطعة نقود إلى عازف الأرغن بينما هو يلعب مع قرده!"
انحنى لإصلاح حذائه وهو سعيد به، ثم انتصب وراء مكتبه مرة أخرى وقال "إذن ما هو قرارك؟"
كنا كلينا نستمع لصوت عقرب الدقائق في ساعته اليدوية.
قلت "أعتقد أنني سأفعل ما بوسعي للمساعدة"
قال إنه إذا احتاجني سوف يُرسل من يجلبني إليه. وصرفني. عندما كنت أنزل الدرج توقّفَت سيارة سوداء طويلة فيها اثنان من الألمان في الأمام وثلاثة من اليهود الملتحين بعيون مذعورة في الخلف. وحينما أخبرت بوريس ذلك المساء صفق على ظهري لأنني فعلت الشيء الذكي

وقال إنّه منذ الآن فصاعدا سوف نعرف مقدّمًا الأخبار حول ما سيجري حولنا.

• • •

أُصيبت هانكا ناسيلسكا بالتيفوس فماتت. وكذلك عمُّ زوفيا إيكوفيتش. لبضعة أسابيع تلقى ليجكن رسائل من أبي وأخي وقال إنهما نُقلا لكن لا يعرف إلى أين. طلبت أمي مني معرفة ذلك وقالت إن عليّ قضاء أكثر وقت ممكن مع ليجكن حتى أعرف مكانهما. زادت مطابخ الحساء في الشارع، وقال ليجكن إنه في سبتمبر القادم سوف تتقلّص مساحة الغيتو، لكن في أكتوبر قد تفتح بعض المدارس أبوابها مرة أخرى. وطلب من عصابتي تعليق لافتات إرشاديّة جديدة تمنع اليهود من مغادرة المناطق السكنية المخصصة لهم.

تساءلت زوفيا "وماذا تعني تلك اللافتات؟" في اليوم الذي استلمناها فيه، وبعد انتهائنا من تعليقها فاجأنا الجنود الألمان والشرطة الزرقاء عند الثقب الخالد، ففررنا هاربين. لكن واحدا من البولنديين أمسكني من عنقي من الخلف، كما قبضوا على ثلاثة صبيان كبار من عصابة أخرى. أعطاني البولندي ركلة على مؤخرتي، وتركني أذهب. ثم قال إن هذه المسافة قصيرة جدًّا لإطلاق النار. وقيل للصبيان الآخرين أن يفرغوا جيوبهم ثم يقفوا على الجدار. أما أنا فتابعت الهرب، وبعد أن تجاوزت المنعطف سمعت إطلاق النار. ولاحقًا كانوا الصبيان الموتى ما يزالون بعضهم فوق بعض عند الجدار.

• • •

متوجّهًا نحو البيت من المتجر مع أمي، سمعنا طلقات رصاص. فجرّتني أمي إلى الرصيف وغطّتني بذراعها. وعلى العشاء أخبرتنا أنهم عثروا على أربعة جثث بجانب جدار في نولبكين.

قال بوريس "الكثير من الناس أصيبوا بالتيفوس"

فأخبرته أمي بأنهم أطلقوا النار على المهرّبين.

فردّ عليها "ولهذا السبب نحن لن نفعل ذلك مرة أخرى"

فسألتني أمي "هل هذا صحيح؟"

فقلت لها "نحن بالفعل قررنا ذلك"

وراح بوريس يخبرها بأن التهريب قد أصبح أمرًا في غاية الخطورة، وأن عامل طلاء المنازل كان في طريقه للحصول على وظيفة بأمر من الألمان، ومهمّته هي أن يملأ الثقب الخالد مرّة أخرى ليسدّه. لكن عندما تجوّل الألماني قبالة الثقب، جاء آخر بجانبه، وعندما ميّزا أن رجلًا يهوديًا يعمل على ثقب في الجدار، أردوه قتيلا.

والدة بوريس سألت ما هو الثقب الخالد، فأخبرناها عنه. وبعد يومين كان الثقب مفتوحًا مرة أخرى. لقد تخلينا عنه لكننا سمعنا أن الألمان أعلنوا في البوق أنهم سيطلقون النار على ثلاثين يهوديا إذا لم يبق هذا الثقب مغلقا بشكل دائم قبل ظهر اليوم التالي.

وسمعنا أيضا أن من ذهبوا للتهريب كما في السابق لم يعودوا أبدًا.

• • •

قُبض على بوريس. قال إنه عندما كانوا على وشك إطلاق النار عليه،

وصلت سحابة من البعوض إلى عينيه وأنفه وأيضا أزعجت الألمان، الذين أخذوا يتجادلون بعضهم مع بعض بينما كان واقفا هناك إلى الجدار، وبعدها لسبب ما تركوه وذهبوا.

أدينا وزوفيا عانقاه، وقال لوتيك إن هناك بعض الخدوش تحدث من تلقاء نفسها! وأن السبب الوحيد لعدم قتله أنه كان قصيرا مما جعل الرصاص كله يمر فوق رأسه.

قالت زوفيا "أظن أنه يجب علينا التوقف عن العمل"

قال بوريس "ما الفرق بين كيف تموت أو تعاني، ففي كل الأحوال يجب أن تأكل!"

قالت أدينا "حان الوقت لنفكر في شيء آخر"

قال بوريس "نعم" كما لو كان يتحدث لطفل صغير. "دعونا نفعل ذلك"

وفضّلنا أن نلتقي خارج الشرفة حيث عقدت مراسيم التعارف ما قبل الزواج للسيدة مليووكونا، فهي أتاحت للشباب البقاء في الفناء حيث لديها مظلات جانبية. وفي صباح أحد الأيام بقينا أنا وأدينا وبوريس حوالي الساعة ننتظر وصول لوتيك. وصل أخيرًا وكان يتصبب عرقًا بشدّة حتى إن العلامة على قبّعته غرقت في العرق. قال إن زوفيا ظهرت فجأة على نافذته في منتصف الليلة الماضية، كانت عائلتها تستعد للنوم حين سمعوا أصوات خطوات أحذية على الدرج، ما يعني حدوث أخبار سيئة بعد حظر التجول كالعادة. والدة زوفيا دسّتها مع ليون داخل مساحةٍ فارغة صنعتها تحت إطار السرير قبل أن تذهب لفتح الباب. فتش الألمان كل مكان لكنهم أخيرًا انشغلوا بسحب الحقائب التي تحت السرير وإفراغها. زوفيا وليون لم يُصدرا

صوتًا بالرغم من سماعهما صوت سالسيا تبكي مع جانشيل، بينما والدهم احتجّ وأخبر الألمان عن مصنع المكانس الذي يملكه. قالت والدتهم للألمان "أنا قادمة، أنا قادمة" وكأنها تقول وداعا لزوفيا وليون. بقوا هادئين بعدما غادر الجميع، ثم زحفوا خارجا، ومشوا في الشارع حيث واجههم مزيد من الألمان. وبينما هم يطاردونهم صرخت زوفيا على ليون بأن يهرب في طريق بينما هي ستسلُك الآخر، فصرخ لماذا عليّ الذهاب في ذاك الطريق؟ وحينها قبض عليه الألمان. وقضت الليل في البكاء، وكان ذلك آخر شيء قاله لها.

سألت أدينا لوتيك لماذا ذهبَت زوفيا إلى شقته تحديدًا؟ فذكّرها بوريس أنه المسكن الأقرب إلى مسكنها. قالت أدينا إنه يجب عليهم الذهاب لتفقّدها، فقال لوتيك إنها لم تعُد هناك على أيّ حال، فقد طلب والده منها المغادرة، من يعرف ما الذي يريده الألمان منهم؟ ومدى صعوبة فهمهم؟ لقد مشى معها إلى بيت صديقة قديمة لوالدتها والتي أخذتها دون كبير حماسة.

كنت قد قضيت ثلاثة أيام أعمل كمقشّر في مطبخ عمومي مع أمي، حينما أخبرتني أدينا إن زوفيا تريد أن تراني، وأعطتني العنوان، وقالت إنها زارت تلك العائلة التي تقضي يومها كاملا في مصنع الأحذية، وقالت لها زوفيا أن عليّ دقّ الجرس ثلاث مرّات ثم الوقوف على الشارع حتى تتمكن من رؤيتي.

في الشقة وعاء غسيل في حوض، وقفص أرنب مقفول بمفتاح موضوع فوق خزانة عالية.

قالت زوفيا "تضع الأم الخبز هناك عاليا حيث لا أستطيع الوصول إليه حينما ينامون ليلا. أقف فقط هناك لأشتمّ الرائحة في الظلام"

قلتُ "ألا يطعمونك؟"
قالت زوفيا "إنني جائعة جدا حتى أنني ألعق ركبتي!" وقالت إنهم يطعمونها مثل كلب. وحتى عندما أحضر بوريس لها بعض الطعام، تناولته العائلة أمام عينيها دون أن يطعموها منه شيئا.
قلت لها إنه يمكننا جلب مزيد من الطعام لها. فقالت إنها تساعدهم في الأعمال المنزلية وتحاول أن تبقى هادئة وساكنة وأن تتصرف كناضجة، لكنها تجد نفسها في انتظار والدتها كي تأتي وتأخذها بعيدا. وتحاول دائما ألا تبكي. وطلبت مني أن أعرف أين أخذوا عائلتها من خلال صديقي في الشرطة الصفراء.
"إنه ليس صديقي،" قلت لها.
فقالت "أرجوك،" وأضافت إنها دائمة التفكير فيما آل إليه الشّجاع ليون، وقالت لي إنّه لا يمكنني أن أصدق الدويّ الذي أحدثه الألمان حالما دخلوا الغرفة.
أخبرني ليجكن في البداية أنه لا يعرف شيئًا. لكن حينما لم أتركه، قال لي إنه سيرى ما يمكن أن يعرفه. وفي اليوم التالي أخبرني أنّهم رُحّلوا إلى الرّيف كجزء من مبادرة جديدة للتوطين ولن يعودوا. أدينا أخبرت زوفيا، والتي كانت ردة فعلها أنها تريد اللحاق بهم وهي بحاجة إلى مساعدتنا جميعا كي يمكنها الخروج من الغيتو من أجل ذلك.
فاجأنا بوريس بقوله إننا يجب أن نساعدها، بينما قال لوتيك إنها لم تطلب مستحيلًا، ما الصّعب في ذلك؟ فنحن نخرج وندخل الغيتو طوال الوقت. فقال بوريس إن الصعوبة تكمن في أن تذهب مسافة بعيدة كافية لتجنّب الواشين والمبتزّين. في غضون ذلك كان عليها أن تبحث عن مكان جديد منذ أن منع عنها صديقة والدتها الطعام

والشراب. بوريس وجد مكانًا خلال يوم واحد، واصطحبَتها أدينا إلى هناك حينما كان ازدحام حركة المرور في الشوارع في أوجه.
قبل يوم واحد من مغادرتها أردنا الذهاب جميعا لتوديعها. المرأة الجديدة التي آوتها طلبت منّا زيارتها الواحد تلو الآخر حتى لا نُلفت الانتباه. فذهب بوريس أولا، بينما أدينا قالت إنها ستكون آخر من يذهب، أما لوتيك فقال إنه ليس بحاجة للذهاب على الإطلاق. المرأة التي كانت ترتدي رداءً فيه زهور حمراء سمحت لي بالدخول ثم انصرفت وأغلقت الحمّام على نفسها. كانت زوفيا ترتدي ثلاث طبقات من الملابس وحذاءً مناسبًا. حاولت أن تجعل يديها في حضنها لكنّها ما لبثت أن لوّحت بهما هنا وهناك. قالت إن للمرأة زوّارًا ألمان، إذا جاؤوا فإنها تخبّئ زوفيا في فُرجة بجانب المرحاض خلف سطل الغسيل. وقالت، بطبيعة الحال، إن الألمان يستخدمون المرحاض طوال الوقت!
سألتُ إن كان كل شيء معدًّا لها؟ فقالت إن بوريس عثر على رجل قال بما أنّ مظهرها يبدو جيّدا فسوف يعطيها المال لتخرج هي وابنته من الغيتو. فسألتها ماذا يعني أنّ مظهرها جيّد؟ فقالت أي أن مظهرها لا يبدو كيهوديّة.
قالت إن زوجة ذاك الرجل قامت بفركها في حوض، واضطرّت لتغيير الماء ثلاث مرات. وقال لها الرجل إن ابنته ستعبر كأختٍ لزوفيا وكان قد تقدّم بأوراقٍ لكليهما، ولذا فإنهما غالبًا سوف تغادران أبكر من الموعد السابق بيومين. قادهم الرجل عبر قبو صيدلية على جانب الحدود الآرية عند المكان الذي يفترض بهم انتظار أحد ما، لكنه لم يأتِ، وقالت إن الخطة البديلة هي أن سائقًا سوف يأخذهم في عربته عند

بزوغ الفجر، سيحشرهم تحت بعض الفرش ويقودهم عبر البوابة.
قلت لها "لا تذهبي" بينما هي تتحدث "ابقي معنا"
وفوجئتُ كيف كنت أشعر بالضيق، فقالت لي "ألا ينبغي أن أعثر على عائلتي؟"
فقلت "من يدري حقيقة أين يمكن أن يكونوا؟"
فسألتني "حسنا إذا لم يكونوا هنا، فأين هم إذن؟"
فحملقَت كأنها تقول إنني أرفض إخبارها الحقيقة.
قلت "أنت لا تعرفين أحدًا على الجانب الآخر"
فقالت إنها تعرف. وحينما سألتها مَن؟ لم تجبني. ثم قالت إن بعض الصبيان الذين شكّلوا العصابات الجديدة في الغيتو كانوا ضمن الحركات الشبابية المناضلة التي تفرّقت بعدما زحف الألمان.
سألتها "ولماذا يأتون مرة أخرى؟"
قالت "للمساعدة"
فسألتُها "بماذا؟"
فقالت "أنت لست بحاجة لمعرفة ذلك، ولا تعبس بوجهك هكذا، لكن هؤلاء لديهم اتصالات على الجانب الآخر"
فسألتها إذا كان الصبي الذي يُدعى آنتك واحدًا من الذين تحدثت عنهم. وكانت منزعجة لأنني لاحظت ذلك، ثم قالت إنه هو. ثم جلسنا هناك مثل غرباء في مسرح العرائس.
قلتُ مُجدّدًا "هل عليك أن تذهبي؟"
نظرت إليّ كأنما قلت شيئا مخجلا. ثم قالت "هل ينبغي أن أترك ليون أينما كان؟ وسالسيا؟ وأمي؟"
فلم أجبها.

ثم أضافت "قضيت حياتي كلها من أجل الناس الذين لم يسألوني عن نفسي" وقالت إنها فوجئت كم سبب ذلك لها من خيبة الأمل.
"هل تعرف عمّ أتحدث؟" سألتني.
وحينما لم أجبها مجدّدا قالت إنه يجب أن أذهب لأصطحب أدينا إلى هنا.
قلت "لماذا؟ هل انتهيت من لقائك بي؟"
قالت بتعب "أوه، هارون"
قلت "ماذا؟"
قالت "أنت ولد طيّب، اعتنِ بنفسك" ثم أخذتُ يدي وضغطتُ عليها. على الدرج توقّفتُ وعدتُ للوراء، ولكن قرّرت أن عودتي ليست بالفكرة الجيدة، فلم أعد الشخص الذي كنت عليه، وأنها لن تبادلني الحُبّ رغم ذلك.

فوجئَت أمي تلك الليلة حينما صعدت على السرير معها بعدما نام الجميع. كانت تفوح برائحة هي مزيج من الملفوف وفحم المواقد. قالت بصوتها النعسان "هل حلمت حلمًا مزعجًا؟" ودغدغت بأصبعها أذني. "لا تبكي،" قلت لها، فدسّت رأسي تحت ذقنها، ودعتني بولدها الجميل حينما وضعت ذراعيّ حول عنقها. وحينما استيقظت في الصباح، وجدتُ أنني بلّلتُ الفراش.
"العين بالعين يا صديقي"، قال لي ليجكن حينما خرجت إلى الشارع. كنت أبحث عن بوريس، الذي كان قد سبقني. "لقد ساعدتك، وعليك أن تساعدني الآن" أكمل ليجكن.
كان يريد أن يعرف ما هي خطتنا لهذا اليوم، وقال إنّ لديه حصصًا

ليملأها أيضا. قلت له لم أعرف ما الذي يقصده، وقال إنه متعب جدا من كل الأشياء التي لا أعرفها وأنّ عليّ أن أجيب على الأسئلة فقط. فأخبرته عن المكان الذي كان من المحتمل أن نكون فيه، فشكرني وغادر. وبعد ساعة، أمسكني اثنان من الشرطة الزرقاء مع لوتيك، ومعنا كيس الخيش الذي فيه اللّفت، وألقيا بنا وكيس اللفت خلف سيارتهما.

قادانا إلى مبنى كبير فيه أعمدة طويلة خارج الغيتو، ثم أخذانا نزولًا إلى قبو. الجندي الألماني الذي على المكتب سأل لماذا جلبونا نحن الاثنين، فقالا بسبب عربة الشارع، ومشينا أسفل ممر طويل ومظلم، ثم دفعونا في غرفة إسمنتية بلا نوافذ.

كان هناك صفّان بطول الجدار من المقاعد الخشبية القاسية المدرّجة، متوجّهة إلى الأمام، ما جعل المكان أشبه بفصل دراسي صغير. جلست على أحدها وجلس لوتيك على آخر بجانب الرجل الطويل ذي الرأس المدمى والشعر الأشعث. كانت الجدران مغطاة بكتابات مشطوبة. وبجانب مقعدي نحت أحدهم اسمَ "يسوع"، وبجانب لوتيك رسم أحدهم ساعة واضعا دائرة حول الرقم ستة. لم أكن خائفا لكني كنت أرتجف كمن تُرك في العراء.

سأل لوتيك الرّجل الطويل عن مكاننا. فأخبره إننا في مقرّ الجستابو وإن هذه الغرفة تسمّى العربة بسبب شكلها. وكذلك يمكننا طلب القهوة حينما تأتي المرأة التي ترتدي الزي الرسمي.

جاءت إلينا بعد بضع دقائق، فطلب منها لوتيك قهوة، فعادت حاملة قدحا من قهوة بالحليب له ومرّرته له من وراء القضبان. فتشاركه مع الرجل ذي الرأس المدمى.

قال لوتيك لي "أنت تهزّ الكرسي كلّه" ثم قال إن بوريس أخبره أنه كان هنا ذات مرة ووجد نفسه في ذات الزنزانة مع الرجل الذي أشار له بعض الألمان في الشارع.

فسألته "ماذا فعل؟"

قال لوتيك "ما رأيك؟"

بعد بضع دقائق قال لوتيك "بدوا كأنهم ينتظروننا هناك"

وحينما لم أقل شيئا قال "هل سمعت ما قلته لك؟ كما لو كانوا يعرفون أننا قادمون"

همست له "هل تعتقد أنهم سيتحدثون معنا فقط ثم يدعونا نذهب؟"

فقال "وكيف لي أن أعرف"

ثم سألني إذا ما كان لدى ليجكن المزيد من الأخبار عن الحرب. فقلت له لا. وقال إنه سمع إن الألمان تعرضوا لهزيمة خارج موسكو ولينغراد.

قال الرجل ذو الرأس المدمى للوتيك بأن يبقى هادئا. فقال له لوتيك نكتة: حينما غزا نابليون روسيا، طلب أن يضعوا عليه سترة حمراء في حال أُصيب، لكن هتلر وضع سراويل بنية. فنهض الرجل ذو الرأس المدمى وابتعد قدر ما استطاع.

وأخيرا ظهرا جنديان ألمانيّان يحملان قائمة، ولفظا اسمينا بطريقة خاطئة لكننا رفعنا أيدينا. اقتادونا خارجا إلى فناء خلفي بلا نوافذ. أحد الجنديين أمسك لوتيك من كتفيه ودفعه إلى الجدار. لم نتمكن من معرفة إذا كانوا يفهمون البولندية. قال لهم لوتيك "هل حقا أنتم عازمون على قتلي من أجل بعض اللفت؟" فما كان من الألماني الذي

دفعه إلا أن أطلق عليه النار. ارتدّ رأسه بقوّة عن الحائط ووقعت قبعته المصنوعة من جلد الأرنب أمامه على التراب. ولأن حذاءه خشبيّ، فقد انزلقت كل قدم في اتجاه مختلف. استاء الجندي الألماني الآخر من الصراخ الذي صدر مني فخبطني على الأرض. التقطاني كلاهما ومرّراني مرة أخرى من خلال قاعة الانتظار خلف الغرف والمقاعد وألقوا بي في الشارع.

• • •

في طريقي إلى المنزل سرت كمن نسيَت ساقاه المشي، وتوقفت في منتصف الطريق. رميت قبعتي بعيدا، زمّرت شاحنة، وأخيرا انتبه لي أحدهم فدفعني إلى حافة الرصيف.

ظلّت أمي تسألني "ما خطبك؟" ثلاث أو أربع مرات في اليوم. وبعد بضعة أيام أخبرَت أمي والدة بوريس بأنها لا تملك حيال الأمر شيئًا، وأنّ عليها أن تستمر في العمل حتى تسقط على وجهها. فقالت والدة بوريس إن ذلك هو الشيء الوحيد المُتاح فعله للجميع. سألني بوريس عن لوتيك وعن سبب اختفائه، فقلت له إنني لا أعرف. أخت بوريس دائما ما كانت تبكي فقال لها أن تصمت من حيث كانت مستلقية على الأرض. فقامت بفرك يدها الكسيحة، وذلك ما تفعله لتهدئة نفسها. قامت أمي بمشروع جديد لطلاء الأسرّة بزيت التربنتين والأمونيا لقتل حشرات الفراش، البق، لكنها ظلت حزينة لأنني لم أتحدث معها. قالت لي "يوما ما ستتمنى أنك فعلت ذلك"

في ليلة ما استيقظتُ وجلستُ معها في المطبخ، بينما هي أشعلت النار

في الموقد، ولوّحت بخرقة بالقرب منها، وشاهدتني أهرش القمل في بدني. وبعدما انتهيت سألتني إذا ما كنت جائعا، فقلت لها إذا ما كان لديها شيء تفعله حيال ذلك؟ فأجابت بالنفي. قالت والدة بوريس وهي على سريرها في الظلام، إنها كانت قد سمعت بأن اللاجئين يستولون على شقق أولئك الموشكين على الموت جوعًا أو المتوفين بالتيفوس. وأضافت "إنه بسبب البرد فإنهم يجتاحون أي مكان ويقطعون ويحرقون أي أثاث يجدونه". فقالت لها أمي "إنهم يأخذون السّقف الذي على رأسك في اللحظة التي تنقلبين فيها على ظهرك!" فقالت والدة بوريس مستفهمة "ومن هناك ليردعهم؟"

فأخبرتها أمي "لا أحد، لا ينبغي لأحد أن يتوقع وجود أبطالٍ في شارعنا" فقلت لها عليها ألا تغضب كثيرا. فقالت لي إنني دائما أريد أن أعرف لماذا هي مستاءة، في هذا الوقت الذي نكون فيه جميعا هنا، ننتظر جميعًا إما الموت أو انتظار الدور.

أصدر بوريس صوتا ساخرا من الردهة. قالت أمي إنها لم تعد امرأة شابة، وإن عملها لو لم يكن من أجلي لما كان لديها القوة للقيام به. فسأل بوريس ليعرف "تفعلين ماذا؟ تُبقينا كلنا مستيقظين؟"

قالت إن دوام بقائي معها هو قَدَر. هل أعرف ماذا يعني القدر؟

لا لم أكن أعرف، قلت لها. وكنت متعبا من حديثها. قالت إن القدر "يعني كلّ ما سيكون"، وقالت هي تعرف أنني بحاجة له، حتى لو لم أرغب في ذلك. كانت ترتدي قميص النوم الذي يحبّه أبي، على الرغم من أنه لم يكن دافئًا، لكن في حال أنه عاد إلى البيت في منتصف الليل سيجدها ترتديه له.

مسحتُ الدموع من عيني بشدة إلى درجة أنني أعميت نفسي في

البداية.
قالت والدة بوريس من سريرها "لماذا تتصرف هكذا؟ هل تعتقد أن هذا ما تحتاجه أمك الآن؟"
قال بوريس "اخرسوا جميعا" وحينما نشجت أخته قال لها "اخرسي أنت أيضا"
أنا وأمي كنا نشاهد الجمر على الموقد. قالت أمي "أنا أعمل، وأقلق، هذا كل ما أفعله"
قلت لها "أنا آسف"
فقالت "أعرف"، ثم اخبرتني أنّه لابدّ لي من النوم.
لم أرَ بوريس يوما كاملا. ثم عاد إلى البيت ووقف قبالتي غاضبًا. سألته أين كان؟ فطرحني أرضا على وجهي بضربة من ساعده. في تلك الليلة رمى فراشي في غرفة أمي. وسألتني أمي ما الذي يجري؟ فصعدت على سريرها.
في صباح اليوم التالي سقطت أمي حين كانت تحاول أن تغتسل بالقرب من الموقد، ولم نستطع أن نرفعها. في بداية الأمر لم يساعدنا بوريس، لكن في النهاية استطعنا أن ننقلها إلى المستشفى. كان طبيب المستشفى مريضا أيضًا وأخبرها بأنها أصيبت بالتيفوس الذي كانت تنتظره. فقدت وعيها بعدما أخبرها بذلك. وضعوها على سرير نقّال في الرّدهة وأخبرها مريض بجانبها عن خبر دخول أمريكا في الحرب. ردّة فعلها قد خيّبت أمله. كانت مصابة بحمّى أستشعر حرارتها من مكاني حيث أقف جوارها. إنها مصابة بقشعريرة سيئة للغاية حتى تمّ نقل أسرّة المرضى الآخرين بعيدا. وبينما كنت جالسا معها كانت تبكي

وتحاول أن تغطّي نفسها وتعتذر عن الرائحة، فهي مصابة بالإسهال، ما يعني أن تبقى مضطرة للاستيقاظ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت غير قادرة على تنظيف نفسها تماما.

قالت لي إنها لا تريدني أن ألمس أي شيء، وطلبت مني المغادرة، ثم عادت وطلبت مني البقاء. قلت لها إنها أصيبت بسببي على الأرجح.

نقلوها إلى الحجر الصحي، وتُركت على سرير في ردهة أخرى، ولم يعطها أحد الدواء. قيل لي إنني لا أستطيع البقاء، لكن لم يلاحظ أحد أنني لم أغادر. صرخت امرأة تحضن طفلها "هل يفترض بهذا المكان أن يكون مستشفى؟ يجب علينا إحراقه" وجه طفلها يميل إلى الزّرقة.

كنّا في ردهة تقع أمام الحجر الصحي الخاص بالأطفال. عندما نظرت إليهم وجدتهم لا يحرّكون أيديهم أبدًا، فقط ممدّدون في أسرّتهم.

أرادت أمي أن تتأكد أن بوريس ووالدته يعرفان في أي مستشفى نحن، كي يتمكّن أبي وأخواي من العثور علينا. أرسلتني إلى البيت كي أخبرهما، وطلبت مني البقاء هناك، لكنني قطعت المشوار ذهابا وإيابا خلال نومها.

قدّموا لها حساء الدمويّ الذي تحبّ، وحساء البصاق الذي لا تحب! وسُمّي بحساء البصاق لأنهم اعتادوا استعمال الحنطة غير المجروشة لإعدادها ما يُجبر حاسِيها على بصق القشور.

مرضت عشرة أيام، قالت لي في أحدها "كنت حزينة، أفكر بنفسي فقط، فوقفت معي..." وفي آخر قالت "العطلات مرة أخرى". كانت تشتكي مرّة أخرى لكني لم أعرف عمّا تتحدث. ارتفعت فيها الحُمّى ثم تحسّنت، ثم ساءت مجدّدًا. وسألتني إذا ما كنتُ أحمل ذكرياتٍ

طيّبة، فقلت لها أجل. فطلبت مني أن أروي لها بعضها. قلت لها عن الأشياء التي أتذكرها قبل انتقالنا إلى المدينة، قلت إنني أتذكّر النزهة في الغابة حيث كانت هناك طيور سوداء حولي بين العشب الكثيف بينما هي تقف وظلّها يعلوني كي تحميني من أشعة الشمس الساطعة. قالت لي إنها تعرف ما يحدث في الشوارع، وإنها رأت ذلك بنفسها. قالت "أنت تتصرف مثل حيوان صغير. أنت تكذب. أنت تغش".

طلبتُ رؤية الطبيب الذي أخبر أمي إنّ لديها التيفوس، لكن الممرضة أخبرتني أنه توفّي. نُقلت أمي إلى ممرّ آخر في طابق آخر ولم يقل أحد ما السبب.

قالت "أردت أن أكون فردًا نافعا" ومسحت خدّيها على الوسادة لتُبرّد وجهها.

سألتني إذا ما كنت أعرف ما تعنيه أن تكون فردًا نافعًا، وحينما قلت لها إنني لا أعرف، أخبرتني إنها تعني أن تقوم بأفعالٍ جيّدة، أن تكون طيّبًا وذكيًّا. وقالت إنها لو أصبحت فردًا نافعًا لكان لجأ إليها أولئك الذين لا يحسنون تدبّر أمورهم ويعانون المشاكل، على الأقل لكانت أصغت لهم فتكون بذلك نافعة أكثر مما فعلت.

بقيت مريضة، وبقي الجوّ عاصفًا وثلجيا، وزينة عيد الأنوار[21] سقطت من عضادة الباب.

لقد أصبحت تتنفس بصعوبة أكثر. أحيانا كنت أنام تحت سريرها لكنهم يعثرون عليّ فيقودونني إلى الطابق السفلي، عندها أنام أمام البوابات الأمامية تحت صورة لمؤسس المستشفى.

(21) حانوكا هو أحد أعياد اليهود الصغيرة يحتفلون به بين نهاية شهر نوفمبر وبداية شهر ديسمبر مدّة ثمانية أيام، يضيؤون خلالها كل يوم شمعة. يمتنع فيه عن الحداد والتعبير عن الحزن. تشير كلمة حانوكا إلى إعادة تدشين هيكل سليمان من جديد. م.

"أنت تشبهني،" قالت لي ذات ليلة بعد أن ساء تنفّسها فراحت تسعل سعالًا أيقظنا جميعًا. "أنت تظن أنك إذا بقيت هادئا فستكون قادرا على الاستمرار مثل البقية". بدا صوتها سيّئا للغاية. جاءت ممرضة وجلبت لها البرتقال مع كأس من الكحول المخفّفة.

احمرّت وجنتاها من أثر الكحول. لقد رفعت حاجبيها واتسعت عيناها بعد بضع رشفات كما لو أُعطيَت علاجًا. سألتني إذا ما كنت أريد بعضًا منه، فقلت لها إن القدح الأوّل كله من أجلها. فأومأت برأسها. وبحلول ذلك الوقت كان تنفّسها مضطربًا للغاية وغدا صوتها أشبه بالصهيل.

سألتني إذا ما كنت أشعر بالحزن لأنني سأمضي في الحياة دونها. وسألتني إذا ما كنت فكرت في ذلك من قبل وأن باستطاعتي المضيّ وحدي أم لا. نظرتُ إلى وجهها وتساءلت إذا ما كانَت حقّا ستتركني، جعلتني هذه الفكرة مجنونا حتى أنني قلت لها إنّه يمكنني فعل أي شيء. وضعت الكأس على الأرض وحاولت أن تنهض، لكنّي لم أتمكن من خلال تعابير وجهها أن أعرف هل كانت تشعر بالسوء أم أنها باتت أفضل.

قالت إن الضوء يؤذي عينيها فذهبَت إلى نهاية الممرّ وأطفأته، ممّا دفع بعض المرضى الرّاقدين على أسرتهم النقالة، والممرضة التي تجلس قُربهم مع أوراقها في نهاية الردهة، إلى الشّكوى. لكن في الظّلام رأيت عائلتي: والدي في قميصه الأبيض المخصص للعطلات، وأمي، وأخوَيّ، حتى أخي الأصغر، كل وجوههم رأيتها حينها في عمائي وجهلي بما هو آت.

خلال سَيري عائدًا إلى المنزل كانت الشوارع سيئة والثلج يغطيها.

انزلقتُ وسقطت أكثر من مرة، وكانت ساعة حظر التجول قد حانت، لكن لم يكن هناك قمر، ولا أحد يريد أن يكون في الخارج في ذلك الجو البارد، ولذا لم يرني أحد. مشيت كأنني جزء من جنازتي. عند البيت قدت نفسي إلى الداخل ووقفت كأن لا شيء عندي أفعله، ولا مكان لدي لأذهب إليه كي أواجه الصور التي في رأسي.

استيقظت على وقع صياح من النافذة المفتوحة، وجدتُ نفسي على بطانية أمي. كان بوريس في المطبخ يرمي ملابسي في الشارع. كنت قد سمعت طرْقًا على الباب وقد أجاب هو الطّارق، لكنني لم أجهد نفسي لمعرفة من بالباب.

نهضت وأنا بقميص النوم جافلا وقدماي باردتان على الأرض. كانتا والدته وأخته أيضا واقفتين عند مدخل غرفتهما.

قالت أخته له حينما رأتني "دعه وشأنه، والدته للتو ماتت". فصاح بوريس: "والآن نحن الحجر الصحّي؟!" اعتقدت أنه على وشك قتلي كأنّي شخص عابر يجهله في الشارع.

"هل تعرفين كم يجب عليّ أن أستمر في دفعه كي نبقى جميعًا خارج المستشفى؟" قال بوريس.

"ذلك ليس ذنبه" قالت أخته.

سألني "كيف عرفوا أين يجدونك أنت ولوتيك؟ لقد كانوا هناك ينتظرونكما قبل أن تأتي، لقد رأيتهم".

وقفتُ عند حوض الغسيل وفركتُ عينيّ بظاهر كفّي. لم أعرف كيف أجعل الماء يجري.

قالت له أخته "ربما حالفهم الحظ!"

قال لها "إنهم لم يتظاهروا حتى أنهم يراقبون"
ثم قال لي "وحينما سألتك أين هو لوتيك قلت لي إنك لا تعرف"
وبقي ينتظر إجابتي.
قالت أخته "لقد أيقظته دون طائل"
قال "حسنا وماذا بعد؟"
فقلت له "إن شامايا يفكّر في نفسه فقط"
نظر إليّ قائلا "لو كان دوري للذهاب معك، لحدث لي ما حدث له"
قالت له أخته إنها لم تفهم ما قاله، فأوضحه لها.
لقد كنتُ مُخبِرًا، عملتُ لصالح الجستابو. تراجعت أخته خطوة إلى الخلف ونظرت إليّ كأنما لديّ رأسان!
"ألن يُخبر الألمان إن ألقيتَ به خارجًا؟" قالت أخته.
قال لها "لا،" وراح ينظر ناحيتي.
ارتديتُ ملابسي في الشارع بينما الثلوج تتساقط، ولم يبد على المارّة أيّ علامة استغراب من ذلك.
سحبتُ سُترة أمّي المغليّة في الماء، ووضعت ثلاثة من قمصاني وارتديت جواربي المنقوعة التي جفّت بعد حين. لم يكن هناك مكان أذهب إليه وبقيت أطوف حول الأرجاء طوال اليوم. وعندما حان وقت حظر التجول دخلتُ في شارع ضيق مسقوف، ووضعت الحاوية التي فيه ورائي كي أمنع الرياح عني، لكن ما زال البرد شديدا فاضطررت للانتقال. مشيت إلى بيت أدينا. اضطررت للاختباء كل بضع دقائق بسبب الدوريات. طرقتُ نافذتها ولم تفتح الستارة. ثم إنها لم تدعُني للدخول. وفي آخر الأمر حين وقفتُ في الشارع وناديت باسمها، فتحت النافذة المتصدعة وقذفت لي بقطع خبز.

قالت لي "هل أنت مجنون؟! هل تريدني أن أُقتَل أيضًا!"
قلت لها "أنا آسف"
"هذا كل ما لدي،" قالت بالنسبة للخبز. وأخبرتني أنه عليّ ألّا آتي مرة أخرى، وأبعدتني بينما أنشج وآكل الخبز.
عند نهاية الليل، وجدتُ نفسي في الحيّ الذي نصب فيه بوريس كمينًا للصبيّ رئيس العصابة الأخرى، فزحفت إلى الأسفل في قبو الأنقاض المنهارة.
تحسّست في الظلام عن مكان يمكنني الاستلقاء فيه. الصبيّ الذي ضُرب بالطوب لم يعد موجودا. عشتُ هناك، أسرق من الباعة المتجولين أو الصبيان الأصغر سنًّا منّي حين يشتد جوعي. كنت لصًّا حتى إن الحمّالين وعمّال النظافة يطردونني بعيدا عن مداخلهم التي يمسحونها بمكانسهم. شربت الثلج المذاب الذي جمعته في علبة، وبقيت مستلقيا عدّة ليال تحت البطانيات. وعندما أخرج للعثور على الطعام، يخرج الناس الجياع من الزوايا المظلمة ويتبعونني. وحين يرون متسوّلًا واحدًا يحتضن ما تبقى في حزمته من طعام، يطرحونه أرضًا ثم ينهبون ما كان بين يديه، فيسرقه آخرون منهم، وهكذا. وحالما يأكل الجميع ما أمكن أكله، يعودون إلى التسوّل.
كنت أحاول أن أجعل نفسي غير مرئيّ، لكن الصّبيان الذين لا مكان لهم يؤويهم يملئون الأرجاء كلها، والأصغر منهم مكفول إلى مَن يمتلك وضعًا أفضل. هربتُ منهم لكن ثلاثة أو أربعة منهم عرفوا مكان القبو فأخبروا أصدقاءهم. وبعد ذلك بقيت أهيم على وجهي دون خطة، ودائما ما كنت بلا خطة. نمت بين كراسي موقف الأوركسترا القديمة. اشتد البرد، والمرأة التي تجلس في الشارع شعرت حيالي بالسوء حين

رأتني، فأعطتني زوج جوارب إضافي لأرتديه على جواربي لكن الأشرطة المطاطية كانت مقطوعة.

ساعدت امرأةٌ تحمل وعاء حليب، وحينما وصلنا إلى مكانها أعطتني معطفا. وسرقت بعض البطاطا المطبوخة. وفي نهاية المطاف حين شعرت أنني آمِن، توقفت عن الركض، وتوجهت مباشرة ناحية شقيقة لوتيك.

قالت أخت لوتيك "يا إلهي كيف تبدو!"

أجهشَت بالبكاء وسألتني ما الذي حدث لأخيها. وما زالت تعاني من اللعثمة. راحت تركلني لكن حين عبر رجال الشرطة الصفراء قبضوا على صديقتها واقتادوها معها. ثم وجدت نفسي على يديّ وركبتيّ في الثلوج الذائبة. كان شرطي يقف فوقي ودفعني بقدمه ثم غادر.

وبينما كنت أبكي سرق أحدهم البطاطا التي سرقتها. صار الجو أدفأ قليلا فأصبحت يداي وقدماي أفضل. لقد فقدتُ البوصلة التي توجّه أيامي. مررت على عيادة تُعالج التهابات العيون، فذهبت إلى الداخل ووقفت في الطابور، سامحًا للآخرين بالتقدّم أمامي كي أبقى في دفء غرفة الانتظار بضع ساعات. لقد وجدت أحد المباني التي يريدون إعادة فتحها كمدرسة للغة، واندسست فيها متّخذًا مقعدا في الخلف. لاحظ المعلم ذلك وكأنه يعرف لماذا أتيت هنا، لكن لم يحاول أن يدفعني للخارج. ومن خلال النافذة رأيت والد لوتيك يعبر، فلم أعد أبدا إلى المبنى.

بالقرب من المستشفى حيث توفيت أمي شاهدت ليجكن مع بعض رجال الشرطة قد استوقفوا رجلا، فاختبأت حتى غادروا.

تجولت في الشوارع، وقضيت الليالي بطولها محشورا في الزوايا المظلمة

مثل عنكبوت. تخليت عن التفكير في المستقبل، وبقيت أمشي دون هُدى ذهابا وإيابا.

صبي في مثل عمري أمسك بي وأنا أحاول السرقة من متجر والده بينما هو يراقبه، فضربني بهراوة كانت بجانب طاولة المحاسبة. وبينما جلست هناك أبكي وأفرك رأسي قام هو بربط معصميّ بحبل وربط الحبل إلى عربة لهم في الخارج. ثم رفع مقابض العربة وبدأ يجرني. انزلقت وفشلت في محاولة تحرير نفسي. كان يتحدث حول كم هو مُتعَب من أمثالي وإنه على وشك أن يسلمني إلى الألمان بنفسه. لكن العقدة التي ربطها انحلّت بعد أن انكشطت عكسيا على الجزء الخلفي من العربة، فتحررت. وظل لا يعرف ذلك، يجرّ عربته طوال الطريق، وكان الشارع الذي انعطفنا إليه خاليا. فنظرت إلى مؤخرة رأسه وفكّرت، إنّ له أمًّا في مكان ما تأمل أنه سوف يعود إلى بيته سالما. يمكنني أن آخذه منها مثلما أُخذَت أمي مني. لكن بدلًا من ذلك، حين وصلنا إلى زقاق ما، تركت الحبل وركضت.

حتى الهرب لم أكن قد قمتُ به كما يجب، ظننت ذلك في وقت لاحق. جلست على رصيف مُسندا ظهري إلى حائط هناك، وكان الناس يمرون فوق ساقيّ.

في وقت حظر التجول، شخصٌ ما رفعني عن الرصيف. كنت نائما وأرتعش من البرد. لقد تم حملي عبر عدة أحياء ثم وُضعت على بُعد درجاتٍ نزولًا في قبو لبيت مقصوف.

المكان الذي كنت فيه يقودُ نزولًا إلى مأوى مُشرق للغاية، الضجيج والارتباك يملأ أرجاء المكان. كان هناك سرير بطابقين مصنوع من لوحات خام عند الجدران. المكان كله مملوء بالأطفال، على الأرض وعلى

الأسرة، وكانوا جميعهم قذرين ومزعجين. بعضهم كان يلعب بالورق، والبعض الآخر يلعب بالسكاكين. ولا يبدو أن أحدا يُشرف عليهم.
لم أتمكن من الإحساس بقدميّ "هذا واحد في الطريق السيّئة" قال الرجل الذي كان قد حملني لشخص آخر. ميّزتُ صوته. "هذا هو مأوى الأقمار الاصطناعية " قال لي حينما رآني مستيقظا. "هذا مكان يمكن للناس الذي ينزلون الشارع وقت حظر التجول البقاء فيه، يمكنك الحصول على قليل من الحساء والدّفء، وغدًا تستطيع العودة إلى بيتك"
"ليس عندي بيت.." أخبرته. فبدا على كورتشاك تلقائيًّا وكأنه يعرف ما كنت عازمًا على قوله.
"حسنًا، إذن علينا أن نفكر في ضمّك إلى مجموعتنا الصغيرة " وراح الأطفال على الأسرّة يحتجّون بصخب، وكان واضحًا أنّي كنتُ آخر ما هم بحاجته.

حياة دار الأيتام الواقعية أجمل من المأوى، لكن الصّبيان هم الصّبيان. تقع الدار على شارع سيينا المواجه للجدار العازل، في أقصى الجنوب. أحد الأولاد قال إنه كان عليهم الانتقال من دارهم القديمة في أكتوبر حين ضيّقوا الحيّ اليهودي، فوصلوا هنا. حمّمني كورتشاك والمرأة السمينة ستيفا، وقال بينما هما يفعلان ذلك إنه لم ير قط أقذر من هذا الصدر وهذين الإبطين.

نام الجميع في غرفة كبيرة بالطابق الأول، وفي الصباح قامت المرأة السمينة –كما تفعل دائما– بسحب الصناديق الخشبية والخزائن وصفّها إلى الجدران على مدار الغرفة، وذلك لتدبير مساحة يمكننا فيها أن نأكل ونلعب وندرس. طلبت المساعدة من الأطفال، فساعدها البعض، والبعض الآخر لم يفعل أيّ شيء. كل ذلك جرى بينما كنت مستلقيا على السرير أشاهد.

"ومن يكون هو، الأمير؟" سأل أحد الأطفال يقصدني، فأخبره كورتشاك إنّي ما أزال أتعافى من التثليج[22]. قدماي كانتا تحرقانني. وقالت المرأة السمينة بينما كانت تزحلق خزانةً بالقرب منّي إنه يجب وضعهما في وعاء ماء بارد، لكنها لم تفعل لي ذلك، فلم أفعله. أنهض

(22) تورم أصابع القدمين من شدة البرد و يسمّى أيضًا لسعة الصقيع Frostbite. م.

فقط من أجل تناول الغداء والعشاء، مما جعل قدميّ تحترقان أكثر. وكان الغداء عصيدة القمح الأبيض المطحونة في مفرمة اللحم والمنقوعة في ماء مغلي. أمّا العشاء فكان عبارة عن قشور بطاطا مهروسة ومطبوخة على شكل فطائر مع بعض الحبوب واللفت. أثناء تناول الصّبيان الطعام على طاولتي كانوا يغنّون: جوليك ومانكا خرجا من المدينة وتبادلا قبلا ساخنة حتى إن الأشجار وقعت.

"من الذي يبكي جرّاء تناول اللفت؟" قال طفل حينما رأى ما كنت أفعله. لكن كنت ما أزال أرى لوتيك وهو معلّق في كيس في مؤخّرة سيارة الشرطة الزرقاء.

"عيناي تدمعان وحدهما" قلت لجميع من يشاركني الطاولة. "لا أدري لماذا".

بعد الغداء ثمّة حصة دراسية في اللغة العبرية، تُدار في الزاوية بالقرب من سريري. سحبت الغطاء على وجهي. سأل كورتشاك باللغة البولندية، وأجاب الأطفال بالعبرية، وكان يصحح لهم. وكان سؤاله الأخير: "هل أنت سعيد هنا في فلسطين؟" وبدا كأن الجميع يعرف الإجابة الصحيحة. قالت المرأة إنه حان وقت القيام بالأعمال المنزلية، وتمكّنت من سماع الأطفال وهم يتحركون على أقدامهم. وعندما سحبَت عني الغطاء كان الأطفال يكنسون الأرضيات ويغسلون الجدران ويمسحون النوافذ. كان كل واحد منهم يسأل عن شيء محدثين ضجّة في الأرجاء، ضاربين الأشياء بعضها ببعض. وعندما انتهوا من كل ذلك، عادوا مجدّدًا قُربَ سريري. قال كورتشاك إنه حان الوقت لقراءة عموده في صحيفة دار الأيتام، وكان عمود هذا الأسبوع بعنوان "اعتنِ بالآلة". قرأ "الآلة لا تفهم، الآلة لا تبالي،"

كانت نظارته تستريح على طرف أنفه، وكان يستخدم أصبعه لمتابعة الأسطر المطبوعة. "ضع أصابعك فيها وسوف تقطعها، ضع رأسك فيها وسوف تقطعه أيضا". نهضتُ للتبوّل وقدماي لم تعودا تحرقانني كثيرًا.

كان المرحاض في الخلف بجانب المطبخ وكان يقف أحد عشر طفلا في طابور انتظار المرحاض. فسألتُ، ألا يوجد مرحاض آخر؟ فردّ الطفل الذي أمامي دون أن يلتفت "لا يوجد سوى هذا المرحاض". عدت إلى السرير ثم وقفت عند النافذة. كانت السماء مشرقة في الخارج والشمس قد جففت الذباب الميت على عتبة النافذة، أما تحت العتبة حيث امّحى الإسمنت فقد تهاوى الطوب من مكانه مثل الأسنان المنخورة.. كانت صور مجلات ملصقة في الأسفل حيث توجد لطخات بسبب الثقوب التي كانت بمثابة هدف الألعاب الجدارية. الطفل الذي كان أمامي في طابور الانتظار قضى فترة ما بعد الظهيرة في كنس أعلى عتبة عند بسطة الدرج. لقد شاهدته وقد ثبّت عينيه عليّ بينما هو يعمل. وحينما لم يكن يكنس يلوح بيديه حول وجهه مثل الحصان هاشًّا الذباب بعيدا عن ذيله. لديه سرير بجانبي وقد هزّني ليوقظني لطعام الإفطار في صباح اليوم التالي. كان لدينا ماء ساخن وسكّر وخبز. يمكنني أن آكل ثلاث قطع إذا أردت. وبعد ذلك سنقف في صف لأخذ الوزن وقياسات الجسم. بينما انتظرت الأعرج الذي أمامي يلوح لي بنهاية رجله المبتورة مثل زعنفة.

عدت مرة أخرى إلى سريري أنظر إلى قدمي حينما جاء الصبي ذو المكنسة، حاملا وعاءً طافحا بالماء، فاندلق جزء منه بقربي. قال "السيدة ستيفا تقول لك انقع قدميك فيه"

سألته "ما الذي يعوم فيه؟"
فقال "وكيف لي أن أعرف!"
سألته عن اسمه فقال لي زيغموش، وقال إن الوعاء قد آذى يده. وبينما كنت أنقع قدميّ شاهد زيغموش دمًا ينتشر على ظفر أصبعه، فمسحه على الأرض مخلّفًا لطخات حمراء. سألت المرأة السمينة وهي واقفة في أحد جانبَي الغرفة إن كان قد فعل هو ما يُفترض به فعله؟ فأخبرها أنه يساعدني. عرّفَني على صبيّ ينام بعدي بسريرين، إنّه ميتيك! من بوّابة شارع كلودنا، لكنّه تصرّف كأنه لم يرني قط. قال زيغموش إنه أفضل صديق له، لكن الصبيّ لم يُبدِ اهتمامًا، وبقي في سريره يحدّق في حذائه البالي.
سألتُ ما مشكلته؟ قال زيغموش إن والدته كانت مريضة ووعدته ألّا تموت حتى يكون آمنًا في الملجأ. وتوفيت بمجرد وصوله هنا.
قال "إن السيّد الطبيب أخبره أنه يعاني من آلام الضمير!" وكان يبدو على الطفل أنه لا يسمع.
قال زيغموش إن هناك مزحة يتم تداولها بأنهم لم يروا طفلا يبتسم في الدار. قال الطفل وهو لا يبتسم "هذا غير صحيح، إنني أبتسم طوال الوقت!" ثم انصرف بعيدا عنا.
سألت "ما الذي يحتضنه؟"
قال زيغموش "هذا كتاب صلاة أخيه الميت"
أخيرا أعطته المرأة السمينة عملا، فجلستُ أمرّغ قدمي. كنت سعيدًا أنني دافئ ولست هائمًا في الشوارع. في وقت لاحق وقف كورتشاك قبالتي وأومأ لي ناحية الوعاء "هل تسمح لي بإلقاء نظرة؟" وبدا على وجهه ذلك التعبير وكأنه يعرف ما ينبغي القيام به، لكنه امتنع عن

فعله. ثمّة بصمات إبهام على عدسات نظارته.
الطفل الذي في عمر الستّ أو السبع سنوات كان قد ركل بعض ألعاب الفتيات في ساحة اللعب فأخذن جميعهن يصرخن ويبكين.
"هل هو الصبيّ ياجك؟" سألَت المرأة السمينة من جانب الغرفة الآخر.
قال لي الطبيب "إنه ياجك بالفعل" كما لو كنّا نتقاسم سرا. ثمّ رفع قدميّ من الوعاء وضغط على أصابعي، وقال "إنّ ياجك، على مدى عامين، جعل حياتي بائسة، وجعل الجميع في حضانة الأطفال بائسين. لقد كتبتُ مقالًا عنه يؤيّد إقامة مخيّمات للعقاب. لكنّه ما زال صغيرا جدا بعد، تخيّل ما سيحدث حينما يكبر!"
اثنان من الصبيان الأكبر سحباه من ذراعيه بعيدا عن الفتيات. قرّر كورتشاك أن قدميّ شُفيتا بما يكفي لأبدأ العمل، وأخبر المرأة السمينة التي جاءت بدورها لتعطيني مهمة غسل مبولة غرفة النوم، والتي يجب شطفها بالأمونيا كما أوضحت لي. وقالت إنه يجب غسلها من الأسفل أيضًا. فسألتها لماذا تحتاجون لمبولة إذا كان لديكم مرحاض؟ فقالت إن المرحاض يخدم مائة وخمسين طفلا بالإضافة لعشرين موظفا، وإنّي إذا ما انتهيت من أسئلتي فقد يكون هذا الوقت المناسب للبدء في عمل ما يُفترض إتمامه.

بعد أن أطفئت الأنوار تلك الليلة وآوينا إلى سررنا، ظهر كورتشاك في الظلام وجلس بقربي "لقد رأيتك عبر النافذة بعد الظهيرة" قال لي، وحاول أن يبقى هادئا ما بوسعه. "إنه أمر مزعج أن تقف على أطراف أصابعك وبالكاد تنظر للخارج أليس كذلك؟ مثل عدم القدرة على الرؤية بين الزحام". وافقته ذلك. "غدًا الخميس، وفي يوم الخميس

تجتمع لجنة القبول لمراجعة المتقدمين الجدد" وأضاف "هل تحدّثت معك السيدة ستيفا عن الاستمارة؟" وبعد أن هززت رأسي نافيًا سألني "هل تستطيع الكتابة؟"

قلت "قليلا"

"هل أتدخّل في عملك؟" سأل زيغموش، فتدحرج زيغموش على سريره إلى الجانب الآخر.

"سوف تساعدك هي غدا في ذلك" قال لي.

"أليس لديك أي أُسْرَة مُطلقًا؟"

قمت أتنحنح، لكن لا مكان لأبصق فيه، فابتلعت ريقي. "ستكون بخير" قال لي بعد أن وضع يده على خدي ومسح دموعي.

بدا أن بكائي أعياه، قال "الأمر كلّه مجرّد إجراءات شكليّة. يُذكَر اسم مالئ الاستمارة، ولا أحد يتفوه بشيء، نحدق جميعا في المساحة المتاحة لاستضافة واحد جديد، ثم يسأل شخص مَن هو مالئ الاستمارة الذي نتكلم عنه في المقام الأول؟ يومئ شخص ما بالقبول، ثم يتذمر آخر من محدوديّة كميّات الغداء، فتنزلق الدردشات من مكان إلى آخر كثمل على تلة ثلجية، وينتهي الأمر"

انقلب بعض الأطفال على أسرّتهم فأحدثوا ضجيجا. وأحدهم مستلق بعيدا يُصدر شخيرا مثل شخير الخنزير.

قلت له "كل واحد يبدأ ولديه خطط كبيرة، ثم يكتشف أن الأمور لا تسير كما يجب"

ضحك وقال "سِفرُ هارون، السورة الثانية، الآية الثانية: وغالبًا ما يحققون ضعف البصر وتهالك الأقدام!"

بدت أذناه عريضتين، وعنقه أنحف في الظلام. ولا أعرف ما الذي

يريده منّي. قال "أفكر في كلّ تلك القوة التي أهدرتها متخبّطًا هنا وهناك..."
سألني إن كنت أبليت حسنًا في غسل المبولات، فأجبت بالإيجاب. وقال إن وضع المبولات يعرّفنا دائما بجودة الدار. وبقي ماكثا حيث كان جالسا وبدا كأنه يُصغي لكل أنفاسنا. فسألته إن كان يتذكر الصبي الذي كان يحمله بعد استسلام المدينة وكان بحاجة لحذاء. "ذاك الولد!" قال. "بالطبع"
"في صباح اليوم الذي انضمّت فيه بريطانيا للحرب، انضممنا إلى مظاهرة خارج سفارتهم، البولنديّون واليهود كتفا لكتف مثل أخوة مرّة أخرى، والجميع يغني: بولندا لم تضع بعد... وبعد ظهيرة ذلك اليوم اخترقت سبع قذائف الدار، واحدة حطمت زجاج النافذة المطلّة على غرفة الطعام وأخرى نسفت قبعتي. أتذكر أني قلت له إنّ علينا ترك الشارع فورًا لأن صلعة رأسي هدف واضح للطائرات!"
سألته "هل حصل على حذائه في يوم ما لاحقا؟"
يمكنني القول، رغم الظلام، أني شعرت به لا يريد الحديث حول هذا الأمر.
أضاف "إنه كان يذهب معي في جولاتي... وبعد التفجير الذي حصل تبرّعَت لنا حارسة متجر بالعدس قائلةً إن الألمان سيُصادرون كل شيء على كل حال. إنني أذكّر أولئك دائمًا بسؤالهم عن التمسّك بالشرف اليهودي، هل يفضّلون إعطاء أيتامي ما لديهم أم الألمان؟"
قال إن لديه اليوم كُتُرٌ مثل ذلك الصبي الذي أوقعه في ورطة. "أينما حدثت كدمة أو ضربة على الرأس لابدّ أن يكون متورّطًا فيها".
قلتُ "سوء حظ"

قال "هناك أناس هذه طبيعتهم، لا يفكرون، مثل أن البعض لا يدخنون.."
لم أجبه بشيء. كنت أريد شخصا يفتقدني كهذا.
أضاف "لكن لا يمكنك أن تغضب منه، فهو مثلما قال يوليوش سووفاتسكي: إن الله يحبّ القوّة بالطريقة التي يحب فيها الخيول البرية" وربتَ على ساقي وهو يظن أنني الصبي الذي مضى.
قال "إن هناك كثيرًا من الناس يخافون من النوم خلال النهار لأنهم يقلقون من إفساد ليلهم.. وهو العكس بالنسبة لي"
مسكتُ يده، ولم يبعدها، وشيئا حيال ذلك دفعني للبكاء مرة أخرى.
"في الآونة الأخيرة أشمّ رائحة دهن ليلا" أخبرني. "هل تشمها أيضًا؟"
هززت رأسي نافيا.
قال "إنها تصيبني بالجنون"
قلت "لا أشم تلك الرائحة"
قال "أفكّر في أوروبا بالبولنديّة كما أفكر في فلسطين بالعبريّة، لكن أريد أن أتناول الطعام باليديشية!"
فقلت "أنا أفكّر بالطعام فقط!" فضحك ضحكة كتومة مرة أخرى.
قال لي إنه يودّ منّي في الصباح التالي أن أساعدهم في نقل الفحم، فأبديت موافقة. وراح يحدّث نفسه عن ذلك: عليك الآن أن تعطي الرجل عشرين زلوتي اضافية مقابل الفحم للحصول على قطع كاملة، وليس مجرد رقائق. ثم قال إنه إذا كان ما يتردد عن نجاح الألمان صحيحا، فعلينا جميعا أن نبدأ بحرق الأثاث. وبطبيعة الحال، إذا أُعطي اليهود يوما واحدا هادئا، فإن كل واحد منهم سيبدأ في إطلاق الشائعات"

قلت له "كل شخص يريد أن يعرف ما عليه القيام به لاحقًا"
فقال "لا يمكننا أن ننظر لقاع الكوب الذي نحمله بين أيدينا"
ثم نثرَ أنفه في منديل وتمنّى لي ليلة سعيدة .
فقال زيغموش "ليلة سعيدة!"
فقال كورتشاك له "نعتذر عن الإزعاج الذي سبّبنا لك!"
قال أحدهم في الظلام بعدما غادر كورتشاك "وما كان كل ذاك؟"
قال زيغموش "الدكتور لا يعمل جيدا" وهو يتثاءب.
سألته "ماذا يعني ذلك؟"
فقال "أخلد للنوم"

تبيّن أنّي بارع في تفريغ الفحم، ما يعني أن الغبار غطّاني من خصري نزولًا، وليس من رأسي إلى أخمص قدميّ. ساعدتُ أيضا في تفريغ شُحنة الجريش التي تخلطها المرأة السمينة مع دم الحصان في الإفطار الذي تعدّه لنا. ولقد دُعيت للانضمام إلى جوقة المغنّين فقلت لهم إنه لا يمكنني الغناء. ودُعيت للانضمام إلى نادي التمثيل وقلت لهم إني لا أعرف كيف أمثّل.
تحدّثت المرأة السمينة معي حول طلبي الانضمام إلى الدار، وبدا أن حالتي مثيرة للشفقة إلى الحد الذي لا داعي معه لأن أقلق من أنّي قد أُرمى إلى الشارع مجدّدًا. ورجتني أن أبدأ مناداتها بالسيّدة ستيفا. أخبر الألمان كورتشاك بأن عليه تغطية النوافذ بأوراق سوداء أثناء الليل، فأجلستني ستيفا على منضدة وجلبت صندوقًا مليئًا بمعجون الصمغ مع مقص ولفّات من الورق الأسود، وجعلتني مُشرفًا على أربعة صبيان في عمل التظليل. وحين لم ينصتوا لأوامري، دعت زيغموش

لمساعدتي، فتساءل لماذا عليه القيام بذلك؟ فأومأت له إلى حيث يجلس، إلى يساري، وغادرَت.

جمع صديقه ميتيك واثنين آخرين وقال لهم إنها أوامر موظّف الصحة، وسأل ميتيك لماذا أسمى السيّدة السمينة بموظّفة الصحّة؟ فقال لأن موظّفة الصحة الحقيقيّة لن تتحدث إلى اليهود، بل تشير فقط إلى الإناء الذي ترفع كي ترى إذا ما كانت القيعان نظيفة.

أوكلت بي مهمّة القياس، بينما اهتمّ البقيّة بالقص واللصق. كان الصبيان لا يتحدثون عن شيء سوى الأكل. قال أحدهم إنه حينما كان في عمر أصغر أمكنه قضاء يوم كامل بلا طعام، أما الآن فهو كالوعاء الفارغ. قال إن الحساء يكون للتوّ صُبّ في معدته وإذا به يشعر بالجوع ثانية. يرتسم على وجهه التعبير الفارغ والمقبول نفسه الذي كان لأخي الصغير، فاضطررت للتوقف عن النظر إليه. نقلتُ عتبة الأقدام قُربَ النوافذ ورُحتُ أقيس بذراعي.

سأل صبيّ آخر زيغموش إن كان لديه أخوة أو أخوات، فأجابه بأن لديه ثلاثة أخوات، وقال إن والديه لديهم طاحونة للحنطة السوداء، وفي أحد الأيام ذهب هو وأخواته لجلب الحليب، وحينما عادوا كان الناس يسرقون المطحنة بينما أحد الجيران يصرخ فيهم " أنتم تسرقون هؤلاء الأطفال وقد باتوا أيتامًا" وهكذا تبيّن لهم أن والديهم قُتلا. وقال إن أخته الكبرى اعتدى عليها الألمان ما جعلها تهرب عبر الحدود الروسية، وهذا ما شتت شمل العائلة منذ ذلك الحين، وكانت هي الوحيدة التي تُجيد الطّبخ.

مدام ستيفا هي المسؤولة عن الروتين اليومي، ودائما ما تبدأ عباراتها التأنيبيّة بـ"اسمح لي أن أخبرك" وعندما تسأل سؤالا لا تريد إجابته

تقول "دعونا لا نقلق حيال ذلك".
يقضي كورتشاك يومين أسبوعيًّا لترتيب مساعدات دور الأيتام الأُخرى، أمّا بقيّة الأيام فيقضيها متسوّلًا المساعدات لنا.
في أحد تلك الأيام غادر في وقت مبكر وتأخّر في العودة. يأخذ معه صليبه المختلف دومًا. يتوسل مكتب الجاليات اليهودية والأثرياء والمتعاونين وخارج المقاهي. فقلقت عليه المرأة السمينة. وقالت إنه عندما ذهب عاد في المساء محمومًا حيث اضطر لرفع برميل ثقيل من الملفوف طوال الطريق إلى هنا.
قال زيغموش إن كورتشاك اصطحب معه الأطفال الذين كانوا معه منذ صغرهم، لأنه يحبّ الأطفال الذين ربّاهم أكثر من البقية .
شاهدته في آخر الليل حين جاء على ضوء القنديل الوحيد الصّالح للعمل، بدا مُسنًّا، مُرتجف اليدين، والسجائر مثبته فيهما مع الفودكا المُحلّى، وكان كل بضع دقائق ينظف حلقه.
"أنت مرة أخرى" قال لي ذات ليلة حين رآني أراقبه. "ألست متعبًا؟ ألا نكلّفك بما هو كافٍ لتتعب؟"
قلت له "أنا متعب دائما. مهما كان لدي ما أفعله فأنا لا أتمكن من التعامل معه"
سألني "إذن أنت لست واحدا من الذين أُغيظهم؟ ألستَ مثل صديقك زيغموش؟ الذي ركبت أمّه الأُيول عبر الغابة وأكلت الخيول!"
أخبرته أن أمي كانت تغسل ثياب الآخرين.
قال "إنني أتذكرك في العصابة التي عند البوابة"
وعندما اعتذرت قال إن كل شيء كان على ما يرام. لم أكن ذلك القاسي وكان على الجميع بذل ما يمكنهم للحصول على ما يحتاجونه.

الأبواب كلّها تُفتح أمام الجياع.
هزّ سريري ليوقظني في اليوم التالي، وطلب منّي ارتداء ملابسي للذهاب معه. وعندما خرجنا كانت السماء ما تزال مظلمة، ولم أكن أريد العودة للشارع. قلت له ذلك، وقال إنه يفهم ما قلت.
تحدّث دون توقف أثناء سيره. قال إننا اليوم ربما نزور الألمان. وقال إن الضابط المعيّن للإشراف على دار الأيتام هو طبيب أطفال، وهو دائمًا يشير لكورتشاك بأنه زميل محترم. ويعتقد بأن ذلك مثير للضحك. قال إن الضابط يدعو دار الأيتام كنايةً بجمهورية النصّابين. قال إن اليهود نجحوا في التكيّف مع كل وضعٍ يواجههم، لكنهم لم يعرفوا جيدا كيف أمكنهم فعل ذلك. مثل الرجل الذي اشتكى بأنه لا يملك أحذية من ذهب ولم يكن يدري أنه قريبا سيفقد ساقيه!
كان الجوّ عاصفا وكدرا وباردا. وكل من كان في الخارج في ذاك الوقت الباكر كان يتحرّك وكأنّه ضاق ذرعا من هذا الإنهاك. كان معظمهم من المتسولين الذين يقضون ليلهم كلّه خارجا. وقفنا جوار فتاة عارية الذراعين تجلس القرفصاء بالقرب من عربة صغيرة تحمل لفتًا مجمّدا ومتعفنا، بينما هناك فتاة أصغر ملفوفة تحت العربة وقدماها مغطاة بورق الجرائد وملفوفة ومربوطة كحذاء. انحنى كورتشاك بجانبها ووضع شيئا في يدها. الفتاتان فعلا كل شيء ببطء. وحالما عاودنا السير قال "أيها الألمان كفى!" وصفع كفّيه ببعضهما. تحدث حول فتياتٍ أيتام فاجأنه بفيلم صنعوه من علبة ورق مشمعة ولمبة كهربائية. سألته إلى أين نحن ذاهبون؟ وسألني إذا كان ذلك يهمني.
قال "بالنظر إلى أحوالنا هذه فإننا جميعا مربوطون مثل كلاب في

سلسلة"
ولمّا لم أجبه، اعتذر لأنه قال شيئا غير مفيد أبدا. وجعله اعتذاره هادئا. وفي الظلام مررنا بشارع بشيّازد حيث الثقب الخالد والبناء ذو السقف المائل والنوافذ البارزة.
قال إنّه في أحد البيوت في الأسبوع الماضي وجدوا ستة أطفال على فراش رطب ومتعفن. وحيث ما زلت لا أقول شيئا، سألني ومن منّا ليس بحزين؟ وقال إن العالم يعيش حزنًا عظيمًا، وإن ما يتعين علينا القيام به وقوله لأنفسنا هو أننا لا نعيش في أسوأ مكان في العالم، لكن بدلا من ذلك نحن محاطون بالجنادب والذباب الحباحب.
من تعابير وجهه لم يبدُ لي أنّه كان يتهكم. أخبرته مرة أخرى أنني لا أريد أن أكون في الشارع. وحينما لم يجبني قلت له إني لا أريد أن أكون في الدار أيضًا. فقال إنني حُرّ في المغادرة. فكرهته لأنه جعلني أشعر بما شعرتُ به، وكرهت نفسي أكثر لأني لم أمت في مكان ما.
أشرقت الشمس وسألني إذا ما كنت سعيدا على الأقل كوني أتمشى تحت الشمس؟ قمت بفرك ذراعي ووجهي. سألني إذا ما كنت قد سمعت ما قاله؟ فقلت له "وماذا لو كنت سعيدا أو غير سعيد! إنني آخذ الأمور كما وجدتها عليه" قال إن والدته كانت تقول حين تراه مكتئبًا نوعا ما، إنّه في يوم مشمس مثل هذا فإن حتى اليهودي لا يمكنه أن يحزن.
بعد كل بضع خطوات يظهر شخص إمّا للتسوّل أو البيع، أو يخرج من حُفرة محاولًا أن يتدفّأ، وأحدهم ملفوف في فراشٍ ذهبَ ريشه مع الريح، وأحدهم كان يبيع الحليب بالقرب من منزله فوقفنا في الطابور للحصول على بعض الحليب.

"أينما كان هناك طابور فإنني أقف فيه بغض النظر عمّا يُباع لأنني أعلم أنني سأحصل على شيء في النهاية" قال مازحا.

بدأنا التسوّل من بيت رجل غني. دقّ الجرس، حينها أجاب الرجل على الباب قائلا "أوه، السيّد الطبيب! أنت تقتلني" بدلًا من الترحيب به. سأله كورتشاك ما هو أكثر سوءً من أن يكون المرء رجلًا عجوزًا؟ فأجابه أن يكون عجوزا يهوديا! فقال كورتشاك إن الأسوأ من ذلك أن يكون عجوزا يهوديا مُفلسًا! وما هو أكثر سوءً أيضًا هو أن يكون عجوزا يهوديا مفلسا وقليل الحيلة، وما الأسوأ أيضًا؟ أن يكون عجوزا يهوديا مفلسا وقليل الحيلة ويُعيل عائلة كبيرة. والأسوأ من ذلك؟ أن يكونوا جميعهم أطفالا. وما الأسوأ من ذلك؟ أنّهم يموتون جوعًا!

اختفى الرجل عن الباب، ثم عاد ومعه بعض المال الذي ألقاه في كيسٍ مدّه كورتشاك له. ثم استأذن قائلا صباح الخير، وأطبق الباب بينما كورتشاك ينظر في الكيس.

قادني إلى المنزل المجاور قائلًا إنه هو، يومًا ما، كان صاحب مال كثير حتى أُدخل والده مستشفىً للأمراض العقلية. وحينها تعلّم أن يلتجئ للكبار طلبًا للمساعدة. كان لسن البلوغ مكانة مميزة، فعلى أساسها يتحدّد ما يجب النضال من أجله. قال إنه سمع كثيرًا عن البروليتاريا في سن المراهقة، لكنّه اكتشف عندما نضج أن أقدم مكوّن للبروليتاريا في العالم هم الأطفال، فالطفل مُطَارَد دومًا وقد يفعل ذلك من أحبّوه يومًا. كان قد قرر بعد ذلك أن يصبح هو أبا اليتامى، وسيعمل دائما من أجل أولئك الذين ينبغي أن يكونوا في المقدّمة لكنهم يأتون في الوراء دائما.

قال "لقد كنتُ مثلك، بطيئًا في كل شيء أقوم به. حتى عندما كانت

جدتي تشاهدني أقوم بعمل منزلي ما تقول لي: أنت فيلسوف!"
قلت له "حينما يريدني أبي أن أساعده فإنه يناديني يا غبي"
قال لي "وكنت تساعده دائما"
قلت له "لم أكن أحب العمل"
فقال لي "إنّ أشد الأشخاص كسلا ممّن عرفتهم كان رجلا اسمه كريلوف، قضى معظم سنوات شبابه على أريكته وكل كتبه بجانبه. كان يمدّ يده إلى الأسفل ثم يقرأ ما يلتقطه مواصلًا القراءة"
مشينا إلى منازل أخرى، ويرفض المساعدة من يُجيب على الباب، فإن كورتشاك لا يتعد، بل يبدأ يردّد "لكن أطفالي، أطفالي" بينما أفكّر في أمي وهو يقول ذلك. وقال لي ونحن نسير بين البيوت "امكث صامتًا بينما أتكلّم معهم"
خلال وقت الغداء دخلنا مقهى وهتف "هل يوجد شخص ما يمكنه مساعدة أولادي خلال الشتاء؟" فدعاه رجل واقترب منه البعض الآخر. شكر من أعطاه. نظر إلى الكيس وقال "هذا ليس كافيا... ليس كافيا". بعدها توقفنا عند مكتب البريد لتفحّص الحزم التي أصبحت غير قابلة للتسليم بعدما فتحها الألمان. ثم سرنا إلى الدار. مررنا بشرفة السيدة مليووكونا، وكان الرصيف مسدودًا بأطفال يقفون هناك باكين بأيدٍ خالية، فأعطى كلّ واحد منهم شيئا. وبعد أن قطعنا العديد من الأحياء سألته إن كان يريد أن يستريح، فقد بدا أنّه متعب جدا. فقال إننا وصلنا إلى مرحلة لم يعد الأطفال القتلى فيها يثيرون شفقتنا. وقال إنّه إذا كان لا يمكن لرجل النظر إلى وفاة الآخر بهدوء، فإن حياته الخاصة تصبح أكثر قيمة مئة مرة. لقد نال منه المشي كثيرا، فقد كان يتوكّأ حديدَ كلّ باب منزل نمرّ به. قال إنه

كان يعجَب ببعض الذين ما زالوا يزورون أقاربهم الذين نُقلوا إلى المستشفى.

مجموعة من الأطفال ركضوا تجاهنا فكاد أن يسقط أرضًا. توكأ على صندوق بريد قُربَه، وبدا تنفسه مثل تنفّس أمي، ففكرت أن أفرّ وأتركه في الشارع إذا ما استمرّ يتنفس هكذا. قال لنفسه إن المهرّبين عاشوا وقتًا أطول، بينما غير المغامرين ماتوا في صمت.

ثم إنه لم يتحدّث مرّة أخرى حتى وصلنا إلى شارع سيينا، فبدت الدار على مرمى البصر. فكرت فيما لو مات في الشارع فأين سأكون بعد ذلك؟ ثم أخذ يدي لنتوقف، ونظر إلى حيث نقصد كما لو أن المبنى نفسه يُريد أن يقتله!

رأينا جيرزك وبعض الصبية الآخرين يلعبون في الشارع بالحبل ويتناوبون جَلد بعضهم بعضًا، وكان بإمكاننا سماع ضحكهم. قال كورتشاك "هل تعرف ما أحلم به؟ غرفة في أورشليم وبها طاولة وشيء أكتب عليه، وجدران شفّافة كي لا يفوتني شروق أو غروب. وأغدو اليهودي الصامت الذي لا يعرف أحد من أين أتى"

كنا نقف حيث توقّف هو. استند إلى عامود الإنارة ليحافظ على توازنه. أشار إليّ بإشارة "من بعدِك" كي أتقدّمه في المسير، ثم تنحنح وسار ورائي طوال الطريق إلى الدار.

سأل ليجكن "هل تعتقد أنه يمكنك الاختباء في ذلك الدار حتى تنتهي الحرب؟" لم أكن أدرك أنه ورائي في الشارع، كنت قد أُرسلت مع زيغموش إلى الخارج مع عربة يد لالتقاط برميل مخلّلات أخبر أحدهم كورتشاك انه تبرّع منه.

"دعنا نتحدث، يمكن لصديقك التعامل مع البضائع المسروقة" قال ليجكن.
توقّفتُ بينما زيغموش واصل السحب، وهزّ العربة عبر مسار العربات قرب الزاوية، ثم غاب عن الأنظار.
قلت له "إنها ليست مسروقة"
قال ليجكن "صديقنا ويتوسك اعتقد أنه يجب أن أذكّرك بأنك ما زلت عضوًا في وحدة مكافحة الجريمة. لم تنتهِ مشكلتنا رغم أنّك سوّيتَ أمرك في منزلك الجديد"
قلت له بأعلى صوت أمكنني "أنت قلت إنهم لا يتصيدون المهربين"
عدّل ياقته ومسح على ذقنه وقال "الألمان يفعلون ما يفعل الألمان، ما أريده هو أن نتذكر كيف نمنعهم من فعل ذلك لك" وقال "أودّ أن تسمح لي بأن أشتري لك حليب الشوكولاتة الساخنة" ثم سحبني باتجاه مقهى في الشارع.
كان المقهى مزدحمًا بالزبائن ودافئًا بما يكفي من الموقد، تكثف الهواء علو أسطح نوافذه. خارج المقهى صبيٌّ جلس القرفصاء وبجانبه طفل على منديل مفروش على الأرض. الطفل على جانبه ويلهث كحمامة. وفي الداخل جلسنا متقابلين ينظر واحدنا للآخر، وناولني منديلا لأمسح عينيّ قائلا "أنت تبكي أكثر من أي إنسان أعرفه"
اقتربَت امرأة من طاولتنا وقال "شاهد هذه تحمل صورة من أسعد أيامها لتُرينا في أيّ دمار أصبحت"
عندما جاء النادل طلب لي فقط وسألني إذا ما سمعت عن لوبيك، وحين قلت لا، أخبرني عنه بعد التأكد من أن ليس هناك من ألمانٍ قربنا. قال إن البريطانيين قصفوها حتى مسحوها عن سطح

الأرض. وحينما لم ير مني جوابا قال إن الجميع في الشرطة متفائلين ومتشائمين على حد سواء، يؤمنون جميعا بأن الألمان سيخسرون في النهاية، لكن المتشائمين يدّعون بأن ذلك لن يحدث إلا بعد أن يسيطر الألمان على العالم، والمتفائلون يقولون إن ألمانيا تشنّ حربًا شاملة في بولندا وحربًا إنذاريّة في فرنسا وحربَ تسوية في إنجلترا وحربًا قاتلة في روسيا. وقال إن الناس بدأوا يكتبون 1812 العام الذي هُزم فيه نابليون على الجدران.

قال إنه سأل ويتوسك متى يعتقد أن الحرب ستنتهي؟ فقال له حينما يأكل الألمان مرّة في اليوم واليهود مرّة في الشهر!

وحينما وصل حليب الشوكولاتة الساخنة تمنّى لي نخبًا للحظ، وقال إنه انتقل للعمل في الشرطة وقد أصبح الآن في منصب نائبٍ لشورنسكي. لذا يمكنني القول إنه الآن في الرتبة الثانية في قيادة الشرطة الصفراء بأكملها.

قال إنها مجرد محادثة، في النهاية، حين لم أزل لا أرد.

قلت له إنني بحاجة للعودة.

قال إنهم يودّون منّي مرافقتهم للقيام بجولة في بعض المناطق، فقد أكون أعلم شيئًا أخبرهم به حينها فيساعدهم.

قلت "تريدني أن اساعدك في قتل أحد آخر؟"

سألني إذا ما كنت أريد ما تبقّى من الشوكولاتة الساخنة، وحين لم أجبه شربه. قال "إن عمليّات المصادرة سوف تكون أكثر تطرفا. لا بطاطا ولا خبز ولا فحم لدور الأيتام جميعها، فالكثير من تلك الأطعمة ستُعطى للمقاهي".

قلت له وماذا يمكن لأحدنا أن يفعل، ليس لدى أحدنا أي حظّ.

قال "فكّر هكذا: هل علينا أن نقسم الملاعق المملوءة على الجميع؟ ستكون النتيجة أن لا أحد سيبقى على قيد الحياة. أم أن نعطي الملاعق كاملة لعدد قليل؟"

قلت "أنا بحاجة للعودة"

قال "سأتحدث إليك كما لو كنت تستطيع أن تفهمني، محتالًا لمُحتال، كما كنت. أولئك الذين ليست لديهم موهبة النّصب يُعانون دائما" ثم أومأ للخارج.

"أنا وأنت نعرف أن لا شفقة تُرجى من الألمان، سواء عشنا أم متنا، يعتمد ذلك على مدى الوقت الذي يقضونه في السّلطة. وإذا كان لديهم الوقت الكافي سوف يقتلوننا جميعا. وإذا لم يكن كذلك فسوف ينجو البعض"

نهضتُ فلم يحاول منعي.

قال "نحن لسنا بحاجتك حتى نهاية هذا الأسبوع "

قلت "ولمَ أنتم في حاجتي؟ لماذا لا يمكنكم العثور على أحد آخر؟"

أجرى أصابعه في قاع كوبي، وقال "سوف يساعدك ان تفكّر في الآخرين بالطريقة التي يفكّر بها رئيسي شورنسكي" ثم نهض وأشار لي أن أسبقه في السّير كما فعل كورتشاك من قبل وقال "يقول إن اللاجئين مثل أوراق الخريف".

تبعني إلى الخارج على الرصيف. بدأت الثلوج تتساقط فرفع ياقته ورفع ياقتي. ثم نظّف مقعده وركب درّاجته ومضى في طريقه. وبسبب الثلوج فقد انزلق وانحدر على الحصى واضطرّ لرفع رجله بين الحين والآخر لتحقيق التوازن.

ينام جميع الموظفين في المبنى المجاور، بينما كورتشاك لديه مكتبُه وسريرُه في الطابق الذي يعلونا، الذي يدعوه الجميع بقسم العزل، وهو للأطفال الأشد مرضًا. سريره وطاولته الليلية في منتصف الغرفة بين أسرّة الأطفال المصفوفة حوله. وبجانب كل سرير سطل، وعلى رؤوس الأطفال كمّادات. كورتشاك يبدو نائما حتى لو كان المصباح مضاءً ويرتدي ملابسه. كان الأطفال نائمين، فالسّاعة تخطّت الرابعة فجرًا.

كان هناك مكعّب من الخبز الأسود على الطاولة، وقطعة صغيرة في يده، كما لو أنّ النعاس داهمه أثناء تناوله الطعام.

تسلّلت صعودا على الدرج للحديث معه. سمعت ضجّة فاختبأت خلف مكتبه، ثم ظهرت السيّدة ستيفا في المدخل وشاهدَته نائمًا قبل أن تسير وتقف جوار سريره.

قال لها "أحاول أن أغفو لساعة قبل أن تبدأ خلية النحل في الأزيز" فأدركتُ أنه ما زال مستيقظا رغم أنه يغمض عينيه. "حين كنت صغيرا كنت أتظاهر أني أغمض عيني ثم أفتحهما فجأة كي أتمكن من رؤية ملاكي الحارس قبل أن يختفي!"

أحنت نفسها قليلا وجلست على طرف سرير أحد الأطفال. بدت متعبة مثله. سألته "كيف كان يومك؟ لم تسنح لنا الفرصة للحديث اليوم" وكنت أسمع في صوتها ما كنت أسمعه في صوت أمي حينما تطلب مني معرفة الأخبار.

قال "عشر ساعات وسبعة نداءات، وخمسون زيلوتي، ووعد بخمسة زيلوتي كل شهر"

قالت له إنّه لا أحد يتوقع أنّه سيتحمّل التجوال عشرَ ساعات في هذا

البرد، فوعكاته الصحيّة لا تسمح له.
قال لها "أيّ وعكات تلك؟" بينما ما يزال يستلقي على ظهره لكن يديه باتتا على عينيه.
قالت له "ضعف عضلة قلبك، والتهاب رئتيك، ومثانتك المضطربة، وتورّم قدميك وساقيك، وفتقك!"
بقيا هادئين ثم تابعت "تلك أمور لا تدعو للضحك!"
فسأل "كيف لطبيب أن يرفض إجراء عملية فتق؟ إنّ صحّتي متدهورة حقًّا"
قلت لنفسي أن أعود أدراجي إلى الأسفل. أنا بحاجة للتحدث مع شخص حول ليجكن، لكن ما هو الذي أريد قوله على أيّ حال؟
قالت السيدة ستيفا "أنت تسعل ثم تخرُج تاركا سترتك"
قال كورتشاك "وماذا عنك؟ سُترة واحدة لا يمكنها أن تُفيدك في شيء!"
رفع يديه عن عينيه ورآها تنظر إلى الفودكا والماء على الطاولة فسأل "هل لاحظتِ أنّ طعم الماء والخبز في الليل أفضل؟"
قالت "ما الذي سيحدث لو أخذك أحدهم من الشارع؟ أين سنكون بعد ذلك؟"
غضبها جعله يغضب أيضًا. قال "من قال إني حين أخرج يكون الألمان بالقُرب؟ وإذا كانوا بالقرب، مَن يقول إنهم سيكونون في طريقي؟ وإذا كانوا في طريقي فمن يقول إنهم سيختارونني لاعتقالي؟ وإذا فعلوا ذلك فمن يقول إنهم لن يقتنعوا بما سأخبرهم به؟!"
قالت "أنا أسأل إن كان القليل من المال يستحق تلك المخاطرة"
أصدر صوتًا مزعجا بحلقه ثم قال "أتعرفين، حينما كنت طفلا صغيرا

قلت لأساتذتي أنني أعرف كيفية إعادة تشكيل العالم. الخطوة الأولى هي التخلّص من المال كلّه، في الخطوة الثانية تفشل خطتي دائما!"
أطبقت شالها حول عنقها بيد واحدة، كان الجوّ باردا. نادى ابنُ البواب من الفناء يشتكي من الضوء، وقال إنه يبدو مثل هانوكا وإنه لا يريد أن يكرّر كلامه مرة أخرى. ذهبت السيدة ستيفا ناحية النافذة وأعادت تثبيت الورقة المعتمة.
قال كورتشاك "يتكرّر في نومي حُلمٌ حول ما قد يقوله أحد أولادي عني: ذهب إلى النوم في الوقت الذي نحن بأمس الحاجة له؟!"
قالت "لا تستطيع وحدك أن تفعل كل شيء!"
قال "كم أرضًا عليّ حرثها؟ كم خبزًا عليّ خبزه، وكم شجرة عليّ زرعها وكم الطّوب الذي عليّ صفّه، كم الأزرار التي عليّ خياطتها وكم الملابس التي يجب أن أرتقها؟"
"اششششش" قالت له. "لا تجهد نفسك"
"أبي كان يدعوني بالأبله، الأحمق، الطفل الباكي، والحمار! إنه على حق، والذين آمنوا بي على حق أيضا" قال كورتشاك.
أدركتُ أنهما يتحدثان عن أمر آخر تماما، والذي لم أعرفه هو كيف يعمل عقل الإنسان، بما في ذلك عقلي.
قالت "أعلم أنك لم تعِدني بشيء يوما، وأقول لنفسي كوني متيقظة يا ستيفا، إنّكِ أنت الحمقاء الكبيرة، لقد حصلتِ على ما تستحقين"
قال لها "الافتراض الأكثر من رائع ما زال بحاجة للتحقّق!"
قالت "اعتقدتُ دائما أن على المرء أن يُعطى كي يُعطي"
سألها "ما هو الحب إذن؟ هل دائما نعطيه لأولئك الذين يستحقونه؟ كيف لنا أن نعرف أننا نحبّ بما فيه الكفاية؟ كيف

نتعلم أن نحب أكثر؟"
صارت رائحة الغرفة سجائر وأقدام، والورقة المعتمة على النافذة انزلقت مرّة أخرى وراح الضوء يطل في الخارج.
سألته "هل أحببت أحدا؟"
قال "منذ السابعة من عمري وحتى الرابعة عشرة كنت دائما في حالة حب! ودائما مع فتاة مختلفة!"
زجاج النوافذ بدأ يهتز وكأنه يصغي للريح.
تنهّد كورتشاك تنهيدة طويلة.
قالت "أفكّر دائما فيما لو لم أكن قبيحة جدا!"
قال "أنا دائما أخبر الجميع أن ستيفا تذكّرني بأني الكائن البشري البائس الذي يجعل مَن حوله بائسين"
فأجابته بصوت خفيض جدا لم يسمعه، فطلب منها إعادة ما قالته.
"إنه من الصعب الشعور بالوحدة دائما"
لم يجبها فأخذت تنظر إلى يديها.
تشنّجت قدماي لجلوسي فترة طويلة في وضعية واحدة.
أخبرها أخيرا "لقد استرجعت ما دفعته. الوحدة ليست أسوأ شيء، أنا أقدّر الذكريات"
نهضَت وتوجّهت ناحية الباب، ثم وقفت وقالت "أنا أذكّر نفسي دائما بأنّي لستُ في وضعٍ مناسب كي أطلب بعض الطلبات. رغم ذلك، ما زالت كرامتي تقف في طريقي أيضًا"
تمكّنتُ من رؤية التعاسة بادية عليها في ضوء المصباح، لكنه تجاهلها.
قال "لا شيء يمكنني قوله أو فعله باستطاعته أن يكفيك أو يكفيني"
قالت "أنت دائما تستسلم، وتؤجّل، وتُلغي، وتبدّل"

جلس على مرفقيه "أنا أرى مشاعري من خلال المنظار! إنها زُمرة متكومة في القطب المتجمّد، وحينما يسعل أحدها، بداية أشعر بالشفقة، ثم أشعر بالنقيض، ربما هو مُعدٍ، وربما سيتسبب في استخدام ما تبقى من الدواء لدينا"

فاعتذرَت منه لأنها لم تتركه ينام.

قال لها "أنا موجود ليس كي أُحَبَ، بل كي أعمل"

قالت "القديس يدعو والله يُجيب"

قال لها "أنا أفعل ما بوسعي: إلهنا قد لا يُريد فرضَ القانون فرضًا، لكن ذلك لا يعني أنه لا ينبغي اتّباعه"

سألت "ولمن نرفع دعوى الإخلال بالعقد؟"

قال "يُفترض أن يكون الحاخام يستحاق بيردوشيف[23] هو من يستدعي الربّ إلى المحكمة الحاخامية"

قالت "أعتقد أننا لن نجد أبدًا المكان الذي نتمتع فيه بجنة فسيحة وسلام مُطلَق"

قال "أقول لنفسي أحيانا: لا تغفو أبدا، استمع عشر دقائق لتنفسهم، لسعالهم، أصواتهم الصغيرة"

قالت "نعم"

قال "وهذا ما أفعله، نحن مثل شواهد قبور حية. وفي إسرائيل لديهم عربات الأطفال والأشياء المتنامية الخضرة "

أصدرَت صوتًا كما لو أنّه صفعها، فاستلقى على السرير حالما سمعها خطواتها نازلة الدرج.

---

(23) من القرن السادس عشر له أثر في التاريخ اليهودي، كان محبا و مدافعا عن اليهود عاش بين عامَي (1740-1809 م) الميلاد زاموسك \بولندا و الوفاة في أوكرانيا. levi yitzchak of berditchev

• • •

الولد الذي يدعوه الجميع "ماندولين" لأنه لا يترك آلة الماندولين الموسيقيّة التي عنده أبدًا، بل يأخذها معه حتى أثناء حمّام القمل، يمسكه فوق رأسه، توفي في سريره وذراعاه ملفوفتان حول الماندولين. قُدّمت لنا وجبات أقل من المعتاد، فذُعر الجميع. كنا إذا أنهينا حصصنا من الطعام بسرعة، ننتظر طويلا حتى تأتي الوجبة التالية ما يزيد ألمنا. كل واحد منا يفكر في قرص الخبز التالي على الطاولة. في غرفة العزل حينما يحضر قدر الحساء ترتفع الأيادي الصغيرة من الأسرّة.

كان لدينا دقيق الشوفان المطبوخ بالماء ودم الحصان الرائب فيشكّل قطعًا تسبح في المقلاة مثل إسفنج أسود، وله طعم الرمل. أمّا يوم السبت فنتناول حساء الحنطة السوداء وشحم الخنزير..

رغم شحّ الطعام عندنا، أعطانا كورتشاك جميع العناوين وبطاقات دعوات لعيد الفصح الذي سنقيمه في أوّل شهر أبريل. اقتسمنا قائمة المحسنين. وحينما جاء اليوم، وصل خمسون من الضيوف وجلسوا بالقرب من الباب. وغُطّيت الطاولات الطويلة بمفارش المائدة.

جلستُ قُرب صبيّ كثير البثور، كثيف البُقَع، يسميه جيرانه حراشف السمك. لم يكن لدينا بيض ولا أعشاب، فقط القليل من الحساء وكُرَة الخبز لكل واحد منهم. وكان الصبيان الصغار متحمسين لأن السيدة ستيفا أعلنت إن هناك لوزة مخبّأة في إحدى كرات الخبز تلك. قال زيغموش مازحا إننا في عطلة مجاعة سنعيشها بقية أيام

الأسبوع. لكن كورتشاك أخبر الضيوف إنه لا يوجد طفل على طاولته قد أُبعد، بل انضمّوا بحُب بعناية أرواح أمهاتهم وآبائهم المتوفّين. وحينما قال ذلك بدأ بعض الأطفال في البكاء ومعظم الجمهور فعل ذلك، بينما ميتيك حصل على اللوزة.

لمدة أسبوع لم يأت ليزعجني بالسؤال عني. لكن أحدهم أخيرًا طرق باب الدار بشدة في وقت متأخر من المساء، فأجابته السيدة ستيفا. جاءت ناحية سريري وقالت إن شرطيًّا يهوديًّا يرغب في رؤيتي.

عند الباب قال ليجكن إنه بحاجة لمعرفة مكان شقة أحد أصدقائي، الفتاة الجميلة، التي مكثت لوقت قصير قبل مغادرتها الحي اليهودي. فقلت له إني لا أعرف ما يتحدث عنه، فقال لي إني لو رفضت فإن الألمان سيأخذون عشرة من الدار ويطلقون عليهم النار، وسيكون الألمان سعداء لو أخبرتني أيّ واحد منهم سيبدؤون به! ثم بقي ينتظرني ريثما أرتدي ملابسي. نزلت الدرج ووصلنا إلى سيارة فيها ألمان في الخلف. سأل أحدهم ليجكن بالبولندية لمَ كنت أبكي؟ فقال "هذا ما يفعله دائما".

في البداية أعطيتهم عنوانًا خاطئًا. وحين وقفنا عنده شعرت بالذّعر، فقلت لهم أنني أخطأت وأعطيتهم العنوان الصحيح. كان على بُعد سبعة أحياء. شيء ما علق في سخّان السيارة في لوحة العدادات فأصدرت هديرا. بينما انتظرتُ في المقعد الأمامي، ليجكن مع اثنين من الألمان ذهبوا وطرقوا الباب وخرجت امرأة. طلبوا منها الوقوف في الخارج، وكانت ترتدي ثوب الحمام المزهر، وراحت تتطلع ناحيتي في السيارة. أطلق أحد الألمان عليها الرّصاص حيث تقف، وبقيت هناك خارج باب منزلها.

في اليوم التالي كان الصبيان يتحدثون عن عدد الناس الذين يُقتلون في أرجاء الغيتو. طلب كورتشاك من سيدة ستيفا أن تجعلني أنام وهيّأت الغرفة ذلك اليوم من أجلي. قلت لنفسي إنني لن أتحرك وسأبقى أبكي حتى أنضب وسأكون على ما يرام. لا أحد يعرف كم من الناس قد قُتلوا. قالت إحدى الموظفات لميتيك إنها سمعت أنّ القتلى كانوا يتواصلون مع صحيفة غير قانونية. قال كورتشاك إنه لا ينبغي الخوض في هكذا مناقشة على مسمع من الأطفال. في اليوم التالي قررت أن أنهض وأقوم ببعض الأعمال المنزلية. وبينما أغسل الصحون سمعت مصادفة كورتشاك يخبر السيدة ستيفا إن المجلس اليهودي عمّم مذكّرة ورد فيها أن الألمان قالوا إن الإعدام كان حدثا وحيدا لن يتكرر.

بعد ذلك كانت هناك عمليات اعتقال يومية في المتاريس قام بها الألمان في شوارع مختلفة مع وضع مساند خشبية وعلامات. وحالما تصبح المتاريس محاصرة يكون لديك بضع دقائق للفرار بعيدا قبل أن تسد الشوارع والأزقة أيضا.

سيدة ستيفا قالت "الآن أصبح يوم النجاح هو اليوم الذي تعرف أين يمكنك أن تذهب فيه دون وقوع أيّ حادث".

كان الحل الذي يقترحه كورتشاك لكل ما يحدث هو كتابة الرسائل للمسؤولين، لأن الأمور سيئة بكل ما تعنيه الكلمة من سوء كما قال. وذلك لا يعني أن نقول إن ذلك الإجراء عديم فائدة.

كل من كان يُحسن الخطّ طبع في تلك الرسائل "من فضلك أرسل التبرّعات إلى دار الأيتام في شارع سيينا 16 للأطفال المرضى" وقال إن هناك المزيد وسيقوم بإملاء الرسائل على البقية. وقال لمن يُحسن

الخط اكتبوا أنكم الآن تركضون في الأرجاء وتلعبون بسلام بعد أن كنتم قد وصلتم قبل وقت قصير جرحى ومجمّدين ومعنّفين وجائعين ومطارَدين.

تساءل بعض الأطفال عن تهجئة كلمة "بسلام" لكنه قال لهم إن ذلك لا يهم، وقال اكتبوا أنه لا يوجد طعام لهم وأن الكثير من الأطفال الصغار توقّف نموّهم، وأن الكوابيس والبكاء قد أصبحت تجربة دائمة في حياتهم، وأن حتى التعليم لم يعد أحد حقوقهم منذ أن صار مجتمع الكبار لا يوفّر بيئة مناسبة أو عقلانية للأطفال يمكنهم أن يصنعوا لأنفسهم من خلالها عالما مهنيًّا ومعطاء.

كتبتُ هذه العبارة مرتين، صرت مأخوذا بها. وقال اكتبوا أن هناك المزيد من الأطفال يناشدونه الانضمام، يأتونه مجموعات مجموعات من الشارع ويقدّمون مقترحاتهم مثل أعضاء صغار نحيفين في مجلس المدينة. ثم قال لنا أن نوقع الرسائل كلها بأسمائنا، ثم نكتب بعد ذلك "الطبيب هنريك جولدسميث / جانوش كورتشاك / الطبيب العجوز من الإذاعة".

بقيتُ ثلاثة أيام لم أغادر خلالها سريري إلا وقت الوجبات، ومجدّدًا أخبرهم كورتشاك أن يتركوني وحيدا. البقّ ينتشر أسفل قدمي فقط. خلال النهار وقبل أن يعلّق الأطفال الأوراق المعتمة على النوافذ، أصبح يوجد قانون جديد وهو وجوب الوقوف على جانب النافذة ومشاهدة الشارع، لأن الألمان الآن صاروا يطلقون النار على أيّ حركة يرونها في الداخل.

شرطي يطلق عليه الموظفون اسم فرانكشتاين لأنه يتصرف مثل

الوحش في الفيلم، لا يترك أي فرصة أبدا كما قالوا لكسر نافذة إذا ما شاهد ظلا.

الأطفال شاهدوا اعتقالات في المتاريس. ويمكن أن نسمع منهم ابتداءً الصفارات والصراخ. في بعض الأحيان يرون شخصا يعرفونه، اليهوديّ يفرّ حاملا كل الأشياء من أقفاص من أوعية وقرون. وكان أحدهم لديه وعاء مع الشتلات. كانوا جميعا في طريقهم إلى مستودع الألمان المسمّى "امسلاج بلاتز" حيث تأخذهم القطارات بعيدا.

في اليوم الرابع اصطحبني كورتشاك معه في جولته. أصرّت السيدة ستيفا عليه أن يرتدي قميصا ليُدفئه. كان عليه أن يناضل لارتدائه وساعدَته في لبسه بواسطة الحمالات.

في الشارع لم يتمكن من تذكّر إلى أين سيذهب. في أحد المداخل دق الجرس وسألني ما الذي جئتُ لرؤيته؟ وفي ظُلمة أخرى سأل نفسه ما الذي أبحث عنه؟ مِشط حذائه انخلع أثناء المشي. دخان الفحم المتطاير ترك أثرا على أسناننا. كان الجميع ينتقلون في ذهول وينظرون ناحيتي كأنني قطعة خبز. امرأة أمامنا في متجر تشتكي غلاء السعر، قال لها كورتشاك "اسمعي، هذه ليست بضائع وهذا ليس متجرا، وأنت لست زبونا وهو ليس صاحب المتجر، لذا أنت لا تغشين وهو لا يربح!" هذا هو بالضبط ما قررنا القيام به نظرا لأنه يتعين علينا أن نفعل شيئا. في طريق العودة تورّمت ساقاه حتى أنه اضطر لاستئجار دراجة بمقعد للركاب. طلب مني أن أختار السائق الذي يبدو الأقوى. وعندما ركبنا اتّكأ عليّ وقال بصوته الأجش إنه دائما ما نقله السائقون، وإنّهم لطالما كانوا لطفاء معه وهادئين مثل الثيران أو الخيول.

• • •

مرض المزيد من الأطفال، لكن السيدة ستيفا ما زالت تنام في الطابق السفلي مع الأصحاء بينما كورتشاك ينام في الطابق العلوي في غرفة العزل.

"إن شهر مايو بارد" قال لي ذات ليلة حينما صعدت للجلوس معه وكان يكتب شيئا ما بينما الجميع نيام.

سألت "ما هذه الرائحة؟"

فأجابني "الكربيد في المصباح"

كانت قارورة الفودكا فارغة، سألته "وما هذه؟"

فقال "كحول خام مزجته مع الماء وأذبت فيه حلوى صلبة للتحلية"

سألني لماذا لم أتناول عشائي؟ فقلت له إنني لا أرغب في ذلك. قال إن التعب والخمول من أعراض سوء التغذية. فسألته وأنت لماذا لم تتناول عشاءك؟ فقال إن تناول الطعام عملٌ أيضًا وهو متعب.

جلست إلى جواره على سرير جيرزك الذي كان يتعرق وعيناه مفتو حتين .

قال كورتشاك "إن الكحول الممزوجة بالماء الدافئ تعالج آلام والتهابات العيون"

حين يكتب كان ينكبّ بوجهه على الورق. سألته أخيرا "ماذا تكتب؟"

قال إنه يكتب إلى المجلس اليهودي ليطلب منهم السماح له بتولّي مسؤولية المأوى العام الذي يحوي ألف طفل، الواقع في شارع ديزلانا. وذكرَ في طلبه أنه نشر شائعات عن نفسه أنه اللص الذي جعل الأطفال يتضورون جوعا، وذلك كي يتأهّل للحصول على الوظيفة.

وقال إنه كان غير متوازن ومنفعل وصحّته قد اجتازت الفحص في سجن الجستابو قبل عام، فبالرغم من الأوضاع الصارمة هناك فإنه لم يسجّل كمريض أبدًا. وأنه لم يتغيب عن العمل في ساحة السجن قط. وقال إنه كتب لهم بأنه تناول طعامه مثل حصان ونام بصورة جيدة بعد عشرة جرعات من الفودكا، وتلك التجربة وهبته القدرة على التعاون مع المجرمين والبُلهاء بالولادة!

قلت له "وكم ستدفع لك هذه الوظيفة؟؟"

فقال إنه طلب فترة تجريبية، لكن الحد الأدنى عشرون ألف زيلوتي لرعاية الأطفال.

سألته "هل تعتقد أنك ستحصل عليها؟"

فقال "لقد حصلت عليها بالفعل! استلمتُ المهمّة بشكل دائم وأُعطِيت ألف زيلوتي! فمن يتجرّأ ويتنكر للطبيب القديم من الراديو أن يتقلّد شرف الإشراف على الأطفال الذين يموتون بمعدل عشرة أفراد يوميًا؟"

فقلت له "إذن ما الذي تكتبه؟"

قال "تصوّرتُ أنّ المجرمين بأنواعهم هناك من الموظفين سوف يتركون المكان طواعية منذ أن اتضح لهم أن المكان بغيض للغاية. لكنه ما زالوا هناك فقط لأنهم جبناء وجامدون. رغم ذلك سدّوا الأبواب في وجهي. صرتُ أنا الغريب، العدو. لقد توفيت ممرضة جيّدة بسبب السّل. أحاول أن أدفع بالبقية كي يُطردوا!"

قلت له "ملح الأرض يذوب والهراء يبقى" كان أمرًا لطالما كرّره لوتيك.

قال كورتشاك "ذاك يصف الوضع"

قال جيرزك إنه يشعر بالعطش فنهض كورتشاك من سريره ونزل إلى

المطبخ وأحضر له كوبا من الماء.
قال كورتشاك "هنا لديّ أربعة طرق للتخلص من الوافدين الجدد غير المرغوب فيهم: أرشيهم، أو أوافق على أي شيء، أو أكذّب القانون وأُضيع الوقت في انتظار لحظة الإضراب، أو أرميهم إلى الخارج. لكن في المأوى العام لم ينفع أي منها"
قال جيرزك "شكرا،"
فقال كورتشاك "على الرّحب".
تابع جيرزك "سوف يتعب الجميع مني اليوم لأني أعاني من الصداع، أو لأن الجو بارد، أو لأنهم يريدون الخروج في نزهة!" وشرب الماء.
قال كورتشاك "أوه استمع إليّ،" ووضع يده على رأس جيرزك "جعلتني أتذكّر مدرّسنا القديم الذي كان يسخط منّا لأن شعرنا ينمو بسرعة!"

• • •

في اليوم التالي كان الطبيب ضعيفًا جدًّا للذهاب في جولته. وفي اليوم الذي تلاه هتف "أنا أنهض، أنا أنهض، أنا واقف على قدميّ!" سمعته حيث أنام مكاني في الطابق السفلي.
قال زيغموش "هذا الصبيّ مرة أخرى! أعتقد أن السيّد الطبيب بات لديه أحد يفضّله على الجميع!" وذلك حين رآنا نستعد للمغادرة.
ذهبنا إلى متجر جزارة، سمع كورتشاك أنه سيكون مفتوحا هذا اليوم.
حينما قالت له المرأة السعر، فسأل مازحا "هل هذا لحم بشر؟"
قالت "إنه سعر رخيص جدا مقابل لحم حصان"

قال "كيف لي أن أعرف؟ لم أكن هنا حين أعددتموه!"
وجدنا طريق توارادا مسدودًا بواسطة ليجكن وصفّ من الشرطة الصفراء. نادى ناحيتنا تاركًا كتيبته وراءه آتيًا ليتحدث معنا.
قال كورتشاك له "أعرف أنك تقلّدت مسؤوليات جديدة" فانحنى له ليجكن، والتفت كورتشاك ناحيتي قائلا "لقد اعتُقل السيّد شورنسكي بسبب متاجرته بالفراء في السوق السوداء" قلت له إن ذلك لا يهمني، فقال إن ذلك يعني أنّ صديقي ليجكن بات الآن قابضًا على أمور الشرطة كلّها. فقلت إنه ليس صديقي. فقال ليجكن، بهذه المناسبة، إنّه من الضرورات الجديدة في الشرطة تسليم حصّة يوميّة للترحيل، والشرطة الذين يفشلون في ذلك سيرحلون بدورهم. وقال إن بعض رجاله يفضلون ألّا يختاروا جيرانهم للترحيل، ولذلك يمكنهم الاستفادة من بقيّة عصابتي القديمة، فالمهرّبون فئة جيّدة للبدء بها.
قال كورتشاك "اترك الصبي وحده"
قال ليجكن "لقد أعطيته تحذيرات عادلة حول صفقات الأعمال التي سنجريها في المستقبل"
سحبني كورتشاك بعيدا.
قال ليجكن "لا تحتاج للاختباء وراءه، أستطيع رؤيتك"
وبعد ذلك تركنا وحدنا. قال لي كورتشاك إنه يمكنني التوقف عن الاختباء بعد بضعة أيام "فالسيد ليجكن لديه أشياء أخرى يقلق بشأنها".
صار الجو حارا في عيد هبوط التوراة، وخفّ قليلًا في عيد الفاكهة الأول. ومشكلة الذباب أصبحت سيئة للغاية مما حدا بكورتشاك أن يخصص رسومًا لدخول المرحاض، تقتل خمس ذبابات للتبول

وخمس عشرة ذبابة للتبرز. أيًا يكن دوره في الطابور، فلابد من دفعه الرسوم. سألني ميتيك في صباح أحد الأيام هل يمكنه أن يلتقطها لاحقا لأنه لم يتمكن من اصطيادها، فقلت له إني سأقوم بذلك بدلا منه.

في بداية يونيو أصيب الجميع بالإسهال، فغلينا الأواني جميعها. كورتشاك والسيدة ستيفا حسبا أن المشكلة قد تكون في الخبز. والدار الرئيسية للأطفال أصبحت دارًا للمسنين، هكذا أخبرها ذات ليلة، وكانت المجموعة بأكملها منهكة ومستاءة حتى بإمكانك سماع شكوى الأطفال عند الأواني وفي المرحاض.

قالت هي إن الألمان ربما سيتوقفون. فقال لها إن الألمان يُديرون أكبر شركة في العالم واسمها "الحرب" وإنهم لا يلعبون في ذلك، فهي شركة غير نظيفة ولا لطيفة ولا حلوة الرائحة. وقال إن عبارة "نحن الألمان" تعني "نحن العجلة الحديدية". وحين بدأت تبكي، قال دون أن يبدو في صوته الأسف إن ذلك هو شعوره أيضًا.

الليلة التي جاءت فيها الشرطة الصفراء من أجلي، تمكّنتُ من الاختباء. كان هناك إطلاق نار طوال الليل. السيدة ستيفا بكت صباح اليوم التالي ولم تتوقف حتى أمر كورتشاك اثنين من الموظفين أن يصطحباها إلى الطابق العلوي. جمع كورتشاك كل الأطفال حولها وقال لهم إنها مذهولة لأن أحد الأطفال المفضلين لديها قد قُتل. ذكر اسم الصبي لكن أحدًا لم يعرفه! فأوضح هو أن ذلك الصبي قد تخرّج من الدار. سأل أحدُ الأطفال عمّا يجري، فقال له لا أحد يعرف، لكن في تلك الليلة كنت قد سمعته بشكل غير

مباشر يخبر السيدة ستيفا إن الألمان أبادوا كل المهرّبين، وأن الجنود مع الكلاب كانوا يقتحمون البيوت ويسحبون الناس خارج منازلهم. والشرطة تطوّق جدار الغيتو العازل لحراسته. ورقّمت باللون الأبيض كل خمسين مترا من الجدار، وكلّ شرطي بات مسؤولًا عن منطقته المرقمة، وكان الهدف على ما يبدو هو استخدام هؤلاء اليهود لتجويع أحدهم الآخر حتى الموت.

تذكرت السيدة ستيفا عندما ساعدهم الصبي الذي قتلوه في جلب نصف بقرة محشوّة في ست حقائب على سطح أحد المباني التي أُفرغت بسبب التيفوس. وكم غمر لحم البقر الأطفال بالسعادة. وتذكّرَت أيضًا أنه بعد حصار المدينة اقتحمَ مستودع الجيش وخرج بغطائيّ وسادتين مملوءتين بالسكر والأرز.

سألتْ كورتشاك إن كان يريد شايًا، فقال لها إن كانت تريد أن تصنع شايًا فيجب أن تُعدّه لجيرزك الذي ازدادت لديه الحمّى سوءًا. سألته إن كان يريد ماء مُحلّى، فقال لها إذا كانت تريد أن تصنع ماءً سكريًّا فعليها أن تعطيه الموظف الذي منح نصيبه من العشاء لفتاة صغيرة تبكي.

صباح اليوم التالي كُلّفتُ بحمل الفحم من القبو. وبينما كنت في الأسفل، جاء جيرزك مع مصباح كربيد بينما الكربيد يهسهس. بالنّظر إلى حالي قال أوّلًا إني أبدو كأني اقتحمتُ مدخنة! وثانيًا إنه يريد معرفة الصبي الذي بالباب حاملا رسالة لي، وإن كنت أعرف من كان. قال لي إن الصبي يخبرني أن أدينا خرجت من مخبئها فقد استدعاها الألمان قائلين إنهم سوف يقتلون أصدقاءها إذا لم تأتِ. وما إن فعلت حتى شنقها الألمان في شقتها أمام والدتها، وإنّه يريدني أن أعرف بما حدث لأنه يريد

قتلي فور أن يقبض علي. وحين انتهى بدا وجه زيغموش كما لو أنه قال كل ما قيل له، ثم حرّك بعض الفحم وحمل مصباحه وعاد أدراجه.
" أنتِ تعرفين صديقي الآخر في منتصف تلك الليلة، كما أظن " كورتشاك حدّث السيدة ستيفا بصوت مرتفع حينما ظهرت في مدخل غرفته ورأتني جالسا بالقرب منه على سرير ميتيك حيث كان مصابا بالحمى. سألتْ "ألا تستطيع النوم؟" ونظرت لي نظرة شفقة. البيت كله يغط في سكون عدا بعض الأطفال الذين يصدرون الأصوات بسبب اضطراب تنفسهم.
"كان هناك كثير من الرياح والغبار بالأمس" قال كورتشاك.
ما إن جلست على طرف سرير جيرزك قالت له "لبرهة اعتقدت أن العاصفة ستطهّر الهواء مما يجعل التنفس سهلا". وقالت إن الجو كان حارًّا جدا حتى إن الأطفال نصبوا مفارشهم على الأرض، وكل من يستطيع المشي قضى يومين في الغسيل وشطف الأرض، وما زالت رائحة الإسهال عالقة في المكان.

كنت معه لأنّه كلّما انطفأت الأضواء تذكّرت أمي حين تستيقظ ولا تتمكن من العثور عليّ في المستشفى ثم تتفاجأ من عدم قدرتها على القبض عليّ. وأرى أيضًا وجه لوتيك حين طارت قُبّعة جلد الأرنب. قال كورتشاك وهو مستلقٍ على ظهره "بينما أنا مُضطجع هنا اخترعت آلة. إنها تشبه المجهر، تمكّننا من النظر إلى داخل الإنسان، وفيها مقياس من 1 إلى 100 بحيث إذا وضعت مسمار المايكروميتر على 99 ووجدَت الآلة أن مَن تفحصه لا يتمسّك على الأقل بواحد من مائة من إنسانيته فإنه يموت. وحين أدرتُ الآلة فإن كلّ ما تبقى هو بعض

الوحوش، أمّا البقية فقد لقوا حتفهم"
قالت السيدة ستيفا "مررت بأسبوع صعب"
أكمل كورتشاك "وبعد أن أضع المسمار على ثمانية وتسعين سأكون أنا قد انتهيت أيضا"
ستيفا "حسنا، سيكون ذلك فظيعا"
وبينما ميتيك كان يضم ذراعيه في نومه، واصل كورتشاك "الأطفال يقولون حتى الطيور الآن لا تحلق فوق رؤوسنا"
قامت ستيفا بفرك وجهها تعبًا أو صبرًا.
قال كورتشاك إن القراءة قد بدأت تُرهقه وهذا مؤشّر خطير جدا.
قالت ستيفا "لقد رأيت باولا بالأمس"
ابتسم حين سمع الاسم، فأكملت "هل يمكن أن تتخيل أنه في عمر الأربعين الآن؟ منذ وقت قريب كان في العاشرة! سألني بعض حساء الملفوف. ما يزال يعمل في التهريب، وقال إنه كلّ صباح يعطي ابنه نصف لتر من الحليب وخبزا ملفوفا. فسألته لماذا لم يزرنا قط؟ فقال إنه حينما كان ميسور الحال لم يكن هناك وقت أبدا، وحين خسر كل شيء كيف يمكنه أن يأتي وهو أشعث قذر؟"
"باولا.." قال كورتشاك وعمَّ الهدوء المكان.
سأل أخيرا "هل أخبرته أن عليه الآن أن يتوقف عن التهريب؟"
قالت ستيفا "أنت تعرف باولا"
قال "هل عليّ أن أفعل كل شيء بنفسي؟ هل عليّ أن أذهب للعثور عليه؟"
قالت "لن يستمع إليك"
فأغمض كورتشاك عينيه ولم يجب.

قال لها بدلا من ذلك "ليس لدي فكرة عمّا يجب علينا فعله مع بالبينا. وإذا كنت ترغبين في قياس مقاومتك الإصابة بالجنون، فعليك أن تحاولي مساعدة شلميل!"

قالت له "هي ما تزال تبحث عمّا يمكنها فعله حيث لم يكن لديها الكثير من المسؤوليات في دور الأيتام الأخرى"

قال كورتشاك "تضعين الورقة في يدها وتخبرينها أن عليها أن توصلها اليوم، وهنا العنوان والساعة، لكنها تعود وقد فقدت الورقة أو نسيت أن تأخذها معها أو أنها كانت خائفة أو أن الحمّال قال لها أن تذهب إلى مكان آخر. ستذهب غدا، أو بعد غد. ستذهب بعد أن تُنهي التنظيف. هل ذهابها مهمّ على أيّ حال؟ وهكذا.." ثم وضع يديه على عينيه، وقالت السيدة ستيفا إنه كان قاسيا.

قال "أنا قاس! العمل هنا يفرض عليك أن تكون قاسيا، أن تتمرّغ في الفضلات، أن تكون نتنا، وأن تكون مخادعا"

قالت "تبدو محترمًا بما فيه الكفاية حين تُجري المحادثات"

قال "أنا لا أجري أيّ محادثات. أنا أذهب إلى التسول للحصول على المال والطعام، إن الأمر صعب ومهين"

قالت "أعرف ذلك"

"أنت" قال لي "أنت لا تقرأ أبدا، هل تريد أن تظل غارقا في الحماقة؟"

قالت له السيدة ستيفا "دعه وشأنه! إنه يُحرز تقدّما في دراسته"

قال "في دراسته؟ نحن في سجن، سفينة طاعون، ملجأ، مرقص، فخ منصوب، تخلو الشوارع من الأجساد في الصباح وتتكدس مرة أخرى في المساء"

قالت "هذا ليس سببا لتخويف الأطفال"

قال "الجميع ملوّث"
قالت "لديك الكثير لتفعله في الغد، أنت بحاجة للراحة" وملأت كأسه من إبريق بجانبه، فأخذه وكرعه في شربة طويلة.
سأل" هل تعرفين كيف وصل جيرزك إلى هنا؟" أخذَت نفسا عميقا وقالت لا. فقال إن عائلة جيرزك ماتت بالكامل في الحجر الصحي وهو نبش جثّة والده كي يحصل على جسر الأسنان الذهبي ويتمكن من بيع المواد الغذائية، لكن بعد ذلك استخدم المال لشراء طريق خروجه من مخيّم الترحيل، هل تفهمين ما أعنيه؟" وأكمل "يحفر التراب ليخرج رأس والده ثم يسحب جسر الأسنان من فم والده ثم لا يحصل على المواد الغذائية التي يحتاجها على أيّ حال"
سمعنا طفلًا يبكي في الأسفل فغادرت السيدة ستيفا لتتحقّق الأمر.
كورتشاك كان ساكنا بعد ذلك، فظننت أنه غطّ في النوم. لم يفتح عينيه حين عادت ستيفا.
قالت "اعتقدتُ دائما أن عمليات الإغاثة بعد الاعتقال تُخبرنا شيئا. لماذا نريد التخلص من هذا المكان ولماذا يبدأ هذا مع كبار السن والأطفال؟ لماذا يبدأ إعادة التوطين مع هؤلاء الذين لديهم متاعب كثيرة في مكان غريب؟"
جلس كورتشاك وسكب لنفسه كأسًا أُخرى من الإبريق، ثم عاد واستلقى على ظهره وأغمض عينيه دون أن يشربه.
قالت ستيفا إن دورا اعتُقل مرتين وأرسل إلى مخيّم الترحيل لكنه استطاع العودة كلّ مرة، وإن دورا يقول إنهم إذا نقلونا في أي وقت أن نمكث في آخر قافلة السائرين لأنه عندما يمتلأ القطار يسمحون أحيانًا لِمَن بقي بالذهاب.

قال كورتشاك إن تلك نصيحة ثمينة.
قالت بتعب "ينبغي ألا نتحدث بمثل هذا أمام الصبي" فوافقها.
سألني "هل ذهبت يوما ما إلى سريرك؟" هززت رأسي نافيًا.
لم يبد على وجهه الاندهاش. قال إن كورتشاك الحالم كان بالفعل بعيدا خارج المدينة، كان في الصحراء بالفعل، قطعها كلها ماشيا بنفسه، ثم رأى دولة غير مألوفة، رأى نهرا وجسرا، وقوارب، وهناك بعيدا بيوت صغيرة وأبقار وخيول، ولم يستوعب كيف أن كل شيء في فلسطين كان صغير جدا، فواصل المشي حتى لم يستطع أن يكمل أكثر، فبقي يحاول أن يمشي حتى اللحظة التي سقط فيها.

تلك الليلة كانت السيدة ستيفا مجهدة جدًّا

فلم تستطع البقاء مستيقظة. بقي كلانا فقط، أنا وكورتشاك. ثم غططت في النوم على سرير ميتيك. حين استيقظت كان الضوء يعمّ المكان والسيدة ستيفا تُعدّ تقرير اليوم. سحب كورتشاك الورق من نافذة واحدة، ولولا ذلك لبقي الجميع نائمين. أخبرها إن ريجنكا تعاني من الطفح الروماتيزمي، وأنه أعطاها السائل الوريدي أثناء الليل لكنها شعرت بطنين في أذنيها وترى لونًا أصفر، وتقيّأت مرتين، وأن الكتل في ساقيها شحُبَ لونها لكنها لم تعد تؤلمها. وقال إن ميتيك لم يزل يعاني من صعوبة في التنفس.

قالت مدام ستيفا "إن تدخينك السجائر لا يساعده في التشافي"

أخبرها إن التدخين مُزيل للبلغم عند الأطفال، فأجابته إن تلك نظريته هو فقط. وقالت إنه في بعض الأحيان عندما تجيء لرؤيته تجد الهواء حوله سيّئًا للغاية حتى أنها لا تستطيع التنفس. فقال إنها تذكره بذاك الفوج من النساء -الزوجات والجدات والمربيات- اللاتي جعلن والده يُذعن لهنّ دومًا من أجل السلام.

سألت ستيفا "هل هو نائم؟" لم أسمع ردّه لكنني لم أتحرّك. كان رأسي مُدارًا نحو الجهة الأخرى.

قالت إن فتاتين كفّتا عن ادّعاء الجوع، ويبدو أنهما غطّتا في سُبات،

وآخرين لم يستطيعوا النوم بسبب إرهاق الجوع. قالت إنها أبقت الأغطية عليهم لكنهم ما زالوا يشتكون العطش والبرد. كان برازهم شبه سائل ومختلط. وحين تضغط على جلد أحدهم يستمرّ أثر النّقرة حوالي دقيقتين. إحدى الفتيات كانت تعاني من صعوبات بالغة ووهن حتى أنها لم تتمكن من ربط زر ردائها. والأكثر جوعا بين الأطفال يظهر ويختفي دومًا عند المطبخ. كانوا جميعهم يعانون من الجرب وقشور القوباء الحلقيّة.

الموت من المجاعة يفتقر إلى الدراما، قال لها كورتشاك. إنّه بطيء ومخيب للآمال. على الأقل حتى تظهر الغربان أو الجرذان أو الكلاب.

قالت له "أوه، توقف عن ذلك"

قال "هل غدوتُ دون قلب؟"

قالت "بل أصبحت دون فائدة"

قال "أجد أنه يساعد حين أقول لنفسي إن الأطفال قد يموتون أو يتعافون هنا. تماما كما يحدث في المستشفى"

قالت "أجل. أمر غريب حدث صباح اليوم بينما كنت أفرغ المبولات، فقد وجدت صبيا من الشارع واقفًا عند بابنا"

قال كورتشاك "أستطيع أن أشم رائحة الأمونيا. هذا ليس بغريب، هل سمحتِ له بالدخول؟"

قالت "لم يكن يريد الدخول، أراد أن يطل على المدخل حتى أنني تنحّيت جانبا كي ينظر حيث يريد. وعندما سألته عمّا يُشغله، ذهب في طريقه"

قال كورتشاك "أنا أعرف كيف يشعر"

مكثتُ عند النافذة ورُحتُ أتطلع ناحية الشارع ذاك اليوم واليوم

الذي تلاه، لا أثرا لبوريس. طفل واحد كان يرتدي قبعة زرقاء يراقب دار الأيتام خلال ذاك الوقت لكنه لم يكن هو. لم أذهب للخارج، الجميع يدّعي أني أناني لأنّي بقيت وقتا طويلا في المرحاض. وبقي يتجادل الجميع حول من كانت لديه أسوأ ليلة، وانشغل كل واحد منهم بدرجة حرارته في الصباح حين يسأل كل واحد فيهم الموظّف "كم؟" بينما ما يزال يحاول قراءة مقياس الحرارة. "كم كانت حرارتك؟" يسأل بعضهم بعضًا.

أثناء العشاء أعلن كورتشاك أن دار الأيتام تودّ أن تعرض مسرحية "مكتب البريد" لشاعر هندي. سيُقام العرض في الدور الثالث في قاعة الاحتفالات السابقة والتي تحتاج إلى التنظيف والتطهير لهذه الفعالية. وكان النّص مُتاحا للقراءة ليوم أو يومين، وستُعقَد الاختبارات بعد ذلك. واحدة من الموظفات تُدعى استركا ستُشرف على ذلك. قال لها أن تقف كي تتلقى شكرنا وتلقي علينا التحية.

ثمّة فتاة جديدة تركها أخوها عند دار الأيتام، تجعل الجميع يفزعون بسبب كوابيسها وبكائها. اسمها جينا. وعمرها تسع سنوات. وخلال النهار لا تزعج أحد أبدا كما أنها لا تقوم بأيّ عمل أيضا. كان والدها قد توفي بالسلّ ووالدتها وأخواتها الأكبر سنا من التيفوس. وقبل أن يتركها أخوها عند الدار ألبسها العديد من الأشرطة والخرز واللافتات الملونة، ما أضحكها حين سألتها هل هي من شعب الهوتنتو[24]؟ فقد كانت تأكل حاجبةً صحنها بيدها.

كانت تصرخ كثيرًا في الظلام لبضع ليال. وطالما كنت مستيقظا فإنني أحملها إلى الطابق الثالث حتى يستطيع الجميع النوم. جلست معها

(24) من شعوب أفريقيا التي عاشت فيما يسمى اليوم جمهورية جنوب أفريقيا وكانت تسمى Khoi Khoi قبل الاستعمار الأوروبي. م.

بينما هي تنوح وأخبرتني عن أخيها صموئيل الذي هو في السابعة عشرة من العمر ويعمل في أحد المتاجر، وأرتني كيف أنه وقف على قدميه ووضع ذراعيها حول خصره وحملها حول الغرفة وهو يمشي. كانت عمتها حزينة لأنها تقول إن جينا تأكل الخبز كله لكن في وقت من الأوقات سينتهي كل شيء. وقالت لصموئيل أن يضع أخته في دار الأيتام وبعدها لن يتوجب عليها العيش مع أحد يسرقها. حكايتها لقصّتها جعلتها تهدأ لكن العناكب في الطابق الثالث أزعجتها. قلت لها إنها ستتمكن من الذهاب إلى الأسفل إذا توقفت عن الصراخ، فوعدتني. في الليلة التالية حين راقبتها وجدتها مستيقظة وتبكي بهدوء. رأت فجأة في راحة يدها حلزون، فهتفت "حلزون، حلزون! أرني قرونك!" وبعد دقيقة أظهرت قرونها.

بالطبع لم يكن هناك ما يكفي لتوفير أزياءٍ مؤقتة للعرض المسرحي الذي خطّطت له استيكا، أخبرني كورتشاك بذلك في صباح اليوم التالي وهو واقف عند سريري، ولهذا فإن الوقت حان لدون كيشوت وسانشوا بانزا ليعودا إلى جولاتهما. قلت له إني لا أعرف ما الذي يتحدث عنه، فقال إنّه كان كذلك أيضًا. وحينما قلت له إني لا أريد أن أذهب، قال إنّه أراد ذلك أيضًا.

سألته "ألا يمكن لشخص آخر ان يذهب؟" فقد كنت خائفا من بوريس.

قال بينما ينتظر أن أجد حذائي "السيّدة ويلكزاسكا تساءلت مؤخرا لماذا أنا مهتمّ بك جدا؟ لستُ أرى ما هو محيّر إلى هذه الدرجة في هذا الموضوع".

هناك صبي في الخارج يريد قتلي. أخبرته دون أن أنظر إلى وجهه.
قال "ستكون بخير معي" خرج من الباب الأمامي ووقف خارجا متظاهرًا أنه يفتش في جيوبه حتى تشجعت لأن أتبعه. قال لي إني سأُمنح بطاقة الرعاية الجيّدة لرعايتي أحد القادمين الجدد، ويمكن تبادل البطاقة بكميّة إضافيّة من الحلويات.
مرة أخرى، الوحيدون الذي يكونون في الخارج مبكّرًا هم المتسولون. ما يزال بعضهم في ركنه مع قمامته وآخرون يتجاذبون الكلام ثم ينتقلون من شخص إلى آخر للتسوّل. الصبي الذي بدا وكأنه أخي الأكبر كان مطبوعًا على رِباطه "اليهوديّ مُفيد للاقتصاد. وحينما انتبه لعينيّ كشف عن أسنانه السوداء في وجهي. قال لي "وكيف حالك؟ كم مضى من الوقت على ساعتك؟" وبقي محافظا على تعابيره المرعبة حتى عندما أعطاه كورتشاك بعض القروش.
ومرّ أمامنا نحن الثلاثة زوجان مُسنّان، عيناهما على الرصيف كأنما يبحثان عن شيء فقداه.
أعطى صاحب أوّل بيت طرقنا بابه كورتشاكَ كل المال الذي يحتاجه بعدما وصف المسرحية. وبعد ذلك دخل في نوبة سعال. "حسنا هذا خبر سار" قال. لكن بمجرّد أن كنا في طريق العودة كانت هناك جثّتان غُطّيتا بلحاف ورقي، جعلتاه يتوقف عن المسير. وحيث أن الأوراق ليست مثقلة بالحجارة فقد حرّكتها الرّيح.
تجاوزنا ساعة رف الموقد الملفوفة بحبل. "أتعرف حين كنت طالبا في كلية الطب اعتدت أن أجلس في الليل في غرفة التشريح عدّة ساعات" قال. وبعد أن استمرينا في المشي قال "لقد دفعت للحارس كي يسمح لي بالبقاء هناك ".

كنت أحك عنّي القمل. إلى آخر يوم في حياتها، توسّلتني أمي أن أستخدم الكيروسين كل يوم. وإلى النهاية كذبت بشأن القمل. صرختُ في وجهها في المستشفى كي تترك القمل وشأنه، فالتفتت ناحية الجدار وطلبت مني المغادرة.

أخذ كورتشاك ذراعي، "جلست هناك فقط لأحدق في وجوه الأطفال الموتى. ما الذي كنت أفعله هناك؟ وما الذي أبحث عنه؟"

طابور من الشرطة الصفراء يهرولون وبدا منزعجًا من سؤاله، ولذا قلت له إني لا أعرف.

قال "كم أنا شخص غريب وبغيض، كنت وما زلت". وقال إنه تمنّى لو أنه جلب السجائر معه وتمنّى لو أنه تناول إفطاره.

قال "أنا لست متأكّدًا من أنني أعرف ماذا أفعل في الأوقات الجيدة" أخبرتني أمي إن والدها كان يشعر بالراحة حين يصبح مضطهدا، حتى عندما فاز رقمه في لعبة اليانصيب احتفظ بالخبر لنفسه أسبوعًا".

خطونا فوق طاولة كانت تسد الزّقاق، أدراجها مفتوحة، وفيها محبرة مكسورة، وتساءل عمّا إذا كان الأمر يستحق إرسال بعض الأولاد لجلب الطاولة إلى الدار. ثم قال لتذكير نفسه إنه بحاجة لإجراء محادثة مع كرامشفيك عن رداءة نوعية الفحم الذي يجلبه للدار. وفي بقية طريقنا سيرًا كان يقلب رأسه من جهة إلى الأخرى كما لو أن عنقه تؤلمه.

• • •

عُقدت اختبارات الأداء المسرحي في الطابق الثالث الذي هُيّئ لذلك.

لعبت جينا دور "سودا" فتاة الوردة. أخبرتني تلك الليلة، وأخبرتها أنها بالفعل في طاقم التمثيل، جيرزك على الرغم من الحمّى كان يلعب دور "فاكير" وقد بدأ بالفعل العمل على حبله السحريّ. وكان قد بقي الدور الرئيسي وقال لي كورتشاك أن أجرب ذلك. فسألته ما هو الدور؟ وسألني إذا ما كنت قد قرأت المسرحية؟ فقلت لا. قال إن الدور الرئيسي هو لصبيّ قد مات وألهم الجميع.

قلت "إنه البطل!" وقد كنّا جميعا نبدّل ملاءات أسرّتنا.

قال "بطريقة ما، أجل! أظن أنك ستؤدي الدور بشكل جيد جدا".

"هو؟" سألت السيدة ستيفا.

هو! قال لها كورتشاك. قلت لا، لكن فوجئت بمدى السعادة حين جعلته يطلب مني ذلك. في اليوم التالي أعلن كورتشاك أن النجم سيكون صبيّا يُدعى أبراشا، هو عازف الكمان.

كنت أفرغ القمامة مع زيغموش وصبيّ آخر، ورأيت بوريس قادما في الشارع مع امرأة طويلة ترتدي قبّعة قش. لا يبدو أنه رآني. وحينما عدت إلى الداخل تخطّيت الطابور الطويل من الأطفال الذين ينتظرون الحمّام وصعدت إلى الطابق الثالث وتعلّقت داخل اللوحة التي كُتب عليها "منزل عمدة مدينة لندن"، ثم انتظرت ثم سمعت صوت خطى شخص قادم وأغلق الباب. كنت أرى من الشرخ الجانبي. كانت المرأة بقبّعة القش مع كورتشاك في الداخل، لكن لم أر بوريس معهما. كانا يتبادلان النظرات وقالا إنه من الجيد أن يلتقيا مرة أخرى. أخبرها عن المسرحية وأخبرته كيف تمكّنت من الدخول إلى الحي اليهودي. قالت إنها تريد إحضار كعك العسل وفيتامين باء للأطفال، فشكرها على ذلك.

بقيا صامتين ثم سألها لماذا جاءت فقالت إنها تريد التوصل لإخراجه من هنا، فقال إنه اعتقد أنه شيء من هذا القبيل. وسألها كيف تتخيل أنها ستفعل ذلك، فقالت إنها تنتمي إلى حركة جاكوتا، التي وزّعت الصحف التي تدعو البولنديين لمساعدة اليهود وهم ينقلون الناس ويخرجون في كل وقت. سألها عمّا إذا كان سيذهب وحده، فقالت له ربما يتمكن من أخذ اثنين أو ثلاثة معه. ثم صمتت مرة أخرى.

كنت أسمع الأطفال في الطابق السفلي، حاول أحدهم فتح الباب لكنه مغلق ثم عاد إلى الأسفل.

قالت المرأة " أطلب منك أن تقبل مساعدتي"

فقال أخيرا "نحن الذين هنا، إذا ما التقينا بعد ذلك، كيف يمكن أن ينظر بعضنا في عيون بعض دون أن نسأل كيف حصل أن نجونا؟"

أخذت المرأة تتفحص يديها ثم سألته "ولم لا، ماذا لو حفظنا عددًا قليلًا منهم؟"

ثمة شخص أوقع الصحون في الطابق السفلي والأطفال يصفقون.

"ماذا عن البقية؟" سألها. "هل تتمكن من تخيل المفارقة التي ستحدث؟ السيّد الطبيب قد ذهب ونحن سننتظره هنا في الظلام!"

لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت المرأة تبكي. قالت "نحن ننشر الصحيفة، وأنت تنتج مسرحيات، فما فائدة ما نفعل إذن؟ هل ينبغي علينا أن نتعلم كيف نتعامل مع بندقية بدلا من ذلك؟"

ضحك كورتشاك وقال: "أحبّ أن أنضم إلى حركة مقاومة سرية، لكن ماهي الأسلحة لديهم؟ إحدى المجموعات أرتني سلاحها، مسدّسًا واحدًا!"

قال "يمكنك الظهور الآن" بعد أن أطالا الجلوس هناك. فوقفتُ

ومشيت حول المسرح ولم يبدُ على المرأة أنها تفاجأت لرؤيتي.
قال "يمكنك أن تساعدني في إرشاد ماريا نحو المخرج، إنها واحدة من أنجح الخرّيجين لدي"
قلت له "الصبي الذي معها هو من حدّثتك عنه" لكنه لم يرد، وتبعناه إلى الأسفل. وحينما علقت بظهره طلب مني أن آتي وفي مقدمة الردهة قبّل المرأة على خديها ثم قبّلته هي على فمه. كان بوريس واقفا بجانب الباب شاهدهما ثم نظر ناحيتي كما لو لم يسبق له رؤيتي قط.
قالت المرأة لكورتشاك "أرجوك فكر فيما ناقشناه"
قال لها "أتمنى أن أستطيع التوقف عن التفكير فيه. أرجو أن تشكري أصدقاءك نيابة عن الأطفال"
"هل غططت في النوم؟" سألني بعد أن أغلقنا الباب وراءهم. "هل ذهبت هناك لمجرد الوقوف والتحديق؟"
في المطبخ أوقفته فتاة صغيرة. "أنتِ الشخص العاشر الذي يسألني عن كعكة العسل" قال لها. "هل تعتقدين أن لا مشاكل هناك لتحل غير كعك العسل؟" ثم ذهبَت إلى مدام ستيفا التي عانقتها.
قال للمجموعة "هل يجب أن تكون لدي عيون خلفية كي يبقى الجميع يعملون؟"

قرأ نموذج رسالة الدعوة التي كتبها بصوت مرتفع لنفسه في الصباح الباكر حين اعتقد أن الجميع نيام. لذا في تلك الليلة لبثت عند الدرج أراقب في الظلام، قضيت اليوم مندهشا كيف تصرف بوريس على ذلك النحو.
أمسك برسالته ورفعها ناحية الضوء وقرأ "رئيس تحرير الجريدة

اليهودية، عزيزي السيد المحرر! شكرا للتغطية الجيدة لنشاط دار الأيتام، لكن: أحبّ يا أفلاطون، لكن أحب الحقيقة أكثر". دار الأيتام، لم ولن تكون أبدا دار كورتشاك، الرجل الضئيل جدا، الضعيف جدا، الفقير جدا، والأحمق جدًّا ليحاول أن يجمع، ويغذي، ويدفئ، ويحمي، ويتولى حياة مئتي طفل، هذه مهمة عظيمة... جبارة".

توقّف متوجّسًا وثبّت الورقة ووضع علامات عليها. ثم تابع "أنجزته الجهود الجماعية لمئات الناس من ذوي النوايا الحسنة والعقول النيّرة والبصيرة، وأنجزه كذلك الأطفال أنفسهم."

توقف مرة أخرى، ولا زال يحدق في الورقة "انتفاء أيّ ثقة، نحن لدينا ميل للوعد ومع ذلك نحن متأكدون أن ساعةً من تقديم مفكّر أو شاعر حكايات خرافية جميلة سوف تحقّق تجربة من الدرجة الأولى في مقياس المشاعر. ولذلك، نحن جميعا ندعوكم.." ثم قال "نحن نغتنم الفرصة لدعوتكم" ثم وقف وترك الرسالة، ثم جلس على سريره.

استمرت التدريبات ثلاثة أسابيع حسب ما وُضع على لوحة الإعلانات الحائطية، وتاريخ العرض هو السبت 18 يوليو. وأولئك الذين لم يشاركوا من الأطفال فقد دُعوا للمساهمة بآرائهم حين لا يكونون مشغولين بالأعمال في الدار. لكن في الليلة التي سبقت حصول التسمم الغذائي، حين راح الموظفون الذين لم يتقيؤوا يجمعون بعجل الأواني ويحركونها في الظلام على الأطفال مع أباريق ماء بالليمون أو المورفين للحالات الأسوأ، رأى ميتيك كابوسًا عن والدته وكان فظيعا جدا حتى أنه راح يصرخ ويصيح لأنه يحترق ويموت من العطش، حتى صاح كورتشاك في وجهه أنه سيرمي به إلى أسفل الدرج ويخرجه إلى الشارع

إذا لم يهدأ.
"يبدو أنّ ما قلته أثّر فيه" قالت له مدام ستيفا بينما كانوا يرفعون القيء بالخرق.
قال "مديرنا يصيح وبالتالي هو في القيادة"
"لكنه كان يُغضب الجميع!" قالت.
قال "أنا ابن رجل مجنون، هذه الفكرة تعذبني حتى هذا اليوم"
في الصباح التالي كان البهو الرئيسي مثل ساحة معركة، لكن قبل الخامسة ذلك المساء انسحب الممثلون وارتدوا أزياءهم. ملأ الجمهور الغرفة وحتى مع فتح النوافذ كان الجوّ حارًّا، لذا فالجميع أخذوا يحركون بورقة قائمة العرض للتهوية. ويُشَمّ في المكان رائحة الليلة السابقة.
رحّب كورتشاك بالضيوف وأخبرهم أن مؤلف المسرحية من الهند ويتكلم من خلال أفواه الأطفال اليهود في الحي البولندي. انطفأت الأنوار وجاءت همسات وأصوات من وراء الستار بينما الأطفال في الصفوف الأمامية متضايقون ومتراصّون.
حين بدأت بدت كأنها موجّهة للأطفال. أبراشا لعب دور الصبي المريض الذي لا يُسمح له مغادرة غرفته، جعل الضوء حاجبه كبيرًا وبدا كأن له نظرة غاضبة. لقد دخل في حوارات مع طبيبه ووالدته وزوج والدته وحارس في الشارع ومع رئيس البلدية ومع فاكير ومع فتاة الوردة. ثم شخص يدعى الطبيب الملكي جاء يرتدي ملابسَ بيضاء وأبراشا أخبر الجميع بأنه لم يعد يشعر بالألم. وحينما سأل الصبي الذي يلعب دور زوج والدته لماذا أُطفأت الأنوار في غرفته وأن عليهم فتح الستائر لأن النجوم من شأنها أن تساعده. صعدت جينا في دور فتاة الوردة

إلى الأمام وعقدت يديها ثم قالت "كن هادئا أيها الكافر" وكما لو أن الجمهور كله قرر أن يصغي. حتى إن الطفل الجالس بجانبي وكان طوال الوقت يحك نفسه قد توقف.
قال الطبيب إن أبراشا كان نائما. سألت جينا متى يريده أن ينهض فقال الطبيب في أقرب وقت ممكن، حين يدعوه الملك للخروج من هذا العالم. وسألت إذا كان سيستطيع أن يهمس كلمة منها إلى أذن أبراشا. وحينما سألها ما ينبغي أن يقول له، قالت قبل أن تطفأ جميع الأنوار إنها لن تنساه أبدا.
قال الجميع إنهم تأثروا جدا بأحداث المسرحية. وقالت عجوز في قبّعة رجل صيني لكورتشاك إنه عبقري ويمكن أن يصنع المعجزات في جحر جرذان. فقال لها يجب أن يكون هناك سبب لماذا أعطي الآخرين كل تلك القصور.

بعد أربعة أيام سمعنا ضجيجًا في الشارع في الصباح الباكر. في المطبخ هنّأت مدام ستيفا كورتشاك بعِيد ميلاده وناولته كأسا فيه شيء ما طبخَته له، ثم أطلقت صيحة حين رأت عبر النافذة صفوف الشرطة الزرقاء مع اللتوانيّين والأوكرانيين في لباسهم الأسود والأطواق الجلدية البنية، وكان بوريس قد علّمني الزيّ الموحد.
الصبي الذي حمل الرسائل من المستشفى جاء وهو يشهق ويلهث. قال إنهم أجلوا الأطفال هناك إلى مخيّم الترحيل وعلى ما يبدو فإنهم سيُلقَون على جانبَي الطرقات في جلابيب المستشفى.
أخذ كورتشاك بعض المال المخبّأ في مكان ما قُرب الموقد وركض خارجا من الباب بينما الصبي ما زال يتحدث.

ركضت وراءه، أين أذهب إذا اختفى؟ اصطدمت بمجموعة جرت بجانبي، ورجل يحمل حقيبة سفر أوقعني أرضا. كان الجميع يتراكضون من الباب القريب لباحة المبنى المجاور، والذين في الخلف يتدافعون للتقدم بسرعة إلى الأمام، وقد انحدرنا في الشارع مثل النهر وجُمعنا في مكان مسدود. لم أتمكن من رؤية إذا ما كان كورتشاك معنا، وقد وُزّعنا في أربعة صفوف ودُفعنا من مؤخراتنا في الشارع. أحد اللتوانيين المتظاهرين يضرب بهراوة كل من لا يطيع على رأسه. بقينا جاثمين هناك في حين انضم لنا كثيرون، كل واحد ينوح وينادي على أصدقائه وأقربائه بين الحشود. كانوا يصرخون "أين أبنائي؟ قل لهم إني على وشك المغادرة" أو أن لديهم آلة خياطة أو يعملون لدى توبينو[25].

أخذت الشرطة الصفراء مَن كانوا على الجانبين واللتوانيين في الخلف، وجعلوا الجميع يقفون وتمكنّا من التحرّك مجددا. لقد تفحصت أقرب رجل من الشرطة الصفراء والجميع كانوا يصرخون في وجهه في وقت واحد، يعطونه أسماءهم ويسألونه إذا كان يمكنه أن يفعل شيئا ويطلبون منه إخبار زوجاتهم أو أولادهم أو أزواجهم عن مكانهم. صرخ في وجههم جميعا أن يصمتوا. وحينما وصلت قريبا بما فيه الكفاية لأسأله إذا كان يعرف ليجكن، خبطني بعصاه على وجهي. فتاة صغيرة ساعدتني على النهوض وكانت تبكي لأنه لابد من إرسالها إلى بيتها حتى تتمكن من رعاية أختها الصغيرة. سألتها لماذا تقولين لي؟ فأتت امرأة قبضت على يديها وجرّتها بعيدا. بعض الناس يُخرَجون

(25) شركة توبينو وشولتز في ألمانيا تصنع الزي الرسمي للجيش النازي والجوارب والمنسوجات. لها فروع في الأحياء اليهوديّة ومناطق أخرى خلال الحرب العالمية الثانية يملكها اثنان من الأثرياء: فريتز شولتز ووالتر توبينو. م.

من الحشود، فراح البقيّة يقفزون إلى المداخل، أو يسقطون أسفل درج قبو، وذلك عندما يكون رجال الشرطة شاردي الذهن أو ينظرون في الاتجاه الآخر.

سحب رجل من الشرطة الزرقاء فتاة من شقّة مررنا بها ناحية المقبوض عليهم. فخطوت إلى الباب قبل أن يُطبقه بقوّة. نادته الفتاة سيدي الشرطي.. ثم اختفت عن عيني. الأبواب الداخلية كانت مغلقة لكنني أمسكت الباب الخارجي مختبئًا خلفه. شددت عليه بقوة حتى انتهى كل شيء وصار الشارع هادئا.

فتحت الباب فرأيت حذاء مُلقى على جانبه في الطريق. كان خدّي متخدّرا وذراعي الممسكة بالباب ترجف. سمعت قرقعة معادن ففتحت الباب أكثر.

ثمّة ألماني في الحي كان يدق ترباس بندقيته بعقب حربته. كنت أرى نظارات على الحصى بقربه، وبقربي فتاة محنية على ظهرها.

أغلقت الباب ولكن ما زلت متمكنًا من سماع صوت بكائها. المبنى حولي كان ساكنا، وحينما نظرت خارج الباب مرة أخرى كانت الفتاة ميتة والشارع خال إلا منها ومن نظارتها. حتى الحذاء قد اختفى. والشمس آذت عينيّ.

في الشارع الذي يليه تمكنت من متابعة مسار من الحقائب والقبعات المتناثرة ومصاريع النوافذ تُحدث صريرا، وخبطت أحدها الجدار، والريش ما زال يتطاير حول الفُرُش الممزقة.

شرعت في السير عائدًا إلى الدار. مرّ بي اثنان من اللصوص يحملان عصّارة ملابس. على شارع توارد ألماني يدسّ كومة من الملابس بعصا طويلة في كيس، فاختبأت وانتظرت حتى يغادر. على شارع سيينا

جلس الأوكرانيّون وظهورهم إلى حائط الغيتو، بدوا متعبين ويشربون بينما قمصانهم مفتوحة. دخلت الدار من خلال الفناء.
رأيت الأطفال كلهم في وسط الغرفة العلوية، والأوراق المعتمة ما تزال على النوافذ. كانوا جميعا مع بعضهم على الأرض. السيدة ستيفا عانقتني لكن كورتشاك كان جالسا يلفّ ذراعيه حول ميتيك مع فتاة صغيرة أخرى نائمة. طلبت مني مدام ستيفا أن أنظّف وجهي.
بعض الأطفال كانوا يتهامسون لكن أغلبهم مُستمع. كان في الخارج أصوات صراخ وصافرات ووقع أحذية تركض. ومن حين لآخر ينهض أحدهم ليستعمل مرحاض الغرفة.
بقينا على ذلك الحال يومًا بليلته. لم يكن هناك عشاء ولا أحد أضاء أيّ مصابيح. وبمجرّد أن تأخر الوقت وقف كورتشاك وتحرّك من خلال موج كومة من النائمين، ورفع زاوية من الورقة المعتمة في إحدى النوافذ. كان واقفا عند مدام ستيفا التي كانت نائمة ورأسها إلى الوراء بينما فمها مفتوح. رفع أصبعه على شفتيه عندما رآني أنظر. رحنا ننظر إلى بعضنا حتى أشرقت الشمس. حينها، بدا وكأن المدينة في الخارج قد غادرت باستثناء صوت طلقة عابرة أو صوت نداء في الظلام.

• • •

بعد ذلك راح كورتشاك يخرج كل يوم وحده، ولا يسمح لأحد بمرافقته. وبعد أن يعود يخبر لمن يريد الاستماع ما حدث بقدر ما يمكنه أن يتكلم. أصغر الأطفال يمسك بيد أكبر الأطفال فخورًا أنه

منضمّ للاستماع.
قال إنه اعتُقل أعضاء في المجلس اليهودي وأُخذت أسرهم رهائن.
قال إنه ظهر بيان يُعلن أن جميع اليهود سيوطّنون خارج وارسو وسيُعفى عدد قليل من العمّال، وذلك فإن أولئك الذي سيسلّمون أنفسهم طواعية سيتلقى كلّ واحد منهم ثلاثة كيلوغرامات من الخبز وواحدًا من المربى. وقال لمدام ستيفا إن الألمان اختاروا أن يبدؤوا خطّتهم في التاسع من آب. حينها سأل طفل لماذا؟ فأوضح أن التاسع من آب هو يوم الصيام لذكرى نبوخذ نصر ملك بابل لتدميره الهيكل الأول والإمبراطور الروماني تيتوس الثاني. وقال إنهم سيفتّشون الغيتو حيًّا بعد حي، والأبواب المغلقة أو المثبتة سوف تُكسَر، وستفرغ الشوارع خلال يوم واحد، وستُعاد زيارة الأماكن في اليوم التالي للقبض على المختبئين.
قال كيف أنه أنقذ طالبةً قديمةً في الدار، سحبها من رجل شرطة يهودي وصرخ أنه أنقذ ابنة الشرطي نفسها تلك الليل. ولذلك سمح لهم بالذهاب. لكن هل حقًّا أنقذ ابنة الشرطي؟ لم يكن الشرطي ليعرف على وجه اليقين.
وقال إنه قُبض عليه وألقي في إحدى عربات النّقل، لكن بعد عبورهم حيًّا أو اثنين عرفه أحد الشرطة الصفراء وكان قد ساعده قبلًا وحذّره من لعب دور البطل وإلّا سوف يُقتَل الجميع. إذا كان عليهم التخلي عن ذراع أو ساق لإنقاذ الجسم فلا مانع من ذلك. إذا اليهود ساعدوا الألمان، هل يعني ذلك أن نتوقع عددًا أقل من الضحايا أو وحشيّة أقل؟
هل هذا هو ما خمّنوه جميعًا، أنهم مسافرون نحو المجهول؟ سألت

مدام ستيفا، مع عدم وجود ملابس جديدة ولا أحزمة ولا حتى قطع من الخبز؟

العديد من الأطفال بكوا كثيرًا حتى إن كورتشاك قال لهم إن الشرطي طمأنه بأن دار الأيتام شهيرة جدا ولذا لن يتعرّض لها الألمان. كان الجميع يعملون على نحو محموم للحصول على أوراق عمل. والرجال الذين كانوا قادة الصناعة باتوا الآن يكنسون ساحات مصانعهم، والجميع يقول إن معمل الألوان هو الأفضل لأنه تحت سيطرة الجيش، ومعامل توبينو الواقعة في بروستا لأنه كان صِهْرَ غورينغ[26]، لذلك يريد الجميع جواز المرور الأخضر من توبينو، لكن لا أحد يعرف ما العمل المُجدي وذاك غير المُجدي، فما يبدو آمنًا في يوم يصبح فقاعة صابون في اليوم الذي يليه. وقال إنه في الوقت الذي حوصر في العربة قال الألماني لامرأة حملت أوراقها كلّ الأختام والتوقيعات المناسبة إنها معتوهة وإن أفضل وثيقة يمكنها أن تحصل عليها هي وثيقة دخول الزنزانة.

بقينا هادئين في الليل نُصيخ السمع للدوريات. تتناهى إلى أسماعنا الأصوات المكبوتة للناس الذين يخرجون للبحث عن الماء أو الطعام. حينما يبكي أحدهم أو ينادي أسفل النوافذ لم يكن مسموحا لنا بأن ننظر.

معظمنا لم يكن نائما. تحادث كورتشاك ومدام ستيفا في الطابق الثالث في وقت متأخر جدا. أحيانا أسمع من الدرج وأحيانا لا يصل صوتهما. كان صوتهما خفيضًا جدا ولذا لم أتمكن من سماع كل

(26) قائد نازي ومؤسّس جهاز الجستابو. م.

شيء. أخبرها أن إطلاق النار في شارع أوغرودوا استمرّ طوال اليوم لاستيعاب أولئك الذين لم يكونوا في منازلهم. سألَته كيف عرف ذلك؟ فسألها كيف يمكن لأي شخص أن يعرف أي شيء؟ قال إنه إذا نجت الناس فذلك لأنهم يختبئون كلما حدث شيء.
قال إن الأطفال مشوا إلى مخيّم الترحيل للسفر مع عوائلهم. والمحظوظون هم من غادروا مع ما سرقوه من المنازل الفارغة من أصحابها، فقد لا يُعتبر ذلك سرقة إذا كان أصحاب البيوت رحلوا إلى الأبد. وقال إن الأوكرانيّين يذكّرونه بالمزارعين في نهاية موسم حصاد.

عاد في اليوم التالي والضّيق بادٍ على وجهه، فلم يدع أحدا يراه حتى تحدّثت معه مدام ستيفا منفردا. في الخارج سمعنا صوت بوق سيارة للشرطة وصافرات، وأصوت الناس وهم يركضون.
أخبرها أنه قطع الطريق كاملا إلى مخيّم الترحيل للعثور على استركا. تخطّى الأوكرانيين والألمان والشرطة اليهودية، ثم وجدها وحاول إحضارها إلى المستشفى. عند البوابة سأل رجل الشرطة الزرقاء إذا كان بإمكانه إنقاذ مساعدته المهمّة في إدارة دار الأيتام. لكن البولندي قال إن كورتشاك يعرف جيدا أن البولنديّ لا يمكنه مساعدته. جاء شرطيّ بولندي آخر مع شرطي يهودي وسحبا استركا بعيدا بينما بقي كورتشاك واقفا وسمح لذلك بالحدوث، وشكر البولندي على كلماته الطيبة! وهذا كلّ ما حصل. كورتشاك قال إنه وجد نفسه وقد دُرِّبَ ليغدو شكورًا حتى على هكذا تصرف.
حاول الأطفال أن يفهموا مني على الدرج ما حدث. وسألوا عمّا يقولانه كورتشاك ومدام ستيفا في الأعلى. لكني قلت لهم إني لا

أعرف. لم أتمكن من معرفة ما يقولانه. أخيرًا سمعته يخبرها أن لدينا مسؤوليات في الطابق السفلي وعليهما أن يتذكرا أنه في حال لم تعد الآنسة استركا فإن على ستيفا مساعدة الآخرين كما تفعل دومًا.

في صباح اليوم التالي، مرسال المجلس اليهودي أخبره عن انتحار زارنيكو، حيث وجدته سكرتيرته ميتا على كرسي مكتبه، وأنه كتب رسائل موجزة لزوجته والمجلس اليهودي. والمرسال من المجلس اليهودي حمل رسالة لكورتشاك، الذي قرأها وأعاد لفها وسلّمه إياها ثم غادر.

سمعت السيدة ستيفا بما حدث، فوقفت قبالة كورتشاك وتلامست جبهتيهما.

خلال الصباح، تابع الموظفون الآخرون جريان أمور الدار وأصدروا الأوامر، بينما كورتشاك والسيدة ستيفا جلسا على طاولة المطبخ أمام كأس من الشاي البارد.

قالت ستيفا أخيرا "إنه الطريق الأسهل"

فأجابها "لقد تخلّى عن تأشيرة ذهاب إلى فلسطين من أجل خدمة مجتمعه"

لم يكونا غادرا المبطخ حين أخبرني زيغموش أن ولدين بالخارج يريدان رؤيتي، وحينما فتحت الباب الأمامي قليلا وإذا ببوريس يجرني إلى الخارج فأغلق الصبي الآخر الباب ورائي. كنت خائفا جدا ولم أتمكن من سماع ما يقوله بوريس في البداية، وأخيرا صفعني الولد الآخر ولفت انتباهي وسألني إذا ما كنت أعرف البناية الداخلية في شارع جيلازنا؟ تلك التي أعدّ أحد الألمان رسمًا لها وفق وصفي الدقيق لغرفها

وأبوابها حتى رَضِي. سألني كم مرة ذهبت هناك؟ وفي أي الأوقات؟ وإذا ما الألمان كانوا يحرسون الأبواب. قال إنهم يحتاجونني ليعرفوا من الداخل متى الوقت المناسب للزيارة. فسألته من هم؟ فقال إنهم مجموعته، فسألته ومن مجموعتك؟ فقال إنّ ذلك ليس من بين شؤوني السخيفة كي يشغلني.

كان بوريس يثبتني من ياقة القميص. وعندما قلت لماذا يجب عليّ أن أفعل أي شيء لهم؟ قال بوريس لأنه إذا لم أفعل فسيقتلني. قلت له أن يفعل. فبقيا يحدقان في وجهي لحظات حتى سأل الولد الآخر ما الذي أريده بقيت أفكر. ثم قلت إني أريد حفظ كورتشاك ومدام ستيفا أيضا إذا كان هذا ما يريده كورتشاك. حدق بوريس ناحيتي بينما الولد الآخر فكّر في ذلك ثم قال نعم، أنه يمكن أن يرتب لذلك إذا أعطيتهم ما يريدونه والذي سأسمعه منهما قريبا. ثم غادرا المكان.

في تلك الليلة جاء أخ جيينا الأكبر، صموئيل، قبل حظر التجول لزيارتها فارتمت في أحضانه. اجتمع الأطفال حولهما يحدقون فيهما. مدام ستيفا وكورتشاك يشاهدان مكتوفي الأيدي. قال شقيقها لها إنه يودّ التحدث مع مدام ستيفا وكورتشاك، لذا انتظرَت هي وأصدقاؤها في الغرفة الرئيسية بينما جلس هو معهما في المطبخ. الكأس لا يزال حيث تركاه رغم أن أحدًا ما شرب الشاي. جلستُ في الردهة عند المدخل.

أخبرهما شقيقها أنه سمع بأنهم لن يمسوا الملجأ بسوء، لكن لا يمكن التيقن من ذلك، وأنه وعد والدته برعاية أخته وأن كوابيسه في الآونة الأخيرة أقنعته أنه ينبغي أن يكونا معًا نظرًا لما كان يحدث. لكنه لا يكاد يعرف الزوجين الذين يعيش معهما وقلقٌ بأن تشعر شقيقته

بالرعب من أن تبقى وحيده طوال النهار بينما هو في عمله.
انتظر الشقيق، لكن كورتشاك بقي صامتا حتى تحدثت مدام ستيفا أخيرا وقالت إنها تعتقد جدًّا بأن الدار آمنة وأن أخذ الأطفال بعيدا ليس جيدا لمعنويات المجموعة، لكن القرار يعود له.
تحدّثَ مع شقيقته لكنها لم تستطع أن تقرر. في نهاية المطاف غادرت معه صباح اليوم التالي. لكن في الصباح الذي يليه أعادها بسبب ما سمعته حينما كانت وحدها حبيسة غرفته. لقد أحضرها في وقت تناول طعام الإفطار وأجلسها في مكانها. دمعت عيناه ووعدها بأنه سيأتي لزيارتها قدر ما يستطيع. قالت له إنه كان مفيدا وعليه أن يعتني بنفسه، ثم التقطت ملعقتها وابتعدت. بعد خروجه سألت مدام ستيفا لماذا كان كورتشاك ينتظر أمام طاولات الطعام؟ فأخبرها أنه عن طريق التقاط أطباق الحساء والملاعق والصحون يمكن أن يرى من يجلس بجانب من، ومن يبقى وحيدا غالبا.

تلك الليلة، حتى بعدما نام كورتشاك، سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب الخلفي، فرفعت المصباح أكثر من ذلك ورفعت المزلاج، فزجّني بوريس مجددا ودخلا هو والولد الآخر وأغلقا الباب خلفهما.
"كيف يمكننا أن نساعدكما أيها السيدان؟" قال كورتشاك وكان يرتدي قميص نومه ولا يلبس نظاراته.
"تعال إلى المطبخ" قال الولد الآخر وأخذ المصباح مني وقادنا إلى هناك.
جلسا هما على الطاولة ونحن وقفنا قبالتهما
قلتُ لبوريس "مرحبا مرة أخرى"
فرد بوريس "مرحبا"

قال الولد الآخر "نعم من الجيد أننا عدنا"
ثم أخبر كورتشاك بأن ممثلي الحركات الشبابية اجتمعوا وأنشأوا منظمة القتال اليهودية، وأنهم قرروا أن مهمتهم الأولى تبليغ الجميع أن عمليات الترحيل كانت لمعسكر تريبلينكا حيث كان الجميع في الغزو. ووُزّعَت نشرات بالفعل لكن المجلس اليهودي أتلفها فقد اعتبرها استفزازًا للألمان هدفه أن يكون ذريعة لإطلاق النار على الجميع.
سأل كورتشاك "إذا كان الغزو يشمل الجميع فكيف وصلت هذه المعلومات إليك؟"
"جاء واحد أو اثنان من الذين فرّوا من القطارات إلى الغيتو" قال له الصبي.
قال كورتشاك "وهل هؤلاء الناس موثقون؟ وكيف حققوا هذا العمل الفذ؟"
سألتُه إذا ما كان يريد مني جلب نظارته، فقال لا.
قال الصبي "بالنسبة لي تمكنت من تمزيق الأسلاك الشائكة من النافذة وهربت من خلالها" ثم نظر إلى وجه كورتشاك وأضاف "أنا لست هرقل، آخرون أمامي عملوا ذلك لكن الوقت قد نفد" وحدقا في بعضهما.
قلت في نفسي هذا ما أود القيام به، أن أتسلق فوق الرؤوس إذا اضطررت لذلك.
قال الصبي "البعض يلجأ إلى نزع ألواح القطار الأرضية أو الألواح الجانبية للهرب"
سألت "بينما القطار يتحرك؟"
لكن الصبي صوّب لي نظرة جعلتني أخرس.

سأل كورتشاك "هل هناك حرّاس في تلك القطارات؟"
قال الصبي "يوجد حرّاس. بعض الذين فروا أصابهم طلق النار وبعضهم لا"
بدا على كورتشاك أنه غير مندهش بأي من هذا. وسأله "وأنت عضو في هذه المنظمة القتالية؟"
قال الصبي إنهم جاؤوا لسببين، أوّلهما مساعدة كورتشاك على الهرب.
قال له كورتشاك إن الحركة السرية البولندية لطالما قدّمت له عرضًا بالمساعدة، لكنه يرفض دائمًا إلا إذا تمكن من مساعدة الجميع معه.
قال الصبي "إنهم يريدونك أنت وحدك لأنك الوحيد الذي تُعتبر بولنديًا. لكننا نريد أن نخرجك ليس لأنك الدكتور كورتشاك الشهير، بل نريد منك المساعدة في نشر كلمة حول ما يحدث"
قال كورتشاك "ولماذا سيودّ شخص ما أن يستمع إلي؟"
الصبي لم يجب، قال لي أن قول له أنا.
كورتشاك قال "يقول لي ماذا؟"
والثلاثة أخذوا يتطلعون في وجهي.
قلت له إنهما هنا أيضا لأنهما يريدان مساعدتي. وقلت إنهم إذا أرادوا مني مساعدتهم فعليهم أن يفعلوا ذلك من أجلي.
قال كورتشاك "يفعلون لك ماذا؟"
كانت تعابير وجهه متفاجئة وخائبة في آن حتى جعلتني أشيح بوجهي.
قال بوريس "أن تحصل على الخروج". وقال إن الألمان يعملون على الاستيطان من مكتب في جيلازنا. وقال إن ليجكن كان اليهودي المسؤول والذي كنتُ قد عملتُ كمخبر له وللجستابو، وهذا يعني أنني أستطيع الوصول إلى الداخل. ولذلك أستطيع مساعدتهم في

المهاجمة حين يجيء الوقت.
سأل كورتشاك "تريد منه أن يساعدك على مهاجمة مكاتبهم؟"
قال الصبي الآخر "ثمن هارون يساوي بطاقة خروجك"
سألني كورتشاك "ومتى كان كل هذا الترتيب؟"
قلت "جاؤوا إليّ بالأمس وتحدثت معهم على العتبة الأمامية"
"متى تخيّلت أنك تفعل ذلك؟" سألني كورتشاك بالصوت نفسه الذي اعتاده في مخاطبة الألمان.
قال بوريس "يتوجب عليك أن تأتي الآن"
قلت لهما "أنا لن أفعل أي شيء حتى يخرج هو من الحي اليهودي"
سألهما كورتشاك "هل لديكما بنادق؟ هل لديكما قنابل؟"
قال بوريس "نعم نحن نحصل على البنادق، نحن نحصل على القنابل"
سأل كورتشاك "من أين؟"
قال له بوريس أخيرا إن خطته بالنسبة لي كانت أن آتي به إلى الحائط في نهاية شارع برزنا عند الرابعة من الليلة التالية. وسوف يكون هناك سُلّم وشخص ينتظر على الجانب الآخر لإخراجه من المدينة.
مضى كورتشاك ناحية الحوض وظهره ناحيتنا، وقال "أرغب أن أتريث بالحديث حتى يزول غضبي، أرغب في الحديث حين لا أكون غاضبا"
راح الصبيّ ينقل كأس الشاي من مكان إلى آخر على الطاولة مثل قطعة الشطرنج. وحينما نظرت إلى بوريس هز كتفيه فقط. عاد كورتشاك حولنا وقال لي "وكل هؤلاء الأطفال في هذه الدار؟ أتركهم الآن حين لم يبق على خلاصهم سوى قليل من الوقت؟"

وضعت يديّ على وجهي وقلت "أردت فقط أن أحفظك"
قال الصبي الآخر "بوريس اختار بقعة على طول الجدار، تذكرها من أيامك في التهريب، وقال إنه اختار أفضل بقعة"
كورتشاك أخيرا قال لنا "حين يُجادل الأطفال أحدهم الآخر، باتوا يقولون: سوف أرسلك للترحيل في كيس!"
قال الصبي "أخبرهم الحقيقة، قل لهم إننا لا نستطيع إنقاذهم جميعًا"
"أقول لهم أن يبقوا وحدهم؟" سأل كورتشاك وغضبه فاجأهم.
قال الصبي "إنهم جميعا معتمدون على أنفسهم"
"معظمهم ليس كذلك" قال كورتشاك، ولا أحد منّا تمكن من النظر إلى الآخر.
قال الصبي في النهاية "إذن لن تذهب؟" والتفت ناحيتي "وأنت ألن تساعدنا إذا لم يذهب؟"
يداي ما تزالان على وجهي، ومدام ستيفا تقف الآن في المدخل.
قلتُ "ربما يغيّر رأيه"
قال بوريس "لكن عليك أن تأتي الآن"
سألته "أن أتركه هكذا وأترك الجميع هنا أيضًا؟"
"هارون ليس ولدًا عنيفًا" قالت مدام ستيفا ثم تنحنحت وأعادته مرة أخرى.
"شامايا؟ لا تقولوا لي شيئا عن شامايا!" قال بوريس، "بسببه أعز صديقيّ ماتا. شامايا لا يهتم إلا بنفسه، أليس كذلك شامايا؟"
نهض الصبي الآخر من الطاولة وبدا حزينا عندما وضع كأس الشاي في الحوض.

"أنت تنوي القيام بما قلته" قال لكورتشاك، "وتجعل كل شيء أسهل بالنسبة للألمان"

قال لهما كورتشاك "لقد كان يوما طويلا أيها السيدان " ثم تقدمت مدام ستيفا ووضعت ذراعها على كتفه.

"والآن سوف يبكي" قال بوريس للصبي يعنيني، كما لو كان يتوقع ذلك.

وضعت قبضتيّ على رأسي لعل ذلك من شأنه أن يساعدني.

قال الصبي إن اليهود يمكنهم المحاربة أفضل من أي أحد آخر، وقال إن هناك معسكر مضادّة للطائرات بالقرب من مالوا، وإنه خلال الأيام الأولى من الحرب حينما لاذ الجميع بالفرار أثناء الغارة الجوية، أسقط اليهود سبع عشرة طائرة.. سبع عشرة طائرة!

سألت كورتشاك "ألن تذهب؟" فأشاح بوجهه بعيدا.

"اجعل من نفسك مفيدا " قال بوريس أخيرا لي.

قال الصبي الآخر "عوّض عمّا قمت به"

قلت لهما "لم أكن مفيدا قط، ولا يمكنني أن أعوض عمّا قمت به"

كلاهما حدقا في وجهي، " لا أعتقد أنه سيساعدنا" قال بوريس لافتا إلى كورتشاك.

"لكنني أعتقد أنه يمكنه" قال الصبي الآخر وهو ينظر لي بكراهية.

قال لكورتشاك "ليست لدينا أي فرصة دون شخص من الداخل، قل له ذلك"

قال كورتشاك "إنه قراره"

احتشد القمل والبق حول رأسي وصدري، وقمت بتمرير يدي عليها.

ثم سألت "هل يمكنني أن أفكر في الأمر ليوم واحد؟"

قال الصبي "مُهلة يوم واحد؟ لا"
فقلت "إذن لا"

ذهب كورتشاك إلى غرفته بعد مغادرتهما وتبعته مدام ستيفا إلى هناك. جلست على الأرض في الظلام مع الأطفال النيام، لكن لم أتمكن من التحمّل أكثر فصعدت الدرج.
كانا يجلسان معا وهو قد سحب ورقة معتمة من أسفل إحدى النوافذ فشعّ على كل ملاءات الأسرة ضوء شاحب. كانت الورقة ما تزال في يده. وعندما جعّدها، تحرّك عدد قليل من الأطفال المرضى.
"يا له من قمر كبير رائع أعلى هذا المخيم من الرحّالين الذين لا حول لهم ولا قوة" قال لنفسه، وقد كان حزينا كما لم أره كذلك من قبل.
"أنا آسف" قلت من الجانب الآخر للغرفة.
أومأ برأسه "هل تفهم حتى لماذا أنا غاضب؟"
قلت "أردت فقط أن تكون آمنا"
لكن لم يبد أنه سمع.
"هل أستطيع مساعدتك في شيء" قالت مدام ستيفا بعد دقيقة واحدة.
هزّ رأسه "اجلسي معنا" قال ذلك وهو لا ينظر في وجهي ويربت على الملاءة.
ذهبت إلى ما بعد بضعة أسرة، وجلس عند طرف أحدها بجانب السيدة ستيفا. وبعدما استلقى، فعلنا مثله رغم أن اقدامنا ما زالت على الأرض. كنا نستمع إلى تنفسه.
"هل تعلم أني التقيت بمدام ستيفا في رحلة إلى سويسرا حين كنت

طالبا؟"
هززت رأسي لكنه لا يستطيع رؤيتي، أصدرت ستيفا صوتا مبتهجا.
"قلت لها في أول لقاء جمعنا خلال الحوار الطويل على مقعد في حديقة أنني ابن رجل مريض عقلي، لكنني على وشك ان أصبح **كارل ماركس** الأطفال"
قالت له "شكرا لك لأنك دعوتني للحضور"
قال كورتشاك "كانت واثقة من نفسها جدا"
قالت ستيفا له "ما زلت واثقة من نفسي"
"كانت تأكل الكمثرى غير الناضجة" قال، ومدّت ذراعيها باتجاهه ولمست ركبته تحت الغطاء.
"دائما في الجزء الخلفي من عقلك ثمّة سؤال حول ما عليك القيام به حين يصلون أخيرا" قال ذلك بعد أن استلقينا هناك لبضع دقائق، ونزع نظارته وسيجارته، ثم غط في النوم.

حين استيقظ استيقظتُ معه، وكان قد أسند نفسه على مرفقيه. الوقت مبكر. كانت جينا ما زالت بقميص النوم تحت النافذة. قال لها "صباح الخير" فردت عليه "صباح الخير"
قال لها "ابتسمي،" فابتسمت، قال إنه يعتقد أن إفطار اليوم سيحوي النقانق ولحم الخنزير والكعك.
مشت مدام ستيفا إلى بيت الدرج وصاحت "يا أولاد حان وقت الفطور، انهضوا"
وفي الطابق السفلي كنا نسمع صوت أسرّة تتحرك وطاولات خشبية تدفع سويّا، وأوعية تُملأ في المطبخ. ثم انطلقت صافرتي إنذار

الانفجارات، وطرق بعنف رجال على الأبواب الأمامية والخلفية ويصيحون: جميع اليهود إلى الخارج، جميع اليهود إلى الخارج.
وضعت جينا يدها على فمها، وركضت مدام ستيفا إلى الطابق السفلي.
كورتشاك ارتدى ملابسه بمشقة، وتبعتُه حالما حشر قدميه في حذائه. كانت مدام ستيفا في الغرفة الرئيسية تحاول المحافظة على هدوء الأطفال، وهزّت بعض الذين يحدثون الضوضاء، وكان الألمان والأوكرانيين ما يزالون يصرخون. تطلع كورتشاك إلى الخارج من نافذة المطبخ فشاهد ما جعله يجري للخروج من باب الفناء الخلفي معه.
كان المكان يعجّ بالرجال الواقفين في الأرجاء. خمسة أو ستة من منظمة الأمن والمراقبة، وخطّ من الأوكرانيين، واثنان من الشرطة الصفراء وقوات الأمن الخاصة. كان الأوكرانيون يرتدون معاطف طويلة في الحرارة والتعرق، ويطالبون بالماء.
ليجكن كان ثانيًا يداه على وركيه أمام شرطته. سأله كورتشاك عمّا يحدث، فقال له أن يجمع الكل. كرر كورتشاك سؤاله فأجابه ليجكن الجواب نفسه. حينها أخبره كورتشاك أنه بحاجه لوقت كي يحزم الأطفال أمتعتهم، فقال له ليجكن إن أمامه عشرون دقيقة.
قال لي كورتشاك "اشرح له، أخبره أنني أحتاج مزيدا من الوقت"
قلت لليجكن "هو بحاجة لمزيد من الوقت"
نظر ليجكن ناحيتي "عشر دقائق"
اندفع كورتشاك إلى الداخل وصفق بيديه لجذب انتباه الجميع. السيدة ستيفا وعدد من الموظفين عملوا على جلب أولئك الذين كانوا في غاية القلق للاستماع إليه. طلب من اثنين من الأولاد أن يغلقوا

الباب. وحين حاول الأوكرانيّون منعهم هتف "ما يزال لدينا خمس دقائق" ثم سمحوا له بالإغلاق. وحالما أغلق الباب تدافع الأطفال إلى الأمام كما لو كان الأقرب له سيكون أكثر أمنا. فدفعت نفسي إلى الأمام وكنت مذعورا أنادي فقط "السيد الطبيب، السيد الطبيب". عقد ميتيك يديه على طرف قميصي للحفاظ على وضعيته، كان رأسه مليئا بالقمل وبدا كأنه يحمل شعرا رماديا.

قال كورتشاك "عُرف هذا المنزل بحسن السلوك حتى قيل في بعض الأحيان إنّ المرء يكاد لا يعرف أن هناك طفلًا واحدًا فيه!" قال إن والدته قالت له إنّه دون طموح لأنه دائما كان هو نفسه، سواءً لعب مع نظرائه من الأطفال أو مع أطفال البّواب. وقال إنه لا يوجد بينهم واحد يفضّل إجراء ما كنّا على وشك القيام به. وقال أينما نحن ذاهبون لن يكون هناك أوراق لعب ولا حمامات شمس ولا راحة. وحينما راح بعض الأطفال يحدثون ضجيجا قال إنه يقول لنا ذلك لأنه أمضى حياته كلها يطالب باحترام الطفل وأنه حان الوقت لممارسة ما بشّر به. أحدث المزيد من الأطفال ضجة فأشار لهم بيده ليسكتهم. وقال يجب ألّا ننسى موسى وأنه كان طفلا تحت حكم الإعدام. وأخبر الجميع أنه نجح في وقت ما في إقناع جيرزك أن لا يُغطّي النمل بالأوساخ، لكن من يدري؟ قال ربما بعد حين يعود ذلك النمل إلى المنزل ويحكي قصّة نجاته. وأخبرنا بأن علينا أن نرتب أنفسنا في أربعة صفوف بمساعدة الموظفين.

استغرق الأمر كل الوقت الذي بقي. وفتحت الأبواب فجأة قبل أن نتمكن من الانتهاء، وارتفع الصراخ مرة أخرى.

انتظر كورتشاك حتى يقفوا، ثم قال إنه بالفعل فخور جدا بنا ممّا

يجعل قلبه يخفق، ومَن قال إنه إذا كان لدى الشخص فرصة للنجاة ألا يمكن أن تكون لنا؟ وقال إنه سوف يستخدم سحره القديم وكلنا سنرى، سوف نجر الخبز والبطاطا والأدوية للجميع، وسيكون معنا مهما كان سيحدث لاحقا.

مدام ستيفا كانت تحضن أحد المرضى الذي عمره يتراوح بين الواحدة والخمس سنوات، وتُعطي مريضًا آخر لكورتشاك. حملها أمام الجميع وقال إن روميسيا ستكون حاملة لوائنا جنبا إلى جنب مع جيرزك الذي كان ينشر النمل. وطلب من أحد الموظفين أن يعطي جيرزك العلم الأخضر البرّاق مع النجمة اليهودية واثنان من الأولاد الأكبر يساعدانه في الرباط.

ميتيك لا يزال يرتدي حذاءه الفاسد ويحمل كتاب الصلاة لأخيه الميت، وابراشا بحاجبيه الغليظين كان يحمل آلته الموسيقية في كيسه. زيغموش كان خالي الوفاض، وبقية الأطفال حملوا ألعابهم أو أكوابهم. وكان معظمهم قد ارتدى غطاءه.

عند الباب الأمامي كان رجل القوات الخاصة يمسك لوح كتابة وراح ينادي الأسماء، فاستغرق بضع دقائق. بدا الأطفال أكثر تعلّقًا بكورتشاك. رجل القوات الخاصة نادى من خارج الباب حينما انتهى من عدّ مائة واثنين وتسعين طفلا بينهم عشرة بالغين، وأمر كورتشاك الموظفين أن يتوزعوا في الخارج، كلّ واحد منهم يُديرُ أربعة صفوف أو خمسة، لكن دورا وبالبينا لم يُعثر عليهما في موضعيهما. قالت دورا إنها ودّت طوال حياتها أن تكون في المقدمة، لكنها هذه المرّة فقط تريد أن تكون في أبعد مكان في الخلف. وقالت بالبينا إنها لم تر مثل هذا في حياتها كلها، وإنها المرة الأولى التي تنضمّ فيها إلى رحلة لا تعرف وجهتها.

كانتا ما زالتا تتجادلان حينما أخرجنا إلى ضوء الشمس الحار. كانت الأرصفة ممتلئة بحيث كان علينا السير في الشارع.

سألت مدام ستيفا، لمَ يحدث هذا؟ فأخبرها كورتشاك إنه من الآن صار مطلوبا من الجميع الوقوف أمام منازلهم حين تجري مثل هذه العمليات.

كان موكبًا ضخمًا، استعراض عسكري حاشد. الجميع مذهولون ويحدقون في ضوء شمس النهار. أغلبهم يحملون ملاعق وأوعية، وبعض الأطفال كانوا متهللين لأنهم يمشون سويا فقط.

السماء يكسوها الضباب، وكنا الوحيدين الذين نصدر ضجة بأقدامنا. الجميع يشاهد بصمت. صعدنا إلى سوسونا وسليسكا وكوميتاتوبا. وبعد عدة مبانٍ قال الناس للأطفال "ابقوا جيّدين" و "وداعا" بالأسماء.

جميع الأحذية على الحصى تصدر صوتا أجوف. كان هناك غبار شديد، وحين لجأنا إلى تواردا كانت الشمس في أعيننا. بدأت دورا بالغناء "رغم ولولة العاصفة حولنا" وعقدت يدها على جبهتها لتمنع الشمس حين تغني. ليس لها صوت قوي. قطعت وحدها مسافة نصف حي قبل مدام ستيفا وبالبينا وبقية الموظفين وكورتشاك مع الأطفال.

بدأت أتغنى باسم أخي الأصغر فقال زيغموش "هه، هذه ليست عبارة" فقلت له "لا شأن لك"

أحد الألمان المرافقين للموكب بدأ بالغناء. توقفت الأغنية في ساحة جابوسوسكا حيث رأينا الآخرين. أخذنا قسطا من الراحة أثناء محاولة الألمان تنظيم الجميع. وضع كورتشاك رومسيا على الأرض،

وبدا الناس في الساحة مصدومين لرؤيته كما هو مصدوم لرؤيتهم. وقفنا مع مجموعة كبيرة من الفتيات من مدرسة التمريض مرتديات زيهن الموحّد. قال كورتشاك للمرأة التي تقودهن إنه تمكّن من تأمين عربة خاصة لأطفاله.

حينما سمحوا لنا بالمضي مرة أخرى عند التقاطع كنا مثل فيضانين اندمجا، وبعد أن صار الحشد أكبر فقد تطلّب العمل بجدية أكثر لبقاء كل واحد مع مجموعته. أخذنا الأرصفة بينما اليهود يبحثون واضطروا للتراجع إلى المداخل أو الساحات أو أي مكان آخر فيه مساحة كافية، جميعهم تقريبا يحملون أكياسًا أو حقائب أو يسحبون محزّمات، يضربون الأطفال ويخلطون صفوفنا. دُفع زيغموش إلى جانب طريق مليء بأكياس مهجورة وأمتعة وكان يقاتل أثناء عودته إلى الموكب. صاح الناس بأنهم قد نسوا بطاقاتهم التموينية واضطروا للعودة أو سألوا إذا ما سيتوفر الماء في الطريق. وكانت الشرطة الصفراء تتجاهلهم كأن بهم صممًا.

في شارع كرومالانا رجل من القوات الخاصة يرتدي قبعة على شكل سرج حصان يشاهدنا بينما نمضي. أخذت جينا يدي وقالت لي إنها تخبّئ بعض الخبز في حقيبتها.

في شارع كلودنا كان هناك تباطؤ آخر بسبب تساقط الأطفال في صعود الألواح أعلى البرج، فهي مقوسة وتصدر صريرا تحت ثقل الجميع. وفي مكان ما خارج الجدار يقرع الآريّون جرس عربتهم. تمكنت من رؤية البوابة القديمة لعصابتنا. جيرزك لوّح بالعلم حين وصل أعلى الجسر، وبصق على الطريق. بقينا نمشي، وقد كنا نمشي منذ السابعة. كنا نمشي ونتمايل، نمشي ونتمايل، نمشي ونتمايل،

وأشعة الشمس مباشرة تسقط على رؤوسنا. آذاني ترن، والأطفال تعثروا وسقط بعضهم على بعض. كيف لهم أن يفعلوا ذلك دون طعام ولا ماء؟ شعرت وكأن فيضان شيء ما بداخلي. توقفنا مرتين في زامنهوف وبين حين وآخر أحدهم يقول اسم كورتشاك متفاجأ. خيوط حذائي انحلّت فتخلّصتُ منها. وكان بعض الأطفال يجب سحبهم من الرصيف حين عاودنا التحرك مرة أخرى، كانوا يبكون حيث كانوا عطشى، أو يريدون أن يستريحوا، أو بحاجة ليذهبوا إلى الحمّام. كورتشاك ما يزال في المقدمة حاملا أحدهم. مررنا بشقتنا القديمة ورأيت منزلي، ورأيت نافذتي. بوريس يقف عند الباب وذراعاه مطويتان وبجانبه والدته. البوابة حيث ينتهي الحي اليهودي مفتوحة جيدا قبل أن نصل إليها. الألمان والأوكرانيّون في صفوف على الجانبين ولديهم العصي والبنادق والكلاب.

كان الجميع يُدفعون عبر مسارات العربات التي فتحت على حقل من الأوساخ بجانب السكك الحديدية. أسلاك شائكة ملفوفة حول عمود إسمنتي مزقت كعّي. اليهود كانوا يبكون بالفعل، يجلسون ويقفون في الشمس الحارقة. الملابس وملاعق الحساء والألعاب مرمية في كل الأنحاء حولنا. صاح الناس وتعانقوا حين رأوا من يعرفون. تحلّق بعضهم في دائرة متقابلين وجها لوجه. قادنا كورتشاك إلى مكان ناء وجلس أصغر الأطفال عند الجدار في الظل. طلب من بعض الرجال التحرك لإفساح المجال. جلس هو مع الأولاد وجلست مدام ستيفا مع الفتيات. سأل أحد الأولاد ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ فسمعته يقول "نحن الآن ذاهبون في رحلة إلى الغابة". الشرطة الصفراء أخذوا العلم من جيرزك وألقوا به خلف الجدار وقال الأوكرانيون إن أي

أحد لديه حذاء جيد عليه أن يعطيه لهم. لأنها سوف تؤخذ في وقت لاحق على أية حال. ميتيك ما يزال ممسكا بطرف قميصي. الألماني ويتوسك وقف على رؤوسنا ويعيد تعريف نفسه على كورتشاك. كان زيه العسكري غارقا بالعرق حتى من خلال أكمامه المرفوعة، وقال إن الصوف غير مناسب لهذا الجو الحار. خلع قبعته ومسح جبينه بكمه، وكورتشاك حوّل انتباهه إلى الأطفال.

اعتذر ويتوسك عن ضرورة ما كان يحدث، ويأمل أن كورتشاك قد تفهم أن الضرورة شيء ومن يطبّقها شيء آخر. وقال إنه يريد الطبيب الجيّد أن يعرف أن ما كان يحدث كان سيحدث، لكن كيف يختار الجميع طريقة مواجهته هو المحك المهم.

فقال كورتشاك "أتفق معك". سمعت أحدهم يغني أغنية عن ملك سيبيريا، هتفت (بشر.. بشر) ثم وقفت ونظرت من حولي. بدأ الأوكرانيون والشرطة الصفراء بتحميل الأقرب إلى عربات القطار. الناس كانوا يصرخون كلّما سُحبوا من أقدامهم والألمان يتسكعون عند الجدار ويتفرجون وبعضهم يمازح الأطفال القريبين منهم. ارتدى ويتوسك قبعته مرة أخرى ومشى للانضمام إليهم.

الأوكرانيون والشرطة الصفراء ضربوا ودفعوا الجميع ما في وسعهم نحو المداخل المفتوحة. استخدم الأوكرانيون أعقاب البنادق كذلك. امتدت الأذرع والأيادي من النوافذ الصغيرة عبر الأسلاك الشائكة. وعندما بدا أنه لا توجد مساحة فارغة في العربات، سار الألمان بمسدساتهم وأطلقوا النار على الحشد، فتراجع الجميع في مكان التصويب للوراء، بينما زُجّ آخر ستة أشخاص أو سبعة في المساحة الفارغة من العربة.

امتلأ القطار وأغلقت الأبواب واليهود بداخلها يصرخون حتى غادر. علق الغبار في الهواء من حيث المنحدرات وضربت في الأسفل. وضع كورتشاك يديه على كتفي ابراشا وقال له شيئا، وحاول الأطفال الآخرون الانحناء لكي يسمعوا. وضعت مدام ستيفا ذراعيها حول فتاتين. أوكرانيٌّ انحنى على جينا وخرز أصابع الاتهام بصفتها، فجلست هناك ويداها في حضنها. رجال الشرطة الصفراء تجمعوا حول سطل الطلاء الأبيض وتبادلوا الأدوار في غَرف الماء. وبعضهم سكبوه فوق رؤوسهم. تولّى ليجكن المغرفة وأنا وضعت يد ميتيك على طرف قميص زيغموش وشققت طريقي ناحيته.

قال ليجكن "انظروا من هنا"

قلت له "أعرف أين تقع ثقوب كل المهربين"

قال ليجكن "وأنا كذلك"

العصابة حول قبّعته كانت مبلّلة جدا بحيث لا يمكن قراءة الحروف. ثم صبّ الماء على قميصه.

قلت له "أعرف مكان جميع المهربين"

فقال "وأنا أعرف أيضا"

فقلت له "لا تعرف" فراح يتطلع في وجهي وكأنه قد خُدع من قبل.

قال "سأخرجك إذن من هنا وسوف تُقدّم لي كل أولئك الناس"

أشرتُ إلى كورتشاك ومدام ستيفا وقلت "أنت أخرجهما من هنا وسوف أقدم لك أولئك الناس"

قال "أها.. حسنا الكثير من الناس يودّون الخروج من هنا" ثم قال شيئا لشرطي بجانبه. وتوجّها ماشيين ناحية كورتشاك.

قال ليجكن "السيد الطبيب"

قال كورتشاك "سيد ليجكن.."
لم يكن يرتدي نظارته وأشعة الشمس جعلته أحولَ.
قال له ليجكن "قطار آخر في طريقه إلى هنا"
كورتشاك "القطار الآخر دائما في الطريق" وكان يرتعش.
قال ليجكن "يبدو أن هذا الصبيّ يعتقد أنه لابد من إخراجك من هنا"
كورتشاك "أعتقد أننا جميعا يجب أن نخرج من هنا"
قال ليجكن "من الممكن الترتيب لذلك"
نظر كورتشاك إلى الأعلى "وكيف يمكن لذلك أن يحدث؟"
ليجكن "يجب أن تأتي معي وتسأل الضابط"
سأله كورتشاك "وأين هو؟"
قال ليجكن "ليس بعد، عشر دقائق سيرا على الأقدام"
كورتشاك "هل تضمن لي أنهم لن يؤخذوا بعيدا حينما أذهب؟"
ليجكن "أنت تمزح، أجل؟ أنت تمزح؟"
كورتشاك "إذن، لا"
فقلتُ "ربما يمكنك أن تُخرج الجميع من هنا"
سألني "لذلك يتوجب عليّ تركهم جميعا بمفردهم في هذا المكان؟"
قلتُ "سوف أراقبهم ويمكنك أن تستعجل"
قال "سوف تراقبهم أنت؟"
قلت "نعم سوف أراقبهم"
قال "وهل يمكنك أن تتخيل ما يحدث لو جاء القطار التالي بينما أنا هناك؟"
قلت "أرجوك"
قال "أرجوك ماذا؟"

صرخت "اسمعني"
لكن الحقيقة كانت أنني لا أستطيع تخيل أي شيء، أنا دائما أتخيل نفسي، متعبًا، لم أتخيل أي شيء آخر قط. وبدا صوت صافرة القطار القادم والأرض حول المكان المنحني على مد البصر، فكان هناك المزيد من الصراخ ومناداة الأسماء حتى صوت مكابحها أغرق الجميع.
تحوّل انتباه كورتشاك ناحية أولاده ووقفت مدام ستيفا متوجهة نحوه، بينما الفتيات متعلقات بتنّورتها. عقد كورتشاك يده وضغطت عليها. زيغموش وميتيك يجلسان القرفصاء دامعي الأعين وبائسين.
"أنا غاضب من نفسي" قال لي زيغموش، ومع قرب عربات القطار عادت الصيحات من جديد.
قال كورتشاك "الجميع يقف في أربعة صفوف"
صرختُ وترنحت وتكلّمت من غير وضوح، حتى أبعد أحدهم يديّ عن وجهي وقد كان كورتشاك. قال لي توقف، لكني لم أفعل.
قال كورتشاك "لم أُطلعكَ قط على بياني الرسمي لحقوق الأطفال"
والأطفال خلفه كانوا قد جمعوا حاجياتهم، الأولاد والفتيات معا وقد اتخذوا صفوفهم. سُحب زيغموش من بنطاله من الخلف فبكى، ورجل من الشرطة الصفراء بجانبه.
قال كورتشاك لنفسه "لم يبق فيّ أقلّ القليل ممّا يُترك سليمًا عادة"
انحنى كثيرا إلى الأسفل وأصبح قريبا منّي بما فيه الكفاية لأشم رائحته. ثم وضع يديه خلف رأسي وخفض جبهته لي. كنتُ أنتحبُ وكان وجهه رطبًا، لكن ظل يقترب أكثر.
"للطفل الحق في أن يُحترَم،
للطفل الحق في أن تُنمّى مواهبه،

للطفل الحق في أن يكون،
للطفل الحق في أن يحزن،
للطفل الحق في أن يتعلم،
وللطفل الحق في أن يرتكب الأخطاء".

ليس هناك ما هو معروف قطعيًّا عن الساعات الأخيرة من حياة جانوش كورتشاك وموظفيه وأطفاله. فبعد مضي وقت قصير على انقضاء الحرب، قِيل إنّه هو وستيفا وبعض الأيتام قد نجوا، حيث شوهدوا في قُرى في أنحاء بولندا. واختلفت الروايات، لكن الأرجح هي أنّهم رُحّلوا إلى تربيلينكا بعد ظهيرة اليوم الخامس من أغسطس عام 1942. وقد أبلغ قائد المخيم الدكتور إريمفريد إيبرل[27] رؤساءه بأن ذلك حدث حين كانت تربيلينكا في حالة فوضى عظيمة جرّاء ما يجري، وكانت هناك جبال من الجثث في طريق القادمين الجدد، وبالتالي فإن افتراض أن الذاهبين على الطريق إلى غرف الغاز لم يكونوا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، هو أمر مستحيل.

(27) Irmfried Eberl طبيب نفسي نمساوي والمدير الطبي لمراكز القتل الرّحيم. هو أول قائد لمعسكر إبادة تربيلينكا. مات منتحرا خوفا من المحاكمة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. م.

المؤلّف

ألّف جيم شيبارد أربع مجموعات قصصية، مثل (Like You'd Understand, Anyway) الفائزة بجائزة The Story Prize وتأهلت إلى نهائيات مسابقة National Book Award. نُشرت قصصه مرارًا في Best American Short Stories و The PEN. فازت روايته السابعة "سِفر هارون" بجائزة PEN/New England و Clark Fiction Prize. يعيش مع زوجته وأطفاله الثلاثة في ماساشوستس، الولايات المتّحدة.

المترجم

أمينة عبدالوهاب الحسن، قاصة من السعودية. أصدرت مجموعة قصصية بعنوان "سرير يتّسع". ترجمت مقالات ونصوص أدبيّة متفرّقة.

سِفر هارون

ينجح هارون في النموّ من مُهرّبٍ مبتدئ إلى أحد محترفي التهريب بين عصابات الحيّ، فيتمكّن من مساعدة أهله على البقاء أحياء وسط الاحتلال الألماني. لكن بعد أن تنزع الأحداث منه كل فرد من عائلته وأصدقاءه بطريقة ما، لا يبقى أمامه سو الالتحاق بالطبيب كورتشاك الذي يُدير ملجأ للإيتام؛ حينها فقط يشعر هارون أن إنسانيّته راحت تتعافى رغم الموت المحدق بالجميع. وكي يستعيد طفولته المسلوبة، يبدأ بمواجهة العالم وصدّ ه مُحتميًا بأبواب الملجأ.

الطبيب كورتشاك (1878-1942) Janusz Korczak والمعلّمة ستيفا Stefania Wilczyńska (1886-1942) شخصيّتان حقيقيّتان من التراث اليهودي رفضتا الرّحيل إلى فلسطين للنجاة بأنفسهما، حيث بقيا معًا في وطنهما يواجهان الاحتلال الألماني سلميًّا. أدارا ملجأ للإيتام كان يُعتبر دولةً بأكملها للإطفال: تُصدر الصُّحُف، ولها برلمانها الخاصّ، وتقيم فعاليّاتها العموميّة.

الحائز على جوائز «كتاب العام» في
Washington Post, Huffington Post and Buzzfeed.

«تحفة روائية.. قصة بهذه البراعة عن تعقيدات اتخاذ القرارات الشجاعة التي تتطلب منّا أعمق التضحيات»
The Washington Post

«تقبض على القارئ بقوة، وتهزّه بجمالها.. شيبارد الذي عُرف لسنوات بكتاباته الأنيقة، يأتينا الآن بتحفته الأروع»
NPR

«ممتعة... شيبارد يرسم جحيمًا من اعترافات الحب والتضحية»
The Guardian

Cover design and collage by John Gall

ISBN 978-9948-10-088-1
9 789948 100881

روايات
REWAYAT